

CORNELL  
UNIVERSITY  
LIBRARY

D  
199  
.3  
A12



PL 10  
10980

المجموعة التاريخية  
مطبعة كاتبة الآداب بجامعة فاروق الأول

# صَوَرٌ مِنَ النَّاتِجِ الْإِسْلَامِيِّ العصر العربي

تأليف

عبد الحميد بكري العياوي

عميد كلية الآداب بجامعة فاروق  
أستاذ التاريخ الإسلامي

مكتبة الآداب للطباعة والنشر ٢٢ شارع محرم بك

الاسكندرية ١٩٤٨



al-Abhādī, 'Abd al-Hamid, d. 1956  
Suwar min al-tārīkh al-Islāmī

13998940  
55  
V.P.K



ص

## الإهداء

إلى إخواني وتلاميذي من خريجي مدرسة القضاء الشرعي ، ودار العلوم ،  
وكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول وفاروق الأول ، والأزهر الشريف ، ودار  
المعلمين العالية ببغداد ، أهدي الكلمات التي يشتمل عليها هذا الكتاب ؛ فهي  
ثمرة دروس وبحوث ألقيتها عليهم ، وكان حسن قبولهم لها ، وانتفاعهم بها  
أكبر باعث لي على أن أستخلص منها هذه الكلمات التي نشرتها من قبل  
مفرقة في الصحف والمجلات ، والتي أعيد نشرها اليوم في كتاب ؟

عبد الحميد العبادي

رملة الاسكندرية في ) ٩ ربيع الأول سنة ١٣٦٧  
( ٢٠ يناير سنة ١٩٤٨

# كلية الجمعية التاريخية

لخريجي كلية الآداب بجامعة فاروق الأول

هذا هو الكتاب الثاني من الكتب التي تصدرها جمعيتنا التاريخية<sup>(١)</sup>، وهو كتاب نعتز به كل الاعتزاز، لا لأنه كتاب رئيس الجمعية، بل لأنه كتاب علم من المثاني، بين كتب التاريخ. وقد يحق لكثير من الجمعيات أن تتسابق في الانفراد بتقديمه إلى الشعوب العربية المختلفة التي عرفت المؤلف الجليل من مقالاته ومحاضراته فقدرت ذوقه التاريخي تقديرا لم يبلغه فيما نرى أحدا من مؤرخي الإسلام في الشرق الحديث.

ولاستاذنا عبد الحميد العبادي بك فضل كبير على التاريخ الإسلامي تعرفه حق المعرفة أجيال تخرجت على يديه منذ ثلاثين عاما أو تزيد. فقد استمعت لدروسه القيمة أجيال من الشباب كثيرة، فضلت تحتفظ بأجل الذكرى لما سمعت، وظلت على الأخص تحتفظ بصورة الماضي الإسلامي التي رسمها لهم ونقشها في أذهانهم رسما بسيطا ونقشا حيا، حتى لم يجدوا عناء في حملها كأنما صاغها من نفوسهم. بل قد لا يتجاوز الحق في شيء إن زعمنا أن جيل المؤرخين الحاضر إنما يردد بعض صور الأستاذ أو يتخذها أساسا لدراسته الإسلامية. ولقد سمعت دروسه تليذا ثم سمعت شيئا منها زميلا، فخيّل إلى أنني كنت أشد إعجابا بها وأعظم طربا لها حين أصبحت زميلا مني حين كنت تليذا. ولكن هذه الدروس جانب مجهول مجيد لم يدعه الأستاذ الجليل على الناس بعد.

نعم، فضل الأستاذ الجليل على التاريخ الإسلامي كبير الأثر، لأنه نقله من

(١) الكتاب الأول، الجبل في تاريخ لوبيا، تأليف مصطفى بيرو الطراباوي، ١٩٤٧.



عده الأول إلى عهد جديد : كان التاريخ الإسلامى لا يزال فى آخر القرن الماضى وأول القرن الحاضر من العلوم النقلية الصرفة . فكان المؤرخون فى الغرب الأوروبى والشرق العربى أيضا يقتصرون على تمحيص الروايات التاريخية المختلفة بقدر ما يتيح لهم طرائقهم الرفيعة فى التمحيص ، ثم يسوقونها فى سرد متسق لا يحتاجون فيه إلا إلى اليسير من الربط . هكذا كان كوسان دى برسفال ودفيرى وغيرهما فى فرنسا وموير فى إنجلترا وفابل فى ألمانيا ، وهكذا أيضا كان ما كتب الشرفيون أنفسهم ، فمنهم من كان يعمد إلى المصادر فيلخصها تلخيصا يتفاوت فى إيجازه قصرا وطولا ، مثل الشيخ عبد الله الشراوى . ومنهم محمد الخضرى بك ، بل لعل الخضرى كان يغالى فى الطريقة القديمة حتى ليحفظ لرواياته بلفظها القديم . وكتابه لهذا يعد من أصلح الكتب فى نوعه إذا اعتبرناه كتاب نصوص ، ولا تزال إلى اليوم ننصح المبتدئين فى التاريخ بقراءته ليتعودوا أساليب المصادر . حتى أنشئت الجامعة المصرية القديمة فأنشأت جيلا جديدا كان خير شاهد بفضلها . من هذا الجيل أساتذتنا أصحاب المنهج العلمى الحديث : طه حسين بك فى الأدب ، وأحمد أمين بك فى الحياة العقلية ، وعبد الحميد العبادى بك فى التاريخ .

فهجر التاريخ الإسلامى طريقه القديم الذى سلكه قرونا طويلة ، وسائر باقى فروع التاريخ الأخرى فى أوربا . وتجاوز الدور البسيط الذى مرت به كل الشعوب تقريبا ؛ ثم لم يقنع بالتقدم البراق الذى عرض له فى القرن التاسع عشر على يدى جيبون وفولتير من قبل ، لأن هذا التقدم لم يكد يغير إلا مظهره بما أدخل عليه من تنظيم الوقعات وتبويب بعضها بالقياس إلى بعض وترتيبها فى أسلوب جميل يختلف حظه من الإمتاع . وإنك لنقرأ المختارات من كتب التاريخ التى ظهرت فى فرنسا على هذا الأسلوب فتجدها قطعاً رائعة من الأدب الخطابى

الرفيع ، تحدث في النفس أروع الأثر . ولسكنها على ما تقتسر من الروعة قليلة  
الحظ من الصفة التاريخية الصحيحة ، وخاصة حين تغلب عليها النزعة الغنائية .  
ونمثل هذا الانتقال في آثار الأستاذ الجليل . فإذا الأستاذ يقفر بالتاريخ  
الإسلامي في مصر قفزة العملاق ، وإذا به يتتبع آثار جييون ويورى وغيرهم  
من عظماء المؤرخين ويعالج التاريخ الإسلامى كما يعالجه كبار المؤرخين المعاصرين  
في أوروبا بالقياس إلى فروع التاريخ الأخرى .  
فلأستاذ الجليل طريقة علمية دقيقة أعانته عليها ملكاته : فإنه يجمع إلى قوة  
النقد وطلاقة الاستنباط فطرة سليمة تجبـله على السعى إلى فهم كل شىء . ثم  
أسلوب أدبى رزين يعارض به الأساليب القديمة أحيانا ويبلغ به حد الإجادة  
لا عن طريق الأسلوب وحده ولكن عن طريق الرسم السهل الممتنع خاصة .  
ومن وراء كل هذا أساس تاريخى عتيد مبنى على قراءات واسعة مستفيضة وإفرة  
الحظ من الإجادة والإتقان ، أعانته عليها ذوقه الأدبى الممتاز ، فهو يحفظ بعضها  
عن ظهر قلب ويتمثل بعضها تمثيلا حيا . ولكن الأستاذ حريص دائما على أن  
لا يشغل بها القارىء ، وأن لا يثقل بها سرده التاريخى القوى البناء . ثم هو  
من أكثر المؤرخين حرصا على تجنب التفاصيل التى تملأ الصورة التاريخية أحيانا  
فتذهب برونقها ووضوحها ، وهو من أوسعهم نظرا أيضا : فلا يكاد ينتهى من  
تصوير الواقعة الخاصة حتى يضعها فى إطارها من التاريخ العام وضعا لا تنبوعه .  
ولهذا كان مجيدا فى صورته التاريخية . فهى أشبه شىء بالتخطيط القوى فى دلالاته .  
ولهذا كان عبد الحميد العبادى بك مؤرخا فنانا فإذا صاحب طريقة خاصة ،  
فاستطاع أن يجمع بين الأدب وبين التاريخ فى آن واحد . له من التاريخ منهجه  
العلمى الدقيق ، وله من الأدب جمال الصورة وروعيتها . فإن صح هذا الوصف

لطريقته فهو يعالج نوعين من العلم في نوع واحد ، ويلقى على نفسه حملا كان  
حر يا أن يشقله لولا أن ملكاته الوافرة تعينه عليه وتقدره على حمل لوائه ،  
وترفعه إلى منزلة جليلة .

وفي هذا الكتاب نوع خاص من أبحاثه : هو صور من التاريخ الإسلامي  
بعضها يدخل في باب التراجم فيقفز بهذا الباب إلى مستوى رفيع ، وإلى فن لم يفظن  
إليه الأقدمون على كثرة تأليفهم فيه ، وبعضها إحياء رائع للأجواء التي كانت  
موطن الإسلام الأولى مثل دار الندوة أو دار الأرقم المخزومي . وهو نوع  
من البحث تظهر فيه مواهب الأستاذ ظهورا يغنيننا عن وصفها والإدلال على  
محاسنها . فهي غنية بذاتها عن الوصف والثناء . وما أردنا إلا أن نبين طريقة  
المؤلف الجليل ومنهجه التاريخي الدقيق المحكم . وقد كان من حقه علينا أن نشيد  
بآثاره ، لولا أن في الثناء وقوعا في الحرج ووضعنا لأنفسنا فوق موضعها .  
ولنسجل في آخر هذه الكلمة شكرنا لأستاذنا على استجابة رجائنا ، وإذنه  
في نشر هذه المقالات التاريخية القيمة ٩

عن الجمعية التاريخية

محمد عبد الرهاني شعيره

الاسكندرية في } ١٠ ربيع الأول سنة ١٣٦٧  
} ٢١ يناير سنة ١٩٤٨

## دروس من الصحراء

لقد أسعدني الحظ فسافرت في الصحارى وسلكت طرقها ومسالكها  
غير مرة .

تجولت في صحراء مصر الغربية وتنقلت بين واحاتها العتيقة المتقدمة. وضربت  
في صحراء مصر الشرقية مر تاداً شعابها وأوديتها وشم جبالها . وسلكت من جزيرة  
العرب ما بين جدة ومكة ، وما بين مكة والمدينة ، كما جزت بادية الشام وعبرت  
البرية المترامية الواقعة بين الشام والعراق . وأشهد لقد علمتني هذه الأسفار من  
أمر الصحراء ما لم أكن أعلم ، ووقفنتي من أسرارها ومكنون أمرها على ما  
لم أكن لأبلغه بالدرس والقراءة ، مهما جهدت .

\*\*\*

لقد كنا عند اعترام السفر في الصحراء نأخذ أهبتنا للأمر أشد الأخذ ،  
ونستعد له أتم الاستعداد ، تفادياً مما عسى أن يفجأنا في سفرنا من نفاذ الزاد  
أو الماء أو العتاد ، وكنا في ذلك إنما نعول على أنفسنا موقنين بأن التفريط والتهاون  
قد يكون وخيم العاقبة ، وقد يفضى بنا إلى الهلاك المحقق وليس من شك في أن  
التعويل على النفس والاحتياط للمستقبل أول سمات الرجولة الصحيحة وملاك  
أمرها ، وهذا أول درس تلقيه الصحراء على من يغامر بنفسه في مجاهلها .

\*\*\*

واكفنا على الرغم من استعدادنا ومبالغتنا في التوقى والاعتماد على

---

(١) التقائه العدد ٤١٣ (٢٦ نوفمبر سنة ١٩٤٦)

النفس كنا لا نبرح يخالطنا شعور قوى خفى بأننا على شفا أمر مخوف ، وغيب  
مجهول ، وأننا ضاربون فى عماية لا نأمن بغتاتها وفجائتها ، فن يدرى ! فلعلنا  
لخلل فى تقديرنا وأمر لم يدخل فى حسابنا ، نمتى وقد انطوت علينا الصحراء  
انطواء اليم الخضم على من انخرقت به سفينته ، فإذا أجسادنا جزر سباعها وعقبانها  
ومدب حشراتنا وهوامها .

من أجل ذلك كنا لاندع التوكل على الله والاعتماد عليه بعد الاعتماد على  
أنفُسنا ، مسندين إليه سبحانه حولنا وقوتنا . ولا شك أن الإيمان بالله على هذا  
النحو هو الإيمان الصحيح ، وأن التوكل على الله على هذه الحالة هو التوكل المحمود ،  
وهذا درس آخر بليغ يستفيدة المسافر فى الصحراء .

\*\*\*

ثم إن للصحراء روعة أى روعة ، وجمالا أى جمال . وحذار أن تخدعك  
عن روعتها وجمالها رمالها الوعاء ، وجبالها الجرداء ، وحرها اللافح ، وبردها  
القارس ، فما تلك لعمرك إلا بمنزلة أطمار على أقمار ، وأسما على حسناء معطال .  
ورويدك حتى يقبل الربيع ، ويرق الهواء ، وتضع الأرض حملها ، فتزى  
عجبا من العجب ، فى الزهر المفوف ، والعشب المخضر ، والطيور الصادحة  
والظباء السارحة ، والإبل الراعية ، والشاء الثاغية ، والقوم يتصايحون  
جذلا وجورا .

ورويدك حتى يقبل المساء ، ويطلع القمر ، وتتلأأ النجوم والكواكب ،  
ويخيم على الصحراء مسكون يكاد لهبته يحسه سمعك المرفه ، فتزى ضالة غير متناهية  
إزاء عظمة غير متناهية . فإذا غاب القمر ومد الظلام على اليباء رواقه ، وطرق  
سمعك عصف الرياح وهى تنسلك بين الجبال أو تهوى فى المهاوى السحيقة ،

وترامت لعينيك أشباح غريبة وصور عجيبة ، وخيل إليك أنك تسمع عزيف  
الجن وصراخ السعالى ، وأنتك تراها وتحسها ، وأنها تراوغك تارة عن يمينك  
وأخرى عن شمالك ، فلا ترع ، فجن الصحراء وسعالها ليس الخبث والغدر من  
طبعها ، وقد عرفنا قداماء العرب وعرفتهم ، وكان لهم معها ولها معهم شئون  
وشئون ، فتارة كانوا يصارعونها فيصرعونها أو تصرعهم ، وتارة كانوا يحبونها  
وتحبهم ، ويصهرون إليها فتلد لهم البنين والبنات ، وطورا كانوا يصادقونها  
ويحالفونها فتبنى لهم ويفنون لها ، وطورا كان يستلمها شعراؤهم فتلمهم عيون  
الشعر وروائع القوافى . فهل تدرى ماذا توحى الصحراء بكل ذلك ؟ إنها توحى  
معنى الفن الرفيع والعبقرية والجمال .

الصحراء تبعث فى نفوس أهلها وعشاقها الرجولة الكاملة ، والإيمان الصادق ،  
والعبقرية التامة . فان شئت على ذلك دليلا فعليك بأبطال العرب فى الجاهلية  
والإسلام ، فان آيت إلا الطريق السهل ، والقول الفصل ، والحجة البالغة ، المعجزة  
الدامغة : فعليك بسيرة نبي الهجرة عليه السلام ؟



## « مصر القديمة » وآثارها

مصر القديمة حتى من أحياء العاصمة ، له من انفراده جنوبيا ، ومن صبغته الوطنية الخالصة ، ما يجعله أشبه شيء بمدينة قائمة بنفسها . وهو عريق في المصرية ، ترى فيه المسلم إلى جانب القبطي في المسكن والمتجر والمصنع ، وتعرف فيه الأثر التاريخي الإسلامي قريبا من الأثر التاريخي القبطي . ثم لا تجد فيه سلطان الأجانب الاقتصادي واضحا ولا عنصرهم مائلا مثوله في أحياء العاصمة الأخرى . والحى هادىء ساكن ، قد خلع عليه القدم ثوبا ضافيا من وحشة مقرونة بجلال . والسكان قارون وادعون لا يسكدهم حزن أو يستخفهم فرح ، كأنهم لطول ما تتابع على حبيهم من غير الدهر وصروفه قد رسخت أحلامهم وصاروا إلى شيء من الاطمئنان الفلسفى غير قليل .

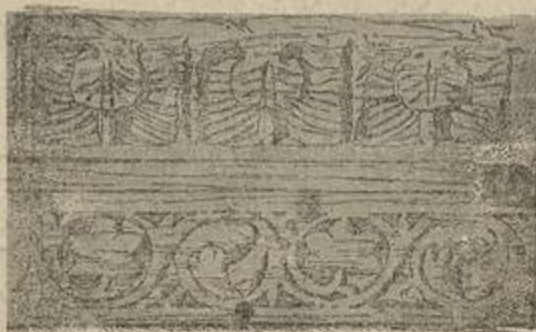
« ومصر القديمة ، على ضيق رقعتها وتقارب أرجائها ليست بقليلة الآثار . وآثارها برغم ما أصابها من البلى والعفاء لاتزال مائلات شواهد بكثير من حوادث التاريخ العظام . فإذا بكرت مرة أيها القارىء إلى مصر القديمة ، ووقفت في هدأة الصبح وحين ادكار القلب ونشاط الذاكرة حيال « حصن بابلون ، أو وسط « الجامع العتيق ، أو بين خرائب « الفسطاط ، فقد تؤدى إليك الذاكرة أنباء كثيرة من عبر التاريخ المصرى .

فهذا الحصن الذى تستنقذه الآن مصلحة الآثار من أيدي البلى يذكرك

(١) السفر ، العدد ١٨٢ ، ١٢٤ ديسمبر ١٩١٨ .

بقيام دولة في هذه البلاد على أطلال دولة تأذن الله بانحلالها وذهاب ريجها .  
وهذا الجامع العتيق يريك معنى للفتوح العربية الأولى قد يخفى على من يقرأ  
التاريخ عجلان غير مثبت . وتنطق بين يديك خرائب الفسطاط بما قاسته  
الفسطاط من نيران « شاور بن مجير السعدى » وزير « العاضد لدين الله » الفاطمى  
وقد زحفت إليها الجيوش الصليبية من فلسطين حتى أصبحت أثرا بعد عين .

فإذا تركت أيها القارىء تلك الآثار ، وأخذت في سيرك ذات اليسار ، وجدت  
النيل لم يبرح كما كان أيام الفراعنة والفرس والبطالمة والرومان والعرب والترك ،  
يتدفق تدفق الزمن هيناً ليناً حثيثاً مطرداً ، لا يعبأ بما يتعاقب على عدوته من  
الدول والأجيال . إنه يمثل القوة الباقية الخالدة ، كما تمثل الخرائب القائمة على  
جانبيه القوة الزائلة الفانية .





## دار الندوة<sup>(١)</sup>

كان العربي القديم ، ديموقراطيا بطبعه ، بمعنى أنه كان ينفر من الاستبداد ، ويؤثر الشورى ورأى الجماعة على رأى الفرد . وأقدم أخبار العرب تدل على توافر هذا الروح الديموقراطى عندهم . من ذلك ماورد فى القرآن الكريم حكاية عن بلقيس ملكة سبأ حين جاءها الهدهد بكتاب سيدنا سليمان ملك بنى اسرائيل ، « قالت ياأيها الملأ إني ألقى إلى كتاب كريم ، إنه من سليمان ، وإنه باسم الله الرحمن الرحيم ، ألا تعلوا على وائتوفى مسلمين . قالت ياأيها الملأ أفتوفى فى أمرى ، ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون . قالوا نحن أولو قوة وبأس شديد ، والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين » ، ومحل الشاهد هنا استشارة بلقيس للملأ من قومها ، وقولها إنها لاتقطع أمرا قبل الرجوع اليهم ، ورد الملأ عليها . وقد فسر الملأ ، بأنه الرؤساء لأنهم ملأ بما يحتاج إليه ، وبالجماعة ، وأشرف القوم ووجوههم ومقدميهم الذين يرجع إلى قولهم . ويروى أن النبي ﷺ سمع رجلا من الأنصار وقد رجعوا من غزوة بدر يقول « ما قتلنا إلا عجائز صلعا ، فقال عليه السلام « أولئك الملأ من قريش ، لو حضرت فعالهم لاحتقرت فملك » ، ومن معانى الملأ ، « المشاورة » .

وفى حديث عمر بن الخطاب حين طعن : « أكان هذا عن ملأ منكم ؟ » ، أى مشاورة من أشرافكم وجماعتكم . وكانهم لخطوا فى أشرف القوم صفة تلزمهم وهى حسن الخلق فجعلوا من معانى الملأ ، حسن الخلق وأنشدوا :

(١) حديث بلراديو فى ١٨-١-١٩٤٥ .

تنادوا يا بهشة إذ رأونا فقلنا أحسنى ملا جهينا  
 أى أحسنى أخلاقا يا جهينة أو أحسنى الممالة والمعاونة ، ومنه قول النبي  
 ﷺ لبعض أصحابه وقد ضربوا أعرايا بال في المسجد : « أحسنوا أملاءكم ، أى  
 أخلاقكم ، فالملأ معناه أشرف القوم والجماعة والمشاورة ، كما يفيد أحاسن  
 الأخلاق ومكارم الطباع .

وما جاء به القرآن عن وجود نظام للشورى عند اليمن القدماء قد صدقته  
 الكتابات اليمنية القديمة التى عشر عليها العلماء الأوربيون الذين عنوا بتاريخ  
 اليمن القديم ، فالخبر صحيح من ناحيتى الأثر الساموى والتاريخ البشرى .

\* \* \*

ولا يقل عرب البوادي عن عرب الحواضر من حيث الروح الديموقراطية ،  
 فكان سيد القبيلة أو شيخها كما نقول الآن ينتخب انتخابا طبيعيا ، على معنى أنه  
 يصبح بالفعل سيد القبيلة إذا فاق أفرادها فى الفضائل التى تأتى عادة من قبل  
 الطبع لا التطبع كالشجاعة والفصاحة والكرم ونضج العقل ووقار السن . ولما  
 لم يكن من المؤكد أن تنتقل هذه الصفات من طريق الوراثة من الآباء إلى  
 الأبناء والأحفاد لم تكن سيادة القبيلة منصبا وراثيا إلا فى النادر ، وإلى ذلك  
 يشير عامر بن الطفيل أحد سادات العرب فى الجاهلية بقوله :

وإني وإن كنت ابن سيد عامر      وفارسها المشهور فى كل موكب  
 فما سودتني عامر عن وراثة      أبى الله أن أسمو بأم ولا أب  
 ولكنى أحمى حماها وأتقى      أذاها وأرمى من رماها بمنكبي  
 وليس سيد القبيلة بالحاكم المستبد بقبيلته ، وإنما هو خادمها الأول ، يدل على

ذلك قولهم المأثور « سيد القوم خادهم » ، ويحد من سلطانه مجلس القبيلة الذى يتألف من أشرف القبيلة وذوى المكانة والرأى والسن فيها ، يجتمعون للتشاور فى شئون القبيلة وليمدوا سيدها بالرأى، إذا حزب أمر أو ألم خطب .  
 لم يصل إلينا مع الأسف شىء يذكر من المناقشات التى كانت تجرى فى هذه المجالس القبلية كما يصح أن نسميها ، وذلك لأن العرب كانوا أمة أمية لاتدون أخبارها . ومع ذلك فى الشعر الجاهلى ما يلقى ضوءا على حقيقة هذه المجالس .  
 ومن ذلك قول مهمل فى رثاء أخيه كليب :-

نبئت أن النار بعدك أوقدت      واستب بعدك يا كليب المجلس  
 وتكلموا فى أمر كل عظيمه      لو كنت حاضر أمرهم لم ينبسوا

\*\*\*

وأشهر المجالس القبلية عند العرب قبل الاسلام المجلس الذى كان لقريش بمكة، وكان يعرف بدار الندوة .

كانت هذه الدار فيما يروون دار قصى بن كلاب الذى جمع بطون قريش وأنزلها مكة، وذلك قبل الإسلام بنحو مائة وخمسين سنة . وكانت الدار ملاصقة للمسجد الحرام من ناحية الجهة الشامية من الكعبة . وكانت فسيحة وسبعة ، وفيها كانت قريش تقضى فى شئونها العامة :

- (١) فى دار الندوة كانت تعقد قريش لوائها إذا خرجت للحرب .
- (٢) ومن دار الندوة ترحل قوافلها للتجارة، وفى فنائها تحط هذه القوافل حولتها إذا رجعت .
- (٣) وإذا بلغ غلام لقريش عذر ( أى ختن ) فيها .

(٤) وإذا بلغت جارية لقريش جاء بها أهلها إلى دار الندوة فشق عليها قيم الدار درعها (أى قميصها)، ثم درعها إياه، ثم انقلب بها أهلها فحجبوها، والظاهر أن الغرض من الأمرين الأخيرين مجرد إحصاء وتسجيل للبالغين من قريش من الذكور والإناث .

(٥) على أن أهم خصائص دار الندوة أنها كانت دار مشورة قريش، فيها يجتمع ملؤها للتشاور في أمورها، وه الندوة، الاجتماع والجماعة. ولم يكن يدخلها للمشورة من غير بنى قصى إلا ابن أربعين سنة، في حين كان يدخلها بنو قصى وحلفاؤهم جميعا .

\* \* \*

ولدينا نص عربي قديم يصحح أن نعتبره مثالا لنوع المناقشات البرلمانية التي كانت تجرى في دار الندوة، إذا حزب قريشا أمر أو ألم بها خطب. يصف هذا النص اجتماع قريش في دار الندوة وحوارها عندما أرادت الخيلولة بين محمد ﷺ وبين الهجرة إلى المدينة. وما انتهى إليه رأيها في ذلك. قال المؤرخ العربي القديم محمد بن اسحق « فاجتمعوا في دار الندوة... يتشاورون فيما يصنعون. واتعدوا يوما يجتمعون فيه، فلما كان ذلك اليوم اعترضهم إبليس (والمراد بالطبع زعيم المعارضة المتطرفة في ذلك اليوم)، في هيئة شيخ جليل عليه بت له. فوقف على باب الدار، فلما رأوه واقفا على بابها قالوا من الشيخ؟ قال شيخ من أهل نجد سمع بالذي اتعدتم له فحضر معكم ليسمع ما تقولون، وعسى ألا يعدمكم منه رأى ونصح. قالوا أجل! فادخل! فدخل معهم، ثم يسرد المؤرخ أسماء من

حضر في ذلك اليوم من أشرف قريش فيقول : « وقد اجتمع فيها أشرف قريش  
كلهم من كل قبيلة : من بني عبد شمس شيبية وعتبة ابنا ربيعة وأبوسفيان بن حرب ،  
ومن بني نوفل بن عبد مناف طعيمة بن عدى ، وجبير بن مطعم ، والحارث بن  
عامر بن نوفل ، ومن بني عبد الدار ، النضر بن الحارث . ومن بني أسد ، أبو  
البختري بن هشام وزمعة بن الأسود وحكيم بن حزام . ومن بني مخزوم ،  
أبو جهل بن هشام . ومن بني سهم نبيه ومنبه ابنا الحجاج . ومن بني جمح  
أمية بن خلف . قال واجتمع غير هؤلاء من لا يعد من قريش . » ثم يمضي  
ابن اسحق في تصوير ما حدث فيقول : « قال بعضهم لبعض إن هذا الرجل قد  
كان من أمره ما كان وما قد رأيتم ، وإنا والله ما نأمنه على الوثوب علينا بمن قد  
اتبعه من غيرنا ، فأجمعوا فيه رأيا ! قال فتشاوروا . ثم قال قائل منهم : احبسوه في  
الحديد وأغلقوا عليه بابا ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين قبله  
زهيرا والنابعة ومن مضى منهم من هذا الموت ، حتى يصيبه منه ما أصابهم !  
فقال الشيخ النجدى : « لا والله ما هذا لكم برأى . والله لو حبستموه كما تقولون  
لخرج أمره من وراء الباب الذي أغلقتموه دونه إلى أصحابه ، فلا وشكوا أن يشبوا  
عليكم فينتزعوه من أيديكم ، ثم يكاثروكم حتى يغلبوكم على أمركم هذا ، ما هذا لكم  
برأى فانظروا في غيره ، !

ثم تشاوروا ، فقال قائل منهم : نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلدنا ، فإذا خرج  
عنا فوالله ما نبالي أين ذهب ولا حيث وقع ، غاب عنا أذاه ، وفرغنا منه  
فأصلحنا أمرنا وألقتنا كما كانت . »

فيقول الشيخ النجدى : « والله ما هذا لكم برأى ، ألم تروا حسن حديثه وحلاوة

منطقه وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به ، والله لو فعلتم ذلك ما أمنت أن يحل على حى من العرب ، فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه ، ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم بهم فيأخذ أمركم من أيديكم ، ثم يفعل بكم ما أراد ! أديروا فيه رأيا غير هذا ،

قال فقال أبو جهل بن هشام : والله إن لى فيه لرأيا ما أراكم وقعتم عليه بعد ! قالوا : وما هو يا أبا الحكم ؟ ، قال أرى أن تأخذوا من كل قبيلة فتى شابا جلدا نسيبا وسيطا فينا ، ثم نعطي كل فتى منهم سيفا صارما ، ثم يعمدون إليه ، ثم يضر بونه به ضربة رجل واحد فيقتلونه فنستريح ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل كلها فلم تقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا ورضوا منا بالعقل : اى بالدية ، فعقلناه لهم . فيقول الشيخ النجدى : القول ما قال الرجل ! هذا الرأى ! لا رأى لكم غيره ! ، فتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون له . . ونحن نعلم أن ما دبرته قريش فى ذلك اليوم لم يفلح وأن الرسول أتم هجرته إلى يثرب . وإلى هذا الذى جرى من اجتماع قريش واتهامها بمحمد يشير القرآن الكريم بقوله : وإذ يمكركم الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ، وبقوله أيضا : أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون . قل تربصوا فإنى معكم من المتربصين . .

\*\*\*

هذه دار ندوة قريش وبرلمانها فى الجاهلية وعند ظهور الدعوة الإسلامية . أما ما آل إليه أمرها بعد الإسلام فليس يهمننا كثيرا ، وبكفى أن نقول إنها بدخول قريش فى الإسلام انتهى أمرها من حيث هى دار مشورة وندوة ، فلما كانت خلافة

معاوية بن أبي سفيان اشتراها من صاحبها بمائة ألف درهم ، وجعلها دار الإمارة بمكة ، ثم أهمل أمرها وخربت ، فلما كان زمن الخليفة المعتضد بالله العباسي أمر بهدمها وإدخالها في المسجد الحرام . وبذلك اندرجت دار الندوة القرشية الصغرى في دار الندوة الإسلامية الكبرى .

\*\*\*

أما بعد ، فلعلنا نكون قد أوضحنا في هذا الحديث أن العرب القدماء كانوا مشبعين بالروح الديمقراطية على اختلاف عصورهم وتنوع درجات تحضرهم ، ولقد أقر الإسلام نظامهم الديمقراطي فيما أقر من نظمهم وعاداتهم ، وأمر الله رسوله بالأخذ به ، فقال سبحانه وتعالى « وشاورهم في الأمر » ، وجعله من صفات المؤمنين في قوله : « وأمرهم شورى بينهم » . ثم زاد سبحانه هـذا النظام تنويها بقدره وإعظاما لشأنه ، فأنزل سورة من سور القرآن أسمها « سورة الشورى » .



# أحابيش قریش

هل كانوا عربا أو حبشا (\*) ؟

يستعمل لفظ « الأحابيش » ، في الدلالة على القوة العسكرية التي كانت قریش تستأجرها قبيل الإسلام ، للدفاع عن بلدها وقوافلها التي كانت تتردد بين الشام واليمن . ويؤخذ من صريح النصوص العربية ، لغوية كانت أو تاريخية ، أن هذه القوة كانت عبارة عن حلف قوامه أحياء من عرب كنانة وخزيمه اللتين كاتتا تنزلان أغوار تهامة ، ومن خزاعة التي كانت تنزل بظاهر مكة . بهذه النصوص أخذ المستشرق الألماني الكبير فلهاوزن ، فقال في كتابه الذي ألفه عن الوثنية العربية <sup>(١)</sup> هذه العبارة : Die politischen Verbundeten den : Quraisk sind die Ahabisch. ومعناها « الأحابيش أحلاف قریش السياسيون » .

ولكن الأب لامانس المستشرق اليسوعي المعروف نشر في المجلة الآسيوية <sup>(٢)</sup> مقالا ضافيا عنوانه : Les Ahâbis' et l'organisation militaire de la Mecque ، ذهب فيه إلى أن رواة اللغة العربية قد وهموا في تفسير هذا اللفظ ، وأن الأحابيش كانوا كلهم ، أو جلهم على أقل تقدير ، زنوجا من بلاد

(\*) نشرت في القسم الأول من المجلد الأول من مجلة كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول (مايو ١٩٣٣)

(١) Reste des Arabischen Heidentums. 86.

(٢) Journal Asiatique, VIII, 1916, 425-482



الخبشة ، وأن رواة السيرة تعددوا القول بأنهم عرب ، أنفة من أن يقولوا إن قريشا كانت في الجاهلية تستعين السودان في الدفاع عن حوزتها (١).

ومع أن الأب لامانس قد أنفق جهدا عظيما في التدليل على صحة نظريته ، وأن أحدا ، فيما أعلم ، لم يتصد لمناقشة هذه النظرية ، فإنى أرى الموضوع لا يزال مفتقرا إلى التحقيق . وأريد في هذا البحث الموجز أن أثبت ثلاثة أمور :

( أولا ) أن الأحابيش كانوا عربا .

( ثانيا ) أن القول بعربيتهم هو المتفق مع تاريخهم .

( ثالثا ) أن العبيد الذين كانت قريش تستعين بهم في حروبها لم يكونوا من الأحابيش في شيء .

### ( ١ )

لا شك أن بين كلمتي « حبش » و « أحابيش » تجانسا شديداً في اللفظ واتحاداً في المعنى من بعض الوجوه .

ولكن ثاني اللفظين ينفرد بمعان تعدل به في أغلب أحواله عن مدلول اللفظ الأول عدولا تاما . جاء في القاموس المحيط في مادة « حبش » : — الحباشة ككثامة : الجماعة من الناس ليسوا من القبيلة كالأحبوشة . وجاء في لسان العرب في المادة المذكورة :- والأحبوشة جماعة الحبش ، ويقال هم الجماعة أيا كانوا ، لأنهم إذا تجمعوا اسودوا ، والتحيش التجمع . . . . وفي المجلس حباشات وهباشات ، أى ناس ليسوا من قبيلة واحدة ، وهم الحباشة الجماعة والأحابيش ، وتحبشوا عليه اجتمعوا . . . . والحبشان الجراد الذى صار كالمل

(١) Ibid, p. 457

أسوداداً . فال تفسير اللغوى يفيد أن لكلمة « الأحابيش » ثلاثة معان خاصة :  
(١) الجماعة من الناس ليسوا من قبيلة واحدة . (٢) التجمع والتأشب ،  
ولا بأس أن نلاحظ بهذه المناسبة أن كلمة « حبش » و « حباش » و « تحبش » ،  
تفيد هذا المعنى فى اللغة العربية الدارجة . (٣) كثرة العدد ويكنى عنها بالسواد ،  
لأن العرب تنعت الشيء إذا كثرت سكانه بسواد اللون .

وهذا التفسير اللغوى يتمشى مع مدلول الأخبار الواردة فى بيان أصل  
نظام الأحابيش . جاء فى سيرة ابن هشام ما يأتى : قال ابن اسحق : والأحابيش  
بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة ، والمون بن خزيمه بن مدركة ، وبنو المصطلق  
من خزاعة . قال ابن هشام : « تحالفوا جميعاً فسموا الأحابيش لأنهم تحالفوا  
بواد يقال له الأحبش بأسفل مكة »<sup>(١)</sup> . ويقول صاحب معجم البلدان :-  
« حبشى . . . جبل بأسفل مكة بنعمان الأراك ، يقال به سميت أحابيش قريش  
وذلك أن بنى المصطلق وبنى المون بن خزيمه اجتمعوا عنده وحالفوا قريشا ؛  
وتحالفوا بالله : إنا لبيد واحدة على غيرنا ما سجال ليل ووضع نهار ، ومارسا  
حبشى مكانه ، فسموا أحابيش قريش باسم الجبل ، وبينه وبين مكة ستة أميال .  
مات عنده عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق بجاهة ، « فحمل على رقاب الرجال إلى  
مكة »<sup>(٢)</sup> . وجاء فى لسان العرب<sup>(٣)</sup> : « وحبشى جبل بأسفل مكة ، يقال منه  
سمى أحابيش قريش ، وذلك أن بنى المصطلق وبنى المون بن خزيمه اجتمعوا  
عنده فحالفوا قريشا ، وتحالفوا بالله : إنا لبيد واحدة على غيرنا ما سجال ليل

(١) سيرة ابن هشام : طبعة جوتنجن : ص ٢٤٥ - ٢٤٦ .

(٢) معجم البلدان - مادة حبشى .

(٣) لسان العرب - مادة حبش .

ووضع نهار ، وما أرسى حبشى مكانه ، فسموا أحابيش قريش باسم الجبل ، .  
ولا بأس في هذا المقام أن نستدل بشعر السيرة ، فإنه على كثرة منحوه وقلة  
صحيحه ، شعر دون في القرن الثاني الهجرى ويبين ما كان متعارفا إذ ذاك عن  
الأحابيش . قال هبيرة بن وهب المخزومي يفتخر بيوم أحد :<sup>(١)</sup>

سقنا كنانة من أطراف ذى يمن      عرض البلاد على ما كان يزجها  
قالت كنانة أنى تذهبون بنا ؟      قلنا النخيل فأموها ومن فيها !  
فأجابه حسان بن ثابت فقال :-  
سقم كنانة جهلا من سفاهتكم      إلى الرسول فجنس الله مخزبها  
جمعتهم أحابيشا بلا حسب      أمة الكفر أغرتكم طواغيبها  
فهذه الأبيات صريحة في أن المراد بالأحابيش هو كنانة . وقال  
حسان أيضا :

إذا عضل سيقت إلينا كأنها      جداية شرك معلمات الحواجب  
أقننا لهم طعنا مبيرا منكلا      وحزنهم بالضرب من كل جانب  
فلولا لواء الحارثية أصبحوا      يباعون في الأسواق بيع الجلابب  
وعضل حتى من بنى الهون بن مدركة<sup>(٢)</sup> ، فهى من الأحابيش . ومعنى البيت  
الآخر أنه لولا استقتال هذا الحى حول اللواء الذى رفعته يوم أحد تلك المرأة  
الحارثية لوقعوا فى الأسر فبعناهم بالأسواق كما تباع العبيد المجلوبة . من هذه  
النقول التاريخية نأخذ أن الأحابيش :

(١) كانت أحياء عربية شتى تنتمى إلى كنانة وخزيمة وخزاعة .

(١) سيرة ابن هشام ص ٦١٢ - ٦١٣ .

(٢) سيرة ابن هشام ص ٦٣٨ .

(٢) أن هذه الأحياء تجمعت بواد يقال له الأحبش ، أو عند جبل يقال له حبشى ، وتحالفت فسميت الأحابيش .

(٣) أنها حالفت قريشاً على التناصر والتآزر فالمـدلول التاريخي لكلمة الأحابيش ، متمش مع مدلولها اللغوى ، غير أنه يجعل مناط التسمية تحالف هذه القبائل ومحالفتها قريشاً بمكان معين ، وهو أمر لا يؤثر بحال في صحة النتيجة التى وصلنا إليها بهذه المقارنة : وهى أن الأحابيش عرب . والحق أنا بإزاء قبيلة عربية آخذة فى التكون ، بواسطة الحلف الذى كان سبباً فى تكون كثير من القبائل العربية القديمة . ولولا مجيء الإسلام وحيلولته دون تمام المزج بين الأحياء المؤلفة للأحابيش لأصبحت هذه الأحياء قبيلة عربية صحيحة ، على نحو ما أصبحت البطون التى منها تألفت قبيلتنا و تنوخ ،<sup>(١)</sup> و الرباب ،<sup>(٢)</sup> .

## ( ٢ )

وجنسية الأحابيش العرب يؤكدها تاريخ حلفهم الذى نرجح أنه قام فى النصف الثانى من القرن السادس الميلادى وانتهى بفتح الرسول مكة سنة ثمان للهجرة . فإننا إذا رجعنا إلى تاريخ عصر النبوة وجدنا الأحابيش طوال ذلك العصر الخطير قوة عربية لها خصائص القبيلة ، من سيد يتزعمها ، وأرض تنزلها ، وراية تحف بها عند الحرب ، وأنها كانت من حيث علاقاتها السياسية بقريش تنزل منها منزلة الحليف من الحليف ، والند من الند ، وأنها كانت مسموعة الكلمة فى الشئون العامة لقريش ، وإلى القارىء النصوص التى تؤيد ذلك :

(١) كان سيد الأحابيش فى السنوات الأولى من عهد النبوة رجلاً يقال له

(١) الطبرى - المجلد الأول ص ٧٤٦ .

(٢) الاشتقاق لابن دريد ص ١١١ .

« ابن الدغنة » . فلما خرج أبو بكر من مكة مهاجرا للأذى الذى ناله من قريش لقيه ابن الدغنة فأجاره وورده إلى مكة . فلم تعرض قريش لأبى بكر بسوء ، احتراماً لهذا الجوار . وظلت كذلك إلى أن خافت أن يفتتن أبناؤها ، فشكت أبا بكر إلى مجيره ، فما كان من أبى بكر إلا أن زد على ابن الدغنة جواره (١) .

(٢) يقول الطبرى فى كلامه على غزوة أحد ، رواية عن ابن إسحق : « وقد كان الحليس بن ذبان أخو بنى الحارث بن عبد مناة ، وهو يومئذ سيد الأحابيش ، مر بأبى سفيان وهو يضرب فى شدة حمزة بن عبد المطلب بزج الرمح ويقول : ذق عتق ! فقال الحليس : يا بنى كنانة ! هذا سيد قريش يصنع بابن عمه ما ترون لحما . فقال : « ويحك اكنتمها على فإنها كانت ذلة » (٢) .

(٣) ويحدث الطبرى فى خبر الحديدية عن ابن إسحق عن الزهرى فىقول : « ثم بعثوا إليه الحليس بن علقمة أو ابن زبان . وكان يومئذ سيد الأحابيش ، وهو أحد بلحارث بن عبد مناة بن كنانة ، فلما رآه رسول الله ﷺ ، قال : « إن هذا من قوم يتأهلون ، فابعثوا الهدى فى وجهه حتى يراه . فلما رأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادى فى قلائده ، قد أكل أوباره من طول الحبس ، رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله ﷺ ، إعظاماً لما رأى ، فقال : « يا معشر قريش ! إني قد رأيت ما لا يحل ، صد الهدى فى قلائده قد أكل أوباره من طول الحبس عن محله » . قالوا له : اجلس ، فأما أنت رجل أعرابى لا علم لك . . . . ، فغضب الحليس عند ذلك ، وقال : « يا معشر قريش ! والله ما على هذا حالناكم ، ولا على هذا عاقدناكم ، أن تصدوا عن بيت الله من جاء

(١) سيرة ابن هشام ٢٤٥ - ٢٤٧ .

(٢) الطبرى - طبعة ليون ، المجلد الأول من ١٥٣٧ .

معظما له . والذي نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وبين ما جاء له ،  
أو لأنفرن بالأحاييش نفرة رجل واحد .

فقالوا له : « مه ! كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به » (١)

(٤) يروى الطبري في خبر الحديدية أيضا عن ابن إسحق أن النبي دعا  
خراش بن أمية الخزاعي ، فبعثه إلى قريش بمكة ، وحمله على حمل له يقال  
له الثعلب ، ليبلغ أشرافهم عنه ما جاء له . فعقروا به حمل رسول الله ، وأرادوا  
قتله ، فمنعته الأحاييش ، فخلوا سبيله حتى أتى رسول الله ﷺ (٢)

وقد عرف الرسول كيف يفلق قوة الأحاييش التي كانت تعترضها قريش .  
وسلك إلى تلك الغاية طريق السياسة وطريق العنف معاً . فأما السياسة فإنه  
اجتذب إلى جانبه قبائل خزاعة وكنانة التي تنتمي إليها أحياء الأحاييش فكانت  
خزاعة كما يروى ابن إسحق ، « مسلمهم ومشرکهم عيبة نصح رسول الله ﷺ  
بتهامه ، صفتهم معه ، لا يخفون عنه شيئاً » (٣) . كما أن غفارا (٤) وهي من كنانة ،  
وأسلم (٥) وهي من خزاعة ، أخذتا جانبه ، ووردت في الثناء عليهما أحاديث  
عدة . فلما كان صلح الحديدية أخذت خزاعة صراحة جانب الرسول ، ودخلت  
في عقده ، كما دخلت بكر بن عبد مناة بن كنانة في عقد قريش . وأما العنف  
فتبينه في غزوة بني المصطلق سنة ٦ للهجرة . بهذه السياسة المحكمة انكسرت  
شوكة الأحاييش كما يرى من موقفهم في صلح الحديدية .

(١) الطبري - المجلد الأول ص ١٥٤٢ .

(٢) الطبري - المجلد الأول ص ١٤١٨ .

(٣) سيرة ابن هشام ٥٨٩ .

(٤) الطبري - المجلد الأول ص ١٦٣٥ .

(٥) الطبري - المجلد الأول ص ١٦٣٥ .

وفي يوم فتح مكة قاتلت الأحابيش خالد بن الوليد بأسفل مكة قتالا يسيرا (١).

واستعانة أهل الحواضر بأهل البوادي كانت ظاهرة سياسية عامة في بلاد العرب قبل الإسلام . فمما كانت الأحابيش بالإضافة إلى قريش ، كانت الأوس والخزرج بالإضافة إلى يهود يثرب (٢) ، وكانت بنو عامر بن صعصعة بالنسبة إلى ثقيف بالطائف (٣) . ولقد عاقد يهود خيبر بنى فزارة على نصف غلة أرضهم إذا هم حاربوا معهم النبي ﷺ (٤) .

### ( ٣ )

وبعد ، فلقد كان بمكة قوة من الحبش حقا . ولكن هذه القوة لم تسكن من الأحابيش في شيء ، بل كانت عبارة عن طبقة من العبيد مسلوطة الحقوق العامة ، ومسخرة لأشراف مكة في حالى السلم والحرب ، وبعض هذه الطبقة قد شرى بالمال ، وبعضها كان من فلول حملة أبرهة الحبشى على الحجاز . . يقول الأزرقى (٥) : « وأقام بمكة فلان من الحبش وعسقاء وبعض من ضمنه العسكر يعتملون ويرعون لمكة » . ويقول صاحب الأغاني (٦) . « وكان لعبد الله بن أبي ربيعة عبيد من الحبشة يتصرفون في جميع المهن ، وكان عددهم كثيرا . فروى عن سفيان بن عيينة أنه قيل لرسول الله ﷺ : هل لك في حبش بنى المغيرة

(١) الطبرى - المجلد الأول ص ١٦٣٥ .

(٢) السهوى : ج ١ ص ١٢٥ ( طبع مصر ) .

(٣) ابن الأثير : ج ١ ص ٢٥٣ ( طبع مصر ) .

(٤) السهوى : ج ١ ص ٢١٤ .

(٥) أخبار مكة للأزرقى ص ٩٧ .

(٦) الأغاني : ج ١ ص ٢٢ .

تستعين بهم؟ (١) فقال لا خير في الحبش : إن جاعوا سرقوا وإن شبعوا زنوا .  
وإن فيهم لخلقين حسنين : إطعام الطعام والبأس يوم البأس ، فلما ظهر الإسلام  
بمكة أسرع عدد وافر من هذه الطبقة إلى اعتناقه ، فحس ذلك عليهم اضطهاد  
أوليائهم وقبائلهم ، كما كان من أسباب اشتداد الخصومة بين الرسول وقريش .  
من هذه الطبقة المغلوبة على أمرها أبو رافع ، وبلال بن رباح ، وعامر بن  
فهيرة ، ووحشى قاتل حمزة يوم أحد ، وصواب حامل لواء قريش في ذلك اليوم .  
كل هؤلاء كانوا أرقاء قد نص في كتب السيرة على ساداتهم وعلى طريقة تحرر  
بعضهم من الرق .

ومما يدل على تمييز هذه الطبقة من الأحابيش قول الطبري في غزوة أحد (٢) :  
فلما التقى الناس كان أول من لقيهم أبو عامر في الأحابيش وعبدان أهل مكة ،  
وعطف عبدان على ما قبلها هنا عطف نسق يفيد المغايرة ، وليس عطف توضيح  
وبيان كما يرى الأب لمانس (٣) .

بهذه التفرقة بين أحابيش قريش وعبيدها يستقيم قول النصوص التي  
أوردناها أن الأحابيش كانوا حلفاء قريش ، وقول صاحب لباب النقول (٤) :  
« واستأجر أبو سفيان يوم أحد ألفين من الأحابيش ، فالمخالفة والاستئجار  
إنما ينصبان على الأحرار دون الأرقاء .

وعندما دون عمر بن الخطاب الدواوين أفرد لهذه الطبقة ديوانا خاصا ، سماه  
ديوان الحبش . يقول المارردى (٥) : وذلك لمكان بلال منهم ؟

(١) وذلك عند مسيره الى هوازن

(٢) الطبري المجلد الأول ص ١٣٩٩ .

(٤) لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي ص ١٢٥ من الطبعة المصرية .

(٥) الأحكام السلطانية ( وضع الديوان )



## دار الأرقم المخزومي

لقد أحصى مؤرخو السيرة عدة من دخلوا في الإسلام في السنوات الأربع الأولى من بعثة النبي ، عليه السلام ، فإذا هم بضع وثلاثون نفسا ، جلهم من كانت تصل بينهم وبين محمد صلة قرابة أو صداقة . ولقد يعلل ببطء الدعوة في تلك السنين العجاف من حياة الإسلام بأن محمدا لم يكن يجد فيها من حرية القول وأمن المضطرب ما يمكنه من إيصال الدعوة إلى من هو مستعد لقبولها من خاصة قريش وعامتها . لقد كان أبدا بعرض أذى وإعنات ، كما كان النفر الذين اتبعوه أبدا بعرض فتنة واضطهاد .

ولقد أحصى مؤرخو السيرة عدة من هاجروا إلى الحبشة في العام السادس للبعثة ، فإذا هم لا يتجاوزون مائة نفس غير من تحمل معهم من ذراريهم . فيهم الرجل والمرأة ، والحر والعبد ، والصريح في نسب قريش والدخيل . لشدة ما أعقبت هذه السنوات الست العجاف من حياة الدعوة الإسلامية سنوات سمان ؛ ففي نحو سنتين اثنتين بلغ عدد من دخل في الإسلام مثلى من دخوله من قبل ، إذا قدرنا أن مهاجرة الحبشة كانوا ، على أقل تقدير ، على النصف من عدة الجماعة الإسلامية .

وليس من شك في أن تلك النقلة العجيبة راجعة إلى أن محمدا أصبح يجد في هاتين السنتين ، من حرية القول وهدوء السرب ما لم يكن يجده من قبل . ولقد وجد محمد الأمرين جميعا في دار من دور مكة ، لم تنب به ، ولم يضق صاحبها به وبأصحابه ذرعا ، كما ضاق كثير غيره ، تلك هي دار أرقم بن أبي الأرقم المخزومي .

والأرقم بن أبي الأرقم سابع سبعة سبقوا الناس جميعا إلى الإسلام . وهو من بني مخزوم ، وكان بنو مخزوم ممن نصب للنبي العداوة ونفس عليه الرسالة . فقد فسروا قوله تعالى : « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ، بقولهم : أي على رجل عظيم من أهل مكة ، كالوليد بن المغيرة المخزومي ، أو من أهل الطائف كعروة بن مسعود الثقفي . وكان خالد بن الوليد بن المغيرة هذا قائد خيل مشركي قريش في وقعة أحد ، وبتدييره انكسر جيش محمد عليه السلام في تلك الغزوة المشهورة .

ولاشك أن سبق الأرقم المخزومي إلى الإسلام دليل على أن دعوة الرسول غزت من أول أمرها أمتنع صفوف أعدائه وألدها خصومة . وقد هاجر الأرقم إلى المدينة ، وحضر مع رسول الله بدرا وأحدا والخندق وسائر مشاهدته صلى الله عليه وسلم .

وقد عمر طويلا ، فقد توفي عام ٥٥ هـ عن سن عالية جاوزت الثمانين سنة . وأما دار الأرقم فتقع شرق الكعبة ، على منحدر جبل الصفا ، يمر بها الساعون في سعيهم بين جبلي الصفا والمروة جيئة وذهابا . ويؤخذ من نحو الرواية القديمة أنها كانت فسيحة ، وثيقة البنيان ، محكمة الرجاج ، ثم هي مطلة على الكعبة والمسعى وغير بعيد من دار السيدة خديجة ، فكانت بكل هذه المزايا مركزا صالحا لنشر الدعوة الجديدة .

« دخل النبي دار الأرقم ، في السنة الرابعة من بعثته ، وجعل يدعو فيها ، كما يقول مؤرخو السيرة . وقضى النبي فيها سنتين أو أكثر قليلا ؛ وقد حقق عليه السلام ، في هذه الدعوة غرضين عظيمين : أولهما تقريره أصول رسالته في نفوس أصحابه ، وثانيهما بثه الدعوة من هذه الدار في جميع آفاق المجتمع المسكي . وفي

طاقة الخيال المحدود أن يتصور ما كان يجري عادة في تلك الدار أيام مقامه عليه السلام بها . فما هوذا في صدر فناء الدار بسمته ووقاره ، وجاذبيته ، وروحانيته ، ومن بين يديه أصحابه ، وكلهم أوجدهم في مستقبل السن وعنفوان الشباب .  
ها هو ذا يتلو عليهم ما ينزل عليه من الوحي من تلك السور المسكية الأولى ، بما اشتملت عليه من أمر بعبادة الله وحده ، وترغيب في ثوابه ، وتحذير من عقابه .

وهاهم أولاء أصحابه يلقفون كل كلمة تنفرج عنها شفتاه السكريمان وحيًا كانت أو حديثاً .

وهاهم أولاء ينقلبون دعاة ينشرون الدعوة في أنحاء مكة ، فيستجيب لهم من رأى في الدين الجديد جمالا وخيرا . وهاهم أولاء الراغبون في الدخول في الإسلام يسرعون إلى دار الأرقم ليعلنوا إلى محمد دخولهم في دينه وقبولهم لرسالته . فمنهم من يأتي إليها تسللا وخفية ، كأفعل صهيب وعمار ومصعب بن عمير . ومنهم من يأتي إليها في وضوح النهار ، كحمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب . وهاهو ذا النبي يأخذ بمجامع رداء عمر وقد التبس عليه أمر بجيئه ويجبذه جبذة يترازل لها قلب ذلك الفتي المتعنت الجامح ، فلا يملك أكثر من أن يعلن إيمانه بالله ورسوله . وهاهو ذا النبي يكبر عندما يسمع إسلام عمر وهاهم أصحابه يكبرون من داخل الدار لتكبيره عليه السلام .

كان إسلام عمر بن الخطاب في ختام السنة السادسة للبعثة . عند ذلك يرى النبي أن قد آن أن يبرح دار الأرقم ، فقد كثر أصحابه ورسخت في قلوبهم دعوته ، فيبرحها ويواجه قريشا بأولئك الصحابة الذين أصبحوا يرون الخير كل الخير في أن يعم الدين الجديد مكة ، بل الحجاز ، بل جزيرة العرب ، بل العالم جميعا .

أما بعد، فقد عرف المسلمون في مختلف عصورهم لدار الأرقم عظيم حرمتها  
وشرفها، فأولوها عناية بالغة .

اشترى أبو جعفر المنصور حق حفدة الأرقم فيها بمال كثير . والظاهر أنه  
أراد أن يضاهي بعمله هذا ما عمله معاوية بن أبي سفيان من شرائه دار الندوة .  
ثم صيرها المنصور لولي عهده المهدي . وصيرها المهدي لزوج الخيزران . ولما حجت  
الخيزران سنة ١٧١ هـ وسعتها بأن ضمت إليها الدور المجاورة لها . بعد شرائها من  
أصحابها . ويظهر أنه في ذلك الوقت أصبح مكان اجتماع النبي بأصحابه في تلك  
الدار مسجداً أقيمت عليه قبة عالية ، وأن الدار كلها أصبحت تسمى بدار  
الخيزران ، بعد أن كانت تسمى بدار الإسلام . وقد جددت الدار غير مرة بعد  
ذلك ؛ وأشهر من عمرها عمارة حسنة الوزير أبو جعفر الأصفهاني في سنة ٥٥٥ هـ  
كما يؤخذ من كتابه لا تزال محفوظة بها .

وانتقلت الدار من يد إلى يد، حتى صارت إلى السلطان العثماني مراد الثالث .  
وكان السلطان سليم الثاني قد أراد أن ينشئ فيها مبرة عظيمة لفقراء مكة ،  
فصرفته عن ذلك شواغل الملك .

فليت القائمين بأمر الحجاز يعنون بأمر هذه الدار العظيمة ، فينشئوا فيها  
مدرسة تعلم فيها أصول الدين الإسلامي، فلعمرى! لقد كانت أول وأعظم مدرسة  
في الإسلام ، ومنها سال السيل وانبتق النور .

# أم المؤمنين

خديجة بنت خويلد<sup>(١)</sup>

كم يود صاحب هذا المقال لو كان شاعرا وثاب الخيال ، مطلق العاطفة ،  
جزل الألفاظ ، مبرى المعاني ! إذا لاستطاع أن يصوغ للقراء من سيرة  
أم المؤمنين خديجة بنت خويلد قصيدة عصماء يضمنها مناقب تلك السيدة الجليلة ،  
وما مناقبها إلا مناقب المرأة الكاملة من جمال ، وطهر ، وعفاف ، وزوجية  
بارة ، وأمومة صحيحة ، ومواساة في أشرف معانيها .

ولكن صاحب هذا المقال ، وأسفاه ! ليس شيئا من ذلك الشاعر الذي  
يتمنى أن يكونه . إن هو الا مؤرخ يعرض لوقائع الحياة العامة من ناحيتها  
الوضعية جهد طاقته ، ويشذ خياله الراكذ إلى تلك الوقائع ، فلا يأذن له  
ولا بمحاولة النظائر والتحليق ، ويكتم عاطفته حتى لا يطغى عليه سلطانها فيتنسكب  
سبيل المؤرخ الذي همه البحث والتحقيق ، ثم العرض البسيط للأشياء ؛ فليقنع  
القارئ الكريم بالصورة المجملة التي أرسمها في هذا المقال ، حتى يتأذن الله  
بظهور شاعر عظيم ينظم الألياذة العربية ، فيطالع فيها إذ ذاك فصلا عن تلك  
السيدة يكون من أبلغ ما خطه يراع شاعر وأروعه .

\*\*\*

كانت جزيرة العرب في القرن السادس الميلادي قد أخذت تنهياً للأحداث

(١) الرسالة ٢٠٤ أبريل ١٩٣٦ .

الجسام التي تمخض عنها القرن السابع ، وقد بدا ذلك التهبؤ في جميع مناحي الحياة العربية العامة ، سياسة كانت أم اقتصادية أم اجتماعية ، وبهمننا منها بصفة خاصة نظام الأسرة .

كان نظام الأسرة قد أخذ يتحول في حواضر الحجاز عامة ومكة خاصة إلى النحو الذي أقره في جملته الإسلام فيما بعد ، فأخذت تتلاشى ضروب الأزواج القديمة التي اعتبرها الإسلام سفاحا ، ويحل محلها نظام الزواج القائم على التراضي والتعاقد .

وصاحب هذا التطور الخطير في بناء الأسرة تطور خطير مثله في مكانة المرأة الاجتماعية ؛ فبعد أن كانت المرأة العربية ليس لها حق التملك ولا حق الأثر ، بل بعد أن كانت هي نفسها تملك وتورث في بعض الحالات ، أصبحت تستمتع بحق الملكية وحق الميراث وحق التصرف في مالها ، وحق مفارقة الزوج عند اللزوم ، هذه الحرية المستحدثة جعلت المرأة العربية عاملا فعالا في الحياة الملكية العامة قبيل الإسلام وفي عصر النبوة .

\*\*\*

ولدت خديجة بمكة حوالي منتصف القرن السادس المذكور . وهي خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي ، وكان خويلد من قادي قريشا في حرب الفجار ، ثم هي ابنة فاطمة بنت زائدة بن الأصم من بني عامر بن لؤي ، ولا نعرف عن فاطمة شيئا ، غير أن الذهبي يقول في جدها عمرو بن خنثر المزني أنه كان من أبطال الجاهلية . فنسب خديجة لأبيها وأما يدل على أنها تنتمي إلى بيت من أعز بيوت قريش هو بيت عبد العزى بن قصي ، وإلى قبيلة من أعز قبائل مضر هي عامر بن لؤي ، واكتتفت عمود هذا النسب الجليل

فروع وحواش زاهية زاهرة ، نعد منها عم خديجة عمرو بن أسد وكان سيدا من سادات قريش ، وأبناء عمومتها حكيم بن حزام ، وورقة بن نوفل وأخته قتيلة بنت نوفل ، فاما حكيم فكان صاحب مروءة وعاطفة طيبة تتجلى في صنيعه لبني هاشم والمطلب عندما حصرهم قريش في الشعب ، وأما ورقة بن نوفل فكان معدودا في تلك العصابة المستنيرة التي يعرف أحادها باسم « المتحنفين » ، قد ترك الوثنية ، وتنصر وقرأ التوراة والإنجيل ، وكتب العبرانية ، وشاركته أخته قتيلة في ميوله الأدبية والدينية ، فكانت « من ينظر في السكتب » على حد تعبير القدماء ، ومن هذه الفروع أخو خديجة العوام بن خويلد ، وكان من رجالات قريش ، وهو والد الزبير بن العوام حوارى رسول الله .

خديجة من أوسط نساء قريش نسبا ، كما يقول مؤرخو العرب ، وإذا جاز للمؤرخ أن يلحظ عمل الوراثة في هذا المقام ، فإننا نقول إنها ورثت عن أبيها مزايا السؤدد العربي ، من نبل وكرم خلق ، ووفاء وشجاعة ، كما لفتت عن عمومته تلك الاستنارة العقلية ، وذلك للسمو الروحاني الذي أعدها لتقدير الدعوة الإسلامية وقبولها عن طيب نفس وطواعية خاطر .

\*\*\*

تزوجت خديجة مرتين في مقتبل حياتها وقبل تزوجها من محمد بن عبد الله . تزوجت للمرة الأولى من عتيق بن عائذ بن عبد الله بن مخزوم ، ثم مات عنها عتيق فتزوجت بعده أبا هالة هند بن زرارة التيمي . ثم توفي أبو هالة فغدت أيماء . وقد ورثت على ما يظهر عن أبيها وزوجها ميراثا قيما رأت أن تقوم على استغلاله في التجارة التي كانت مرتزق قريش في ذلك الزمان . فكانت كما يحدثننا الرواة تستأجر الرجال في الاتجار لها بما لها لقضاء نصيب تسهمه لهم من الربح .

لكن خديجة الحسيبة النسبية ، الثرية الوسيمة ، لم تنزل بعد نصفاً في النساء ،  
عوانا بين الشباب والسهولة ، قد شارقت الأربعين ولما تعدها ، وهي سن لها  
عند بعض النساء جمال وروعة ، وملاحة وأخذه ، وكان غير واحد من كبار  
قريش حريصاً على خطبتها ، ولكن خديجة كانت تتأبى على الخطاب ، لا رغبة  
منها في العزوبة ، فهي أعمر قلباً وأنضر شباباً من أن ترغب فيها ، ولكن لأن  
الأيدي التي كانت تمتد لخطبتها ليست من العزاز الذي يعجبها . لقد نضج عقلها ،  
وكبر قلبها ، وأصبح كل منهما ينشد السكف والمثيل ، ومن لها بالعقل الراجح ،  
والقلب الكبير في مجتمع خشن ، ككثيف غليظ ؟ أصبحت لا يروقها ذلك  
السؤدد العربي الجاهلي بما ينطوي عليه في واقع الأمر من بداوة واعرابية ،  
لا يمكن أن تفيء منهما إلى ظل ظليل .

وبينا خديجة تروض النفس على احتمال الحياة الجديدة إذا بقلها قد أخذت  
تنطبع عليه شيئاً فشيئاً صورة نجم شارق في أفق المجتمع المسكى ، ويوشك أن  
ينسكف عن كوكب وقاد يملأ السكون نورا هادياً . وحرارة تبعث فيه الحياة  
قوية بعد أن لم يبق له منها إلا الذمائم . لقد كانت تلك الصورة منتزعة من الحقيقة  
لا من الوهم ولا الخيال . أنها كانت صورة فتى لا يزال مغموراً ، ولكن كل  
مخايله كانت تؤذن في نظر خديجة بأنه سوف يأخذ بزمام العالم ويوجهه وجهة  
جديدة . ذلك الفتى هو محمد بن عبد الله .

كان محمد إذ ذاك شاباً قد ناهز الخامسة والعشرين من عمره ، سوى الخلقة ،  
مشرق الطلعة ، ذليل المظهر ، كريم المخبر . وكان يحيا حياة لعله لم يكن يحياها  
بمكة أحد غيره . كان زاهداً في الناس ، عزوفاً عنهم ، إلا ما اقتضته ضرورة  
المعايشة والمساكنة ، نزوعاً إلى التفكير ، محباً للعزلة ، قادعاً للشهوة رادعاً



للنفس ، فأوشك بذلك أن يستغنى بنفسه عن غيره . وغدا أنسه في وحشته ،  
وانبساطه في انقباضه ، وغناه في اقلاله ، قد حد ما بينه وبين الناس بحد واضح  
المعالم . ثم لم يأذن لعلاقته بهم ان تتجاوز هذا الحد فتتغص عليه نعمة باله ،  
وتفسد عليه هدوه سر به .

لقد كان قلب خديجة يخفق خفقانا شديدا عندما كانت تلمح هذا الفتى  
العجيب ، يروح لطيته ويغدو في طرق مكة وأسواقها وأنديتها ، وأدركت من  
فورها أنه حاجة قلبها ومهوى فؤادها . ولكن كيف تفضى إليه بدخيلة نفسها ،  
وتبته لاعج حبا ؟ ان الحسب والنسب ، والخفر والحيا ، كل ذلك كان يمنعا  
أن تكون هي التي تخطو في الأمر الخطوة الأولى وتقول فيه الكلمة الأولى .  
لقد كان الموقف دقيقا كل الدقة ، حرجا كل الحرج فلتسر في الأمر بحذر  
 واحتياط محافظة على نسبها وحسبها ، وتوفيرا لخفرها وقتية لحياتها .

انها كانت تستأجر الرجال في الأتجار لها بما لها وتساهمهم بنصيب مسمى من  
الربح ، فلم لا تستأجر محمدا وتضاعف له الجعل الذي كانت تجعله لغيره ؟  
وانشأت من فورها تجيب عن هذا السؤال ، فوسطت إلى محمد من عرض عليه  
رغبتها . فقبل محمد ما عرض عليه ، وسافر إلى الشام في صيف عام ٥٩٤ متجرا  
في مال السيدة ، وسافر معه ميسرة غلام خديجة ليرقيه عن كئيب وينهى إلى  
السيدة عند عودته جملة حاله في السفر ، فتم بجملة حاله في السفر والحضر . وباع  
محمد ، واشترى ، ولقى الرهبان ببادية الشام ، وتحدث إليهم ، وتحدثوا إليه ، ثم  
عاد وقد ربحت التجارة ربحا وفيرا . وقص ميسرة على السيدة ما رأى من محمد  
في السفر من رقة الشمان ، وسهولة الخلق ، وصدق المعاملة ، فعلبت السيدة عند  
ذلك أن قلبها لم يكذبها ، فقطعت كل تردد ، وأجمعت أن تخطو هي الخطوة

الأولى ، وتقول هي الكلمة الأولى ، وكانت لها صديقة تشق بها اسمها نفيسة بنت منبه ، فدستها إلى محمد لتلوح له بالأمر وتعلم رأيه فيه :

نفيسة - يا محمد ! ما يمنعك أن تزوج ؟

محمد - ما يبدى ما أتزوج به !

نفيسة - فان كفيت ذلك ودعيت إلى الجمال ، والمال ، والشرف ،

والكفافية ، ألا تجيب ؟

محمد - فمن هي ؟

نفيسة - خديجة !

محمد - وكيف لي بذلك ؟

نفيسة - على !

محمد - فأنا أفعل !

لا شك أن محمد لم يقل مقالته الأخيرة الا بعد أن أصبح يشعر نحو السيدة خديجة بمثل شعورها نحوه ، وبعد أن أصبح يبادلها عطفًا يعطف ، وتقديرًا بتقدير . نعم إنها أسن منه ، ولا تكن ذلك ليس شيئًا بالقياس إلى محاسنها وفضائلها الكثيرة التي جعلته يرى فيها رغبة نفسه وطلبة قلبه . وعرض محمد الأمر على عمومه كما عرضته خديجة على عمها ، فشكل وافق ، وبنى محمد بها بعد أن أصدقها عشرين بكرة كما يروون .

\*\*\*

كان هذا الزواج لمحمد وخديجة فاتحة حياة زوجية هادئة وادعة هنيئة ، كأهدأ ما تكون حياة زوجية وأودعها وأهنتها ولم لا تكون كذلك ؟ وكانت تقوم على الكثير المتبادل من الحب والإخلاص والتقدير . كانت خديجة تقدر

في محمد ككرم الخلق ورقة القلب ، وروحانية النفس ، وكان هو يقدر فيها رجاجة العقل وكثرة العطف عليه ، والأعجاب به ، والتوفير لأسباب راحته في منزله . ومطابقته فيما يجب وما لا يجب .

ولانس ان محمدا لم يكن كسائر الرجال يعيش كيفما اتفق . فهو رجل كثير العناية بأمر نفسه ، ليس كل الطعام يطعم . ولا كل الشراب يشرب ، ولا كل الملبس يلبس . ولا بكل الزيتة يزدان . ثم هو ميسال بطبعه إلى العزلة مؤثر للضمت ، مظيل للفكر . فعلى جليسته وعشيرته أن يعرف فيه كل ذلك ويرعاه له ، وقد عرفت ذلك خديجة ورعته له أتم رعاية ، فلا شك أنها كانت تعد له ما يستطيعه من الدواء والعسل والتمر المنقوع في اللبن المخلوط بالقشاء أحيانا ، ولا شك أنها كانت تقل في طعامه من البصل والثوم الذين كانت تعاف كثرتهما نفسه . كما كانت تعنى بنظافة ثيابه وأدوات طيبه وأدهانه . فقد كان محمد يحب أن يبرز للناس عطر الجسم ، نظيف الملبس . ولا شك أنها كانت توفر له الهدوء في المنزل . وإذا جنح إلى الخلو أو التحنث في الغار لم تقطع عليه سكونه . بل أعانتة على ذلك بإعداد الزاد الذي يحتاج إليه . فإذا طالت غيبته افتقدته من غير ازعاج له . ولا تكدير لصفو نفسه .

وكما كانت خديجة مثال الزوجة الحففيه بزوجها . فإنها كانت مثال الام المعنية بأولادها . لقد رزق محمد منها كل أولاده غير ابراهيم . رزق منها القاسم وبه كان يكنى . ثم ولدت له زينب ورقية . وفاطمه وأم كلثوم . وكل هؤلاء مولدوا قبل النبوة . ثم ولد له في الإسلام عبد الله الذي عرف بالطيب والظاهر . وقد مات الغلامان صغيرين .

أما البنات فكلهن أدركن الإسلام . وتزوجن ، وهاجرن . وقد انضم إلى

هو لاء على بن أبي طالب . ضمّه النبي إلى أولاده تخفيفاً عن عمه أبي طالب وكان فقيراً كثير العيال ، وليس بأيدينا مع الأسف نصوص نعرف منها كيف كانت خديجة تعول أولادها وتنشئهم ، غير أن ماورد من الأخبار على قلته لا يخلو من الفائدة . روى ابن سعد عن الواقدي قال : « وكانت سلمى بنت صفية مولاة عبد المطلب تقبل خديجة في ولادها ، وكانت تعق عن كل غلام بشاتين ، وعن الجارية بشاة ، وكان بين كل ولدين لها سنة ، وكانت تسترضع لهم . وتعد ذلك قبل ولادها ، وكما كانت خديجة تعنى بولادة أولادها ، ورضاعتهم ، وتنشئتهم ، فقد كانت تتخير الأزواج لبناتها . فهى التى أشارت على النبي بأن يزوج أبا العاص بن الربيع من بنتها زينب . فلما زفت إليه أهدها خديجة قلادة كان لها شأن فيها بعد سيرد ذكره . ولما أرادت قريش حمله على أن يطلق زينب نكايته فى محمد أبى أن يفارقها مع أنه لم يكن قد أسلم بعد . وقد تزوج عثمان بن عفان رقية فلما توفيت ورآه النبي حزينا مهموما لفغان زوجه أختها أم كلثوم وكانت فاطمه عند زوجها على بن أبى طالب بالمحل الرفيع والمكان الممتاز

\*\*\*

لسكن فضل خديجة الأكبر ونفرتها الخالد خلود الزمن ، إنما هو فى موقفها من زوجها عندما نبيء ومن الدعوة الإسلامية التى أخذ يدعو إليها بعد خمس عشرة سنة من زواجه منه

لقد أصبح محمد بعد تزوجه من خديجة هادىء السرب ناعم البال ، وأصبح له منزل يأوى إليه وأهل يسكن اليهم ، فانصرف إلى ما كانت تصبو إليه نفسه من الخلوة وإطالة الفكر فكانت خديجة تعينه على ذلك دون أن ترى فى مسلكه

بأسا . فلما فحىء الوحى محمدا ، وأصابه ما أصابه أول الأمر من الدهول  
 والحيرة ، ورجع إلى منزله رعبا حائرا ، وقال لخديجة : « لقد خشيت أن يكون  
 بى جنين ! ، لم يكن منها إلا أن ثبتت فواده ، وسكنت خاطره بمقاتلتها المشهورة :  
 والله لا يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، ... وتؤدى الأمانة ، وتحمل الكل ،  
 وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الدهر ... الخ » ثم أنها انطلقت من  
 فورها إلى ابن عمها ورقة بن نوفل . وقصت عليه خبر زوجها . فبشرها ورقة  
 بأن الذى رآه محمد إنما هو الناموس الأكبر الذى نزل على عيسى وموسى . وقد  
 أثلجت تلك المقالة فؤادها وغدت من ذلك الوقت مؤمنة بدعوة زوجها .  
 فكانت بذلك أول من صدقه وآمن به . روى الطبرى بإسناده إلى عفيف  
 الكندى أنه قال : « كنت امرأ تاجرا ، فقدمت أيام الحج ، فأثيت العباس .  
 فبينما نحن عنده إذ خرج رجل يصلى معه . فقام تجاه الكعبة ، ثم خرجت امرأة  
 فقامت معه تصلى ، وخرج غلام فقام يصلى معه . فقلت . يا عباس ما هذا  
 الدين ؟ قال : هذا محمد بن عبد الله يزعم أن الله أرسله به ، وأن كنوز كسرى  
 وقيصر ستفتح عليه ، وهذه امرأته خديجة بنت خويلد آمنت به ، وهذا الغلام  
 ابن عمه على بن أبى طالب آمن به ، قال عفيف . فليتنى كنت آمنت يومئذ ،  
 فكنت أكون ثالثا . »

ولم يزد إيمان خديجة مع الزمن إلا رسوخا . ولا يقينها إلا قوة ، ولا تعلقها  
 بزوجها إلا شدة ، فكانت فى مسنوات العشر الأولى للبعثة ، وهى السنوات التى  
 توالى فيها الأرزاء والمحن على محمد وأصحابه ، واضطهدت فيها الدعوة أيما  
 اضطهاد ، كانت خديجة فى تلك السنوات إلى جانب زوجها تريش بتأييدها  
 جناحه ، وتأسو بعطفها جراحه . روى ابن الأثير بإسناده قال : « وكانت

خديجة أول من آمن بالله ورسوله وصدق بما جاء به ، فخفف الله بذلك عن رسوله لا يسمع شيئاً يكرها ، من رد عليه وتكذيب له فيحزنه إلا فرج الله عنه بها ، إذا رجع إليها تنبته ، وتخفف عنه وتصدقه ، وتهون عليه أمر الناس .  
ولم تتردد خديجة عندما جد الجد ، أن تشرك زوجها في محنته ، وتقاسمه من العيش كما قاسمته حلوه ، وتعمل لنصرة دعواته صابرة محتسبة . فعندما اشتدت قريش على نبي هاشم والمطلب وحصرتهم في الشعب ومنعتهم حتى الماء والزاد ، كانت خطيجة في الشعب تقاسي ما يقاسميه زوجها وأقرباؤه على كبر سننها واضمحلال بنيتها : فلما فاءت قريش إلى صوابها وخلت سبيل أولئك المجاهدين المجهودين . كان طول الحصار قد أضر بخديجة واخترم المرض جثمانها فلم تعش إلا قليلا . وقضت لعشر خلون من رمضان من العام العاشر للبعثة . بالغة من العمر خمسة وستين عاما . وقد دفنها الرسول بالحجون . وسوى عليها التراب بعد أن نزل قبرها وألقى عليها النظرة الأخيرة .

وقضى الله أن يفقد الرسول بعد خديجة وفي نفس العام عمه أبا طالب ، وهو الذي كان ينافح دونه ويتولى حمايته من عدوان أعدائه . فاجتمع على محمد في وقت واحد خطبان فادحان . ورزآن بالغان . ولكن لا شك في أن داخل رزئيه كان الأفدح ، وباطن جرحيه كان الأدمى . لقد تهدم صرح سعادته المنزلية . وغدت الحياة مشغلة له في الداخل والخارج ، على كثرة ما أعطاه الله في الداخل والخارج .

\*\*\*

كان محمد أكبر من أن ينسى لمحسن إحسانه . وأكرم من ألا يفي لحبيب صدقة الحب . وأصفاه الود . ولو باعدت بينه وبينه طباق الثرى . وكذلك

كان شأنه مع خديجة بنت خويلد ، لقد روى لها في حالى الحياة والموت ، أحبها ولم يتزوج عليها في حياتها ، فلما لحقت برهبها لم تبرح صورتها خاطره ، ولا فارق تذكرها لسانه . وهم يرون في ثنائه عليها ودوام تذكره لها اخبارا كثيرة ، يرون أنه فضلها هي ومريم بنت عمران على نساء العالمين ، وأنه بشرها ببنت في الجنة من قصب ، لا صخب فيه ولا نصب . وأنه عندما أرسلت إليه ابنته زينب بقلادة قلدها إياها خديجة ، لتفتدى بها زوجها أبا العاص بن الربيع وكان قد أسر بيد رق النبي لذلك رقة شديدة ، وطلب إلى أصحابه أن يطلقوا لزيب أسيرها وما لها ففعلوا ، وأنه كان إذا ذبح شاة تنبع صديقات خديجة يهدى إليهن منها ، وأنه كان لا يكاد يخرج من منزله حتى يذكر خديجة ويثنى عليها ، والحق أن دوام تذكره لها هاج غيرة عائشة وهي بعد أثر نسانه لديه ، وأجملن ، وأصغرهن سنا . روى بن الأثير بإسناده إلى عائشة أنها قالت : « كان رسول الله ﷺ لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة فيحسن الثناء عليها . فذكرها يوما من الأيام ، فأدركتني الغيرة ، فقلت : هل كانت إلا عجوزا فقد أبدله الله خيرا منها . فغضب حتى اهتز مقدم شعره من الغضب ، ثم قال : لا والله ما أبدلني الله خيرا منها ، آمنت إذ كفر الناس ، وصدقتني وكذبني الناس ، وواستني في ما لها إذ حرمني الناس ، ورزقني الله منها أولاداً إذ حرمني أولاد النساء ، قالت : فقلت في نفسي لا أذكرها بسيئة أبداً .

\*\*\*

تلك بالإختصار سيرة أول امرأة مسلمة ، وخير امرأة مسلمة ، يعرف فيها القارىء المثل الأعلى للمرأة ، زوجة ، وأما ، وعونا على جلائل الأمور في غير خروج على طبيعة الجنس ومواضع الناس منذ صار الإنسان إنساناً .

## الهجرة<sup>(١)</sup>

كان من أثر الإنجاء المادى الحديث فى فهم حوادث التاريخ وتعليلها أن أصبح المؤرخون أشبه شئ بالفلاسفة الكليين القدماء الذين كانوا مجردون الإنسان من عاطفة الخير ، ويعتقدون أنه أنانى بطبعه ، لا يصدر عنه الخير إلا رياء ونفاقا ، ولكن من حسن حظ الحقيقة والفضيلة أن بعض أحداث التاريخ يكذب هذه الدعوى وينقضها نقضا صريحا . ولست أجد فى التاريخ الإسلامى أنقض لتلك الدعوى وأشد تكديبا من حديث الهجرة التى وقعت زمن النبوة ، سواء أكانت هجرة الحبشة أم الهجرة إلى المدينة ، ففى كلتا الهجرتين تجسد الإخلاص للعقيدة مجسما محسوسا والتنزه عن حطام الدنيا واضحا ملموسا . وإلى القارىء أسوق المقال الآتى توضيحا لهاتين الهجرتين فى ضوء الحياة العامة التى ابتعثتهما وأدت إليهما .

\*\*\*

لقد حمل الإسلام من أول الأمر على ما كان لقريش من نظم بالية عتيقة حملة عنيفة لا موارد فيها ولا هوادة . فكان محمد يقرع أسماع قومه بما يتنزل عليه من القرآن ناعيا عليهم وثنيهم المنحطة ، ونظامهم الاجتماعى الذى فرقههم أغنياء وفقراء وسادة وعبيدا ، مهجنا تكثرهم بالأحساب والأنساب ، مقبحا طرقهم الملتوية فى المعاملات . من تظيف الكيل والميزان وأكل أموال

(١) الرسالة العدد ٤٢ ، ٤٣ أبريل ١٩٣٤ .



الناس بالباطل . محذرا لهم إن هم أصروا على عقومهم واستكبارهم أن يصيبهم ما أصاب الأمم من قبلهم عندما أعرضت عما بعث به إليها الرسل من أسباب الهداية والإصلاح .

لم يجب هذه الدعوة التي تكفلت بخيرى الدنيا والآخرة إلا فريق قليل العدد وسيط المكانة في المجتمع القرشى . أما المسألة من قريش فرأوها دعوة صريحة إلى الفوضى وقلب الأوضاع . ورأوا في محمد نائرا يريد هدم النظم التي درجت عليها الجمهورية المسكية من قديم . ثم من يديرهم لعلهم إن هم اتبعوه التأنف عليهم الأمر واضطرب الحبل ، فإن الهدم عادة أيسر من البناء . تلك كانت حجتهم في عدم متابعتهم ، وهي حجة الجامدين على المصلحين في كل زمان ومكان .

وكان موقف قريش من محمد أول الأمر سلبيا محضا . ولكن محمدا كان النشاط واللباقة والفصاحة وقوة الخلق مجتمعة . فوجدت قريش نفسها بإزاء رجل لا كالرجال وخصم ليس كغيره من الخصوم ، فهي إن لم تعاجله عاجلها ، وإن لم تقض عليه قضى عليها . لذلك أخذت تنهج في مقاومته خطة إيجابية تدرجت فيها تدرجا . فكانت أول الأمر تستهزئ به وبدعوته وبمن اتبعه ، فهو شاعر وساحر ومجنون ، ودعوته إنما هي محض خداع وغرور ، وأتباعه ليسوا إلا أرذالها وسفالتها ، ثم جعلت تحاول إعجازه ومعانيته . إن يكن صادقا فيما يدعى فليحول جبال مكة جنانا وأنهارا ، أو فليكن له بيت من زخرف ، أو ليرق في السماء ، أو فليسقط عليهم كسفا ، أو فليأت بالله والملائكة قبلا . ثم انتقلوا من هذه المعايه الدالة على قصر عقولهم إلى التعريض له بالمال والسلطان . فلما أعتبهم فيه الحيل ورأوا وقوف عشيرته دونه أخذوا يفتنون أصحابه بالأذى

والعذاب ، فمنهم من كان يثبت على رأيه وعقيدته ، ومنهم من كان يفتتن من  
شدة البلاء .

عند ذلك أمر الرسول أصحابه بالهجرة التي هي آخر ما يلجأ إليه المحق  
الضعيف في مقاومة المبطل القوى . أمرهم بالهجرة إلى أرض الحبشة فهي أرض  
قديمة الصلة بمكة . وبها ملك نصراني رشيد لا يضام من يلجأ إليه ويحتجى بحماه .  
فخرج من مكة في شهر رجب من سنة خمس للنبوة زهاء مائة مسلم ومسلمة ،  
وكلهم جاز البحر الأحمر من الشعبية إلى بر الحبشة فلتقاهم النجاشي لقاء حسنا  
وأذن لهم في المقام بأرضه آمين على دينهم وأنفسهم . وقد أبي أن يخفر ذمته  
لهم عندما أرسلت إليه قريش في رد اللاجئين إليه . فلما تبدلت الأحوال  
بالحجاز وعلا شأن الإسلام به جعل هؤلاء المهاجرون يعودون إلى الحجاز  
وكانت عودة بقيتهم إلى المدينة سنة سبع للهجرة أي بعد أن لبثت بأرض  
الحبشة نحو خمسة عشر عاما ، وقد جرت الرواية الإسلامية النجاشي عن صنيعه  
هذا بأن اعتقدت إسلامه ، وبأن النبي صلى الله عليه وسلم قد صلى عليه عندما بلغته وفاته .

ولما رأت قريش خروج من خرج إلى الحبشة من أصحاب محمد أرادت أن  
تحسم مادة الخطر فاجتمعت كعبة ملثها على حبس محمد وعشيرته من بني هاشم  
والمطلب في بعض شعاب مكة ، وعلى أن يقطعوا كل أسباب الاتصال بينهم  
وبين جمهور قريش ، وقد انفذت هذا الحكم ، وقضى بني هاشم والمطلب في  
الشعب نحو ثلاث سنين قاسوا فيها جهدا جاهدا حتى لقد كان يسمع صوت  
صغارهم من وراء الشعب وهم يتضورون جوعا . وأخيرا قام في قريش من عطفته  
عليهم عاطفة الرحم والقرابة فسعى في اخراجهم من الشعب فأخرجوا .

على أن الرسول لم ينعم بتلك الحرية التي سيقمت إليه طويلا ، ففي السنة

العاشرة للنبوة أصيب بفقد عمه أبي طالب وزوجه خديجة ، فخلا الميدان من  
النصير الزائد ، وخلا البيت من الحبيب المؤنس ، وأصبح محمد وجهها لوجه أمام  
عدو حنق عليه كان يتربص فيه الفرصة ، فلما أمكنت استغلها استغلالا . فجعل  
يأخذ عليه المذاهب ويعزى به السفهاء يتعمدونه بالأذى والهوان .

عند ذلك أخذ الرسول يفكر فيما كان قد أشار به على أصحابه منذ سنين  
عندما اشتد تحامل قريش عليهم : أخذ يفكر هو أيضا في الهجرة . لقد دلته  
تجارب سنوات عشر على أن دعوته توشك أن تذهب بمكة صرخة في واد  
ونفخة في رماد ، وإذا فقيم المقام بواد غير ذى زرع حقيقة ومجازا ؟ فليهاجر !  
ذلك ما قر عليه رأيه . ولكن على ألا يتخطى حدود بلاد العرب فهو مبعوث  
إلى العرب أولا وإلى سائر الناس أخيرا . فليخرج إلى أقرب قرية عربية من  
مكة : إلى الطائف ، لعل ثقيفا تحيره حتى يبلغ رسالته . ولكن ثقيفا لم تكن  
أبر به من قريش ، فقد أعرضت عن سماع دعوته ، وضدت عليه بجوارها ، ثم  
زادت فأغرت به سفهاءها ، فزالوا يتعقبونه حتى ألجأوه هو ومولاه زيد بن  
حارثة إلى حائط من حوائط ثقيف وهنا .. وقد خلا إلى نفسه ورببه - فاضت  
أشجاناه واعتلجت في صدره همومه ، فانبعث يناجي ربه اللهم إليك أشكو  
ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ! يا أرحم الراحمين ! أنت رب  
المستضعفين ، وأنت ربي ، إلى من تكلفني ؟ إلى بعيد يتجهمني ؟ أم إلى عدو  
ملكته أمرى ؟ ان لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي  
أوسع لي . أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا  
والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو يحل علي سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ،  
ولا حول ولا قوة إلا بك .

ثم نهض من مكانه يريد مكة فلم يدخلها إلا في جوار سيد من ساداتها هو  
المطعم بن عدى . وكف محمد مؤقتا عن توجيه الدعوة إلى قريش واكتفى  
بعرض نفسه على قبائل العرب في مواسم الحج لعل كل قبيلة تصغي إليه فينتقل  
إليها ويبلغ دعوته في ظلها وسلطانها . فكانت القبائل ترد عليه بأنه لو كان صادقا  
لا تبعه قومه ، الا ما كان من أمر أهل يثرب . ففي عام ١١ للنبوّة لقي النبي عند  
العقبة ستة نفر من الخزرج فعرض عليهم الإسلام فأمنوا وصدقوا ، ووعدوه  
أن ينشروا الدين الجديد في قومهم . تلك بيعة العقبة الأولى . فلما كان العام  
القابل وافي الموسم من الأوس والخزرج اثنا عشر رجلا ، لقوا النبي عند العقبة  
أيضا فبايعوه على بيعة النساء ، وذلك قبل أن يشرع القتال ، على ألا نشرك بالله  
شيئا ، ولا نسرق ، ولا نزنى ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتى بهتان نفتريه من  
بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه في معروف . فإن وفيتم فلكم الجنة ، وإن  
غشيتم من ذلك شيئا فأمركم إلى الله عز وجل ، إن شاء غفر ، وإن شاء عذب ،  
تلك بيعة العقبة الثانية ، وبعث الرسول معهم صاحبا من أصحابه دينا لبقا فظنا  
ليفقه القوم في الدين ، وفي الوقت نفسه ليخبر أحوال يثرب العامة ويسبر  
غورها وينهى إلى النبي ما يصل إليه من ذلك . ذلك هو مصعب بن عمير . وقد  
أدى مصعب بن عمير واجبه أحسن أداء وأتمه ، ثم عاد إلى مكة فأطلع الرسول  
على حال يثرب ومقدار نجاح الدعوة الإسلامية بها . فلما حل موسم الحج وافي  
مكة جم غفير من الأوس والخزرج ، مسلمهم ومشركمهم . فواعد المسلمون  
منهم رسول الله أن يلقوه عند العقبة ليلا ، وقد لقيه منهم ثلاثة وسبعون رجلا  
وامرأتان ، فبايعوا الرسول بيعة العقبة الكبرى المشهورة وهي تقوم على تعهد  
الأوس والخزرج بالدفاع عن الرسول والخزرج من دونه ، يقول الطبري

« فوافوه بالحج فبايعوه بالعقبة وأعطوه عهدهم ، على أنا منك وأنت منا ، وعلى أنه من جاءنا من أصحابك أو جئتنا فإننا نمنعك مما تمنع منه أنفسنا ، وبهذه البيعة أصبح للرسول يثرب أنصار يؤورونه ويدودون عنه .

\*\*\*

لكي ندرك السبب في مسارعة الأوس والخزرج الى قبول الدعوة الإسلامية ومبايعة الرسول على الدفاع عنه، ينبغي أن نلم بحال يثرب في السنوات السابقة على الهجرة من الناحيتين الدينية والسياسية ، فن الناحية الدينية كانت اليهودية قد حرثت المدينة وأعدت الأنصار لقبول الدعوة الإسلامية ، لأنهم أهل كتاب منزل ودين مشروع . وكان الأوس والخزرج يلقفون منهم معنى النبوة والرسالة والوحي ونحو ذلك من المصطلحات الدينية . ثم إن اليهود كانوا كدأهم يتوقعون ظهور نبي منهم يجمع شملهم ويعيد إليهم سلطانهم ويقهر بهم أعداءهم ، وكانوا لا يعدمون أن يوحوا بشيء من ذلك لمواطنيهم من الأوس والخزرج . قال ابن اسحق عند كلامه على استجابة الأنصار لدعوة النبي في بيعة العقبة الأولى : « وكان مما صنع الله لهم به في الإسلام أن يهود كانوا معهم ببلادهم وكانوا أهل كتاب وعلم ، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان ، وكانوا قد غزوهم ببلادهم . فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم إن نبيا مبعوث الآن ، قد أظل زمانه تبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم . فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر ودعاهم إلى الله قال بعضهم لبعض : يا قوم تعلبوا ، والله إنه للبنى الذي ترعدكم به يهود ، فلا يسبقنكم إليه ، فأجابه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام . »

قد يكون تصوير حالة المدينة السياسية قبيل الهجرة أبلغ من تصوير الحالة

الدينية في فهم قبول الأنصار دعوة النبي والتزامهم الدفاع عنه ببلدهم . لقد كانت الحياة العامة بالمدينة مضطربة أشد الاضطراب من جراء حرب الأوس والخزرج التي سببها ما كان بين الفريقين من دماء وثورات . وكانت الغلبة بوجه عام في تلك الحرب للخزرج على الأوس ، حتى لقد همت الأوس حوالى السنة العاشرة قبل الهجرة أن تجلو عن المدينة جملة ، وأخذت تفاوض قريشا في أن تأذن لها بالنزول عليها بمكة ، ولكن قريشا كانت أحرص من أن تأذن بذلك ، فلما طلبت إليها الأوس أن تحالفها على الخزرج أبت أن تتورط في شيء من ذلك أيضا . فعادت الأوس تلتمس الحلف من يهود يثرب وخاصة قريظة والنضير . وكان اليهود قد وقفوا من تلك الحرب موقف الحياد المطلق ، فلما بلغ الأمر الخزرج أرسلت إلى اليهود تحذرم عاقبة هذا الحلف إن تم ، فلما أكد اليهود أنهم غير محالني الأوس عادت الخزرج تطلب منهم رهنا أربعين غلاما من غلمانهم يكونون بأيديهم ضمانا لهذا الحيفاد . فلم يسع اليهود إلا أن يسلموا إليهم الضمان الذي طلبوا . ولكن الخزرج كانت قد قرمت الى أرض قريظة والنضير وكانت أغنى بقاع يثرب فأقبلت تتجنى على اليهود وتخبر قريظة والنضير بين أمرين كلاهما شر : فإما أن يجلووا عن يثرب وينزلوا لهم عن أرضهم ، وإما أن تقتل غلمانهم . فلما رأت اليهود أن الخزرج قد لجت في طغيانها ، وأن حيفادها لن يجر إليها خيرا ، عند ذلك خرجت من حيفادها وحالفت الأوس صراحة ، فقتلت الخزرج الغلمان وعقدت حلفا مع القبيلة اليهودية الثالثة بالمدينة قبيلة بنى قينقاع ، وبذلك استحالت يثرب عسكرين تشحذ فيهما السيوف وتراش النبال استعدادا للواقعة الفاصلة .

وقد وقعت الواقعة الفاصلة في يوم بعث الذي كان قبيل الهجرة بنحو خمس سنين . في ذلك اليوم أدبل للأوس وحلفائها ، من الخزرج وحلفائها ، وقتل

من الفريقين يومئذ عدد كبير من سادات الناس وأشرفهم . جاء في صحيح البخارى عن عائشة : « كان يوم بعثت يوما قدمه الله لرسوله صلى الله عليه وسلم في دخولهم في الإسلام ، فقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد افترق ملوهم وقتلت سراهم ، ويفسر السهمودى هذا الحديث بقوله « ومعناه أنه قتل فيه من أكابره من كان لا يؤمن أن يتكبر ، ويأنف أن يدخل في الإسلام ، إلى أن يقول « وقد كان بقى معهم من هذا النمط عبد الله بن أبي بن سلول . . . وكذلك ابو عامر الراهب . . . فشقيا بشرهما . »

ورأى أهل يثرب غداة يوم بعثت أن الحرب مهلكة النفوس متلفة الأموال ، وأنها يشقى بها الغالب والمغلوب جميعا ، وأنه أولى بهم أن يقيموا بيثرب حكومة تزع القوي وتأخذ بناصر الضعيف . وكان عبد الله بن أبي بن سلول الخزرجى قد رأى غدر قومه في الحرب فلم يخض غمارها معهم وامتنع من قتل من كان بيده من غلمان اليهود ، ولذلك اتجعت إليه أنظار القوم وهموا أن يملكوه على يثرب ، وأقبلوا ينظمون له الخرز ، وكان ذلك شارة الملك عندهم . ولكن يظهر أنه لم تكن هناك رغبة صادقة في تملكه . أما الأوس فكانت تسكره أن يصير الأمر إلى خزرجى مهما تكن فضائله ، وأما الخزرج فقد كبر على كثير من أحيائها أن تولى رجلا وسما بالغدر وخذلها عند الحرب ، فكان بذلك مسئولاً إلى حد ما عن هزيمتها . وأما اليهود فلا شك في أنها كانت تستنكف أن يلي أمرها مشرك ولو كان ابن أبي نفسه .

فلما لقي حجاج الأوس والخزرج الرسول بموسم الحج واطلعوا على سيرته وحالته وجدوا فيه ضالتهم المنشودة . فهو وحده الرجل الذى تستقيم على يده حالهم المختلفة ، وتجتمع على حكومته آراؤهم المختلفة ، هو نبي عربى يتنزل عليه الوحي

من السماء ، وبذلك يحتجون به على اليهود . نعم إنه من الناحية السياسية يعتبر  
أجنيا عن يثرب ؛ ولكن حكومته ان تكون أجنبية . أليس الأنصار هم الذين  
سيكونون عدته ومادته ؟ فأى حكومة ليثرب يمكن أن تفضل هذه الحكومة ؟  
إذن فليعدلوا عن تملك ابن أبي ، وليبايعوا محمدا ، وليكن ذلك في غيبة ابن أبي ،  
وليكتموا ذلك الأمر عنه كتمان النبي إياه عن قريش .

تلك كانت الحال المعنوية للأنصار عندما بايعوا النبي بيعاتهم الثلاث بمسكة .  
قال ابن اسحق عند كلامه على العقبة الأولى . . . وقالوا له للنبي ، إنا قد  
تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، وعسى أن يجمعهم الله  
بك ، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من  
هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك . ثم انصرفوا عن رسول  
الله ﷺ راجعين إلى بلادهم . وروى ابن اسحاق أيضا عند كلامه على  
بيعة العقبة الكبرى . . . فاعترض القوم أبو الهيثم بن التيهان فقال يا رسول  
الله إن بيننا وبين الرجال جبالا وإنا قاطعوها . يعنى اليهود ، فهل عسيت إن نحن  
فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ قال فتبسم رسول الله  
ﷺ . ثم قال بل الدم الدم ! والهدم الهدم ؟ أنا منكم ، وأنتم مني ،  
أحارب من حاربتهم وأسالم من سالمتم ، فالمسألة من ناحية الأنصار لا تعدو أن  
تكون حلفا سياسيا قوامه الفكرة الدينية . أما من ناحية الرسول فلم تكن  
كذلك . فالرسول إنما كان يريد إذ ذاك بلدا يأمن فيه على دعوته وأصحابه ،  
وقوما يحمون ظهره حتى يبلغ رسالته . وقد أصبح ذلك مكفولا له بالبيعة  
الآخيرة ، وإذن فلم يبق إلا الرحيل من مكة إلى المدينة .

\*\*\*



ورأى الرسول اغتنام الوقت فأذن لأصحابه في الخروج إلى يثرب في  
أواخر ذى الحجة من السنة الثالثة عشرة للنبوّة . فجعلت جماعاتهم عند ما استهل  
المحرم تخرج من مكة أرسالا وتنزل على الأنصار في دورهم . فخرج في نحو  
شهرين زهاء المائتين . وقد أفقرت دور برمتها بسبب الهجرة ، من ذلك دور بني  
مظعون وبني جحش وبني البكير . قال ابن هشام وفعلت دار بني جحش هجرة ،  
فر بها عتبة بن ربيعة والعباس بن عبد المطلب وأبو جهل بن هشام بن المغيرة ..  
وهم مصعدون إلى أعلى مكة ، فنظر إليها عتبة بن ربيعة تحفق أبوها يابا ليس  
فيها ساكن ، فلما رآها كذلك تنفس الصعداء ثم قال :

وكل دار وإن طالت سلامتها يوما ستدرکها النكباء والحبوب  
ثم قال هذا عمل ابن أخي هذا ، فرق جماعتنا وشتت أمرنا وقطع بيننا ،  
ولم يبق بمكة من المسلمين إلا النبي وأبو بكر وعلي وإلا من كان مفتونا أو  
محبوسا أو مريضا أو ضعيفا عن الخروج .

وأحست قريش الخطر الذي أصبح يهددها من جراء تلك الهجرة وذلك  
لخلاف الذي عقده محمد مع أهل يثرب . فأجتمع ملؤها في دار ندوتها ليقلب  
الأمر على وجوهه ويصدر فيه رأيا حاسما . وهنا افتزقت بها الآراء وتشعبت  
المذاهب ، فمنهم من رأى أن يحبس محمد حتى يموت ، ومنهم من رأى أن ينفي  
من البلد ، ومنهم من رأى قتله . والظاهر أن الرأي الأخير هو الذي اجتمعوا  
عليه آخر الأمر . وإلى هذه القصة كلها يشير القرآن بقوله « وإذ يمكر بك الذين  
كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين »  
ثم رأوا أن يقتلوه بحيث تمتنع على عشيرته المطالبة بدمه فأمروا فتيانا من بطون  
قريش أن يضربوه ضربة رجل واحد ، وبذلك يتفرق دمه في القبائل ويرضى

بنو هاشم بديته.

ولكن رسول الله كان قد نذر بذلك فأسرع الى الخروج خفية من داره الى دار صديقه أبي بكر ، وكان قد أعد عدة السفر الى المدينة ، دليلًا وظهرا وخادما وزادا . وخرج الرسول وأبو بكر الى غار بجبل ثور بقيا به ثلاثة أيام اهاجت فيها قریش اهتساجا شديدا وجعلت لمن يأتي بالنبي حيا أو ميتا جعلنا سنيا . وإلى حادث الغار يشير القرآن بقوله « إلا تنصروه فقد نصره الله ، إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن ، إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز ذو انتقام . »

توصف الأرض التي بين مكة والمدينة بأنها حزنة وعرة موحشة ، ليس بها ما يرفه عن المسافر في بلاد العرب من ماء أو خضرة ثم هي يشقها طريقتان : إحداهما شرقية محاذية لنجد ويجاوز طولها الثلاثمائة ميل بقليل ، والأخرى غربية محاذية لساحل البحر الأحمر ويقرب طولها من مائتين وخمسين ميلا . وقد آثر الدليل الذي اتخذته أبو بكر هاديا له وللرسول أثناء السفر سلوك الطريق البحرية . غير أنه كان ينحرف يمنا ، ويسرة تضليلا لمن عسى أن ترسله قریش في إثرهم . فخرج بالجماعة من جبل ثور أسفل مكة فبلغ عسفان وهنا أدرك الجماعة سراقه بن مالك طامعا في قتل الرسول وأخذ جعل قریش ، ولكنه وجد نفسه أمام أربعة أشداء فكان قصاراه أن نجا بنفسه بعد أن أعطى الرسول وأصحابه موثقا ألا يدل عليهم . ثم سار الدليل بهم إلى أبح فقديد ، فلما قارب بدرأ مال بهم يمنا إلى العرج ، ثم هبط وادى العقيق الذي يؤدي إلى المدينة . ولكن النبي أمر بأن يكون المسير أولا إلى قباء قرية بنى عمر بن عوف . فبلغها ظهر يوم

الاثنين ١٢ ربيع الأول من السنة الأولى للهجرة وذلك بعد مسير ثمانية أيام .  
 وأقام النبي ثلاثة أيام بقباء وثق فيها من حسن استقباله بالمدينة . فلما كان يوم  
 الجمعة خرج من قباء إلى المدينة يحف به ملاً بنى النجار . وقد لحقه بقباء علي بن  
 أبي طالب بعد أن أدى عن الرسول ما كان للناس عنده من الودائع . ولما  
 اطمان الرسول بالمدينة أنفذ إلى مكة من حمل إليه أهل بيته .

\* \* \*

ليس يسيرا على المؤرخ أن يصور مقدار المشقة التي لحقت المهاجرين  
 الأولين من جراء هجرتهم من وطنهم إلى بلد ناء ومعشر غرباء . لقد كان أول  
 مظهر لهذه المشقة أن تأثروا بجو المدينة الوخم لأول قدومهم فاعتلت صحتهم  
 وأصابهم الحمى وعراهم داء الحنين إلى وطنهم القديم ، حتى لقد كان بعضهم يهذى  
 بذلك إذا أخذ دوار الحمى . روى البلاذري بإسناده عن عائشة أم المؤمنين  
 أنها قالت : لما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة مرض المسلمون بها فكان من  
 اشتد به مرضه أبو بكر وبلال وعامر بن فهيرة . فكان أبو بكر يقول في مرضه :

كل امرئ مصيب في أهله      والموت أدنى من شرك نعله  
 وكان بلال يقول :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلته      بفتح وحولى أذخر وجليل !  
 وهل أردن يوماً مياهاً مجننة      وهل تبدون لى شامة وطفيل !  
 وكان عامر بن فهيرة يقول :

لقد وجدت الموت قبل ذوقه      إن الجبان حنفته من فوقه  
 كل امرئ مجاهد بطوقه      كالشور يحمى جلده بروقه

قال فأخبر النبي ﷺ بذلك ، فقال : اللهم طيب لنا المدينة كما طيبت لنا

مكة وبارك لنا في مدها وصاعها .

وتتمثل هذه المشقة كذلك في الفاقة الشديدة التي صار إليها المهاجرون بسبب الهجرة . فقد خلف أكثرهم أمواله بمكة فعدت عليها قريش فاغتصبها تشفيا من أصحابها . روى صاحب أخبار مكة ، إنه قيل للنبي ﷺ يوم الفتح (فتح مكة) ألا تنزل منزلك بالشعب ؟ قال وهل ترك لنا عقيل منزلا . قال وكان عقيل بن أبي طالب قد باع منزل رسول الله ﷺ ومنازل إخوته من الرجال والنساء بمكة حين هاجروا ومنزل كل من هاجر من بني هاشم ، فقبيل لرسول الله ﷺ فانزل في بعض بيوت مكة في غير منزلك . فأبى رسول الله ﷺ وقال لا أدخل البيوت ، فلم يزل مضطربا بالحجون ، وكان يأتي المسجد من الحجون ، ويروي ابن هشام أن عبد الرحمن بن أبي بكر عدا على مال أبيه بمكة بعد هجرته ، فلما كان يوم بدر خرج عبد الرحمن مع قريش لقتال المسلمين فناده أبوه : أين مالي يا خبيث ؟ فأجابه عبد الرحمن :

لم يبق غير شكة ويعبوب وصارم يقتل ضلال الشيب

ويروي ابن هشام كذلك ، أن صهيبا حين أراد الهجرة قال له كفار قريش أتيتنا صعلوكا حقيرا ، فكثير مالك عندنا ، وبلغت الذي بلغت ، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك ، والله لا يكون ذلك . فقال لهم صهيب . أرايتم إن جعلت لكم مالي أتخلون سبيلي ؟ قالوا نعم ! قال فإني جعلت لكم مالي . قال فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : ربح صهيب ! ربح صهيب ! ، ويروي ابن اسحق أنه لما خرج بنو جحش بن رئاب من دارهم عدا عليها أبو سفیان بن حرب فباعها من عمرو بن علقمة ... فلما بلغ بني جحش ما صنع أبو سفیان بدارهم ، ذكر ذلك عبد الله بن جحش لرسول الله ﷺ ، فقال له رسول الله ﷺ

ألا ترضى يا عبد الله أن يعطيك الله بها دارا خيرا منها في الجنة؟ قال بلى! قال  
 فذلك لك. فلما افتتح رسول الله ﷺ مكة، كلبه أبو أحمد في دارهم فأبطأ عليه  
 رسول الله ﷺ. فقال الناس لابن أحمد يا أبا أحمد! إن رسول الله ﷺ  
 يكره أن ترجعوا في شيء من أموالكم أصيب في الله عز وجل، فأمسك عن  
 كلام رسول الله ﷺ (فيها)، وما يدل على شدة فقر المهاجرين لأول عهدهم  
 بالمدينة أن الرسول عندما خرج بهم إلى وقعة بدر في السنة الثانية للهجرة دعا الله  
 في رواية الواقدي فقال: «اللهم إنهم حفاة فاحملهم، وعرة فاكسهم، وجياع  
 فأشبعهم، وعالة فاغنهم من فضلك».

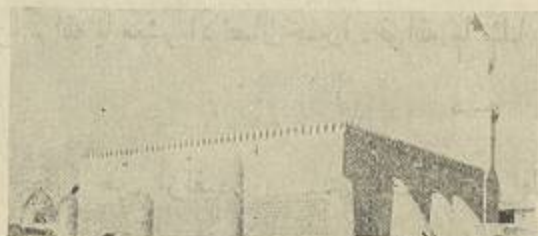
من أجل تلك الفاقة كان المهاجرون في السنوات الأولى من الهجرة عالة  
 على الأنصار. وذلك مظهر ثالث للحقوق المشقة بهم - نعم إن الأنصار أكرموا  
 وفادتهم كل الإكرام وواسوهم أتم المواساة، ولكن تلك الحال ليس من  
 السهل على كرام النفوس احتمالها. يروى البلاذري أن النبي عندما أراد قسمة  
 غنائم بني النضير قال للأنصار: «ليست لإخوانكم من المهاجرين أموال، فإن  
 شئتم قسمت هذه وأموالكم بينكم وبينهم جميعا، وإن شئتم أمسكتكم أموالكم  
 وقسمت هذه فيهم خاصة. فقالوا بل أقسم هذه فيهم وأقسم لهم من أموالنا  
 ما شئتم. فنزلت الآية (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) فقال  
 أبو بكر: جزاكم الله يا معشر الأنصار خيرا، فوالله ما مثلنا ومثلكم إلا كما  
 قال الغنوي:

جزى الله عنا جعفرًا حين أزلت	بنا نعلنًا في الواطئين فزلت
أبوا أن يملونا ولو أن أمننا	تلاقى الذي يلقون منا ملت
فدوا المال موفور وكل معصب	إلى حجرات أدفأت وأظلت

من أجل تلك المشقة التي نالت المهاجرين الأولين في سبيل الله اعتبر القرآن هجرتهم هجرة إلى الله ورسوله ، ومن أجلها جعل أولئك المهاجرين أرفع طبقات المسلمين درجة وأجزهم مشوبة ، وفرض مثل هجرتهم على كل مسلم عند خوف الفتنة ولحوق الضيم ، قال تعالى وإن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم ؟ قالوا كنا مستضعفين في الأرض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا : إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا . فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوا غفورا . ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرا وسعة ، ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفورا رحيما .

\*\*\*

أما بعد فلقد وفق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كل التوفيق عندما اتخذ هجرة الرسول من مكة إلى المدينة تاريخا يحسب منه المسلمون سنينهم وأيامهم ويؤرخون منه أحداثهم ووقائعهم . إنه لا شك قد لحظ في الهجرة أنها بدء رسوخ الإسلام ، ولسكننا نلاحظ فيها فوق ذلك أنها كانت مظهرا رائعا لعناصر الحياة القوية النبيلة : حياة الأمل والتضحية والإخلاص ؟



مسجد قباء

## كيف كان الرسول يسوس أصحابه<sup>(١)</sup>

لقد تحدث المؤرخون فأكثروا عن قدرة الإسكندر قديما و نابليون حديثا على اختيار الرجال واجتذابهم واصطناعهم ؛ فوصفوا صبر أصحاب الإسكندر على أهوال حروبه المتلاحقة ، ومشاق أسفاره البعيدة المترامية ؛ وبينوا كيف بلغ من إخلاص أصحاب نابليون له أنهم عندما سيرهم لويس الثامن عشر لقتاله بعد فراره من جزيرة إلبا ، لم يسعهم إلا ترك صفوفهم والإضمام إلى نابليون ، فاضطر لويس الثامن عشر إلى الخروج من فرنسا جملة .

ولسكن هؤلاء المؤرخين أنفسهم يذكرون مع ذلك أن الإسكندر عندما طوحت به فتوحه إلى أقاصى المشرق وأراد التوغل في بلاد الهند ، امتنع عليه جنده وحملوه على أن يعود بهم أدراجه ، وأن رجال نابليون لم ينتصروا لقضيته بعد كسرتة في واترلو ، بل إن قائدا من أعظمهم هو المارشال ناي الذى لقبه نابليون بأشجع الشجعان قد اضطرب في ولائه بين آل بوربون و نابليون ، فجر بذلك على نفسه البوار .

ليت أولئك المؤرخين اطلعوا على سيرة محمد بن عبد الله ! إذا لعلوا أن الرسول العربى قد بز الأولين والآخرين في اختيار الرجال واجتذابهم واستخلاص طاعتهم له ولدعوته في حياته وبعد مماته . ذلك بأن محمدا لم يكن يتنزل من أصحابه منزلة فاتح مغامر ، ولا منزلة جبار يريد علوا في الأرض

(١) الثقافة ، العدد ٥٩ ، ١٣٦ ، فبراير ١٩٤٠ .

ولكن منزلة الأب الشفيق ، والمعلم الحكيم ، والطبيب العالم بأدواء النفوس  
وأساليب علاجها ؛ وكان عليه السلام يروضهم ويسوسهم على هذا الاعتبار  
وحده ، ونحن نقص على القارىء من سيرته عليه السلام مع أصحابه بعض  
ما يوضح هذه الرياضة ويجلو تلك السياسة .

\*\*\*

عندما هاجر الرسول وأصحابه من قريش إلى المدينة رأى أن يحكم أسباب  
المودة بين المهاجرين والأنصار ، فعمد إلى المؤاخاة بين الفريقين ، فكان يؤاخى  
بين المهاجرين والأنصار ، مرتباً على تلك المؤاخاة وجوب التناصر والتعاون  
في الحياة ، والتوارث بعد الموت . وقد ظل التوارث جارياً على هذا النظام إلى  
أن شرعت أحكام الميراث ، فصار التوارث يجرى على مقتضاها .

إلا أن فريقاً من أهل المدينة يتزعمهم عبد الله بن أبي وقصوا من الدعوة  
الإسلامية وصاحبها موقف العناد والمعارضة ، ونظروا إلى الرسول والمهاجرين  
نظراً إلى قوم دخلوا عليهم بلدهم وزاحمهم فيه ، واستبدوا به دونهم ، فكانوا  
يتطلعون إلى الإفلات من النظام الجديد والعود إلى الحال السابقة بالمدينة .

هؤلاء هم المنافقون كما سماهم القرآن وعرفتهم السيرة . وقد لقي الرسول  
منهم عناء شديداً ، ولكنه كان يداريهم ويحتاط منهم في أناة ورفق يستثيران  
منتهى الإعجاب ! من ذلك ما حدث في غزوة بني المصطلق سنة ٦ للهجرة . فإنه  
لما فرغ الرسول من قتال بني المصطلق أقبل المسلمون على ماء هناك يستقون منه  
ويسقون ؛ فازدحم على الماء واقتتل عليه رجلان أحدهما يقال له جهجاه الغفارى  
كان أجييراً لعمر بن الخطاب ، ويقال للآخر سنان بن وبرة الجهمي كان حليفاً  
للأنصار ، وصرخ جهجاه : يا للمهاجرين ! فغضب عند ذلك عبد الله بن أبي ،



وظفق بلوم من كان حاضرا من قومه لانهم أحلوا المهاجرين ديارهم ؛ ورج به  
 الغضب حتى قال : « لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعر من الأذل ، وهي  
 المقالة التي سجلها القرآن الكريم . وبلغت مقالة ابن أبي رسول الله . فاعتم لذلك  
 غما شديدا ؛ وكان عمر بن الخطاب عنده ، فأشار عليه بقتل ابن أبي ، فأجابه  
 الرسول : « فكيف يا عمر إذا تحدث الناس بأن محمدا يقتل أصحابه ؟ ، ولكي  
 يشغل الرسول الناس عن التحدث في هذا الأمر أمر من فوره بالرحيل ، وذلك  
 في ساعة لم يكن من عادته أن يسير فيها . وراح عليه السلام وأصحابه يطاؤون  
 المراحل ويصلون النهار بالليل سيرا وسرى حتى بلغوا المدينة ؛ وإذا بالحال قد  
 تغيرت من جميع وجوهها . فهذا عبد الله ابن أبي قد أتى إلى الرسول يحلف له  
 أنه ما قال ما بلغه عنه ، وهذا ابنه يطالب إلى النبي إن كان لا بد أمراً بقتل أبيه  
 أن يتولى هو ، أى الإبن ، قتله ، فيقول له الرسول : « بل نترفق به ونحسن صحبته  
 ما بقى معنا ، وهؤلاء رهط عبد الله بن أبي قد استخذوا لسيلوك ابن أبي ،  
 وأصبحوا كلنا أحدث حدثا هم الذين يعنفونه ويؤنبونه .

هنالك أقبل الرسول على عمر بن الخطاب وقال له : « كيف ترى يا عمر ؟  
 أما والله لو قتلته يوم قلت لى أقتله لأرعدت له أنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته .  
 فقال عمر : « لأمر رسول الله أعظم بركة من أمرى . »

\*\*\*

وإلى القارىء مثلا آخر قد يكون أبلغ مما تقدم في بيان ما نحن بصده .  
 رووا أنه لما فرغ الرسول من صلح الحديبية ، رأى أكثر من كان معه أن  
 الرسول أعطى في هذا العهد أكثر مما أخذ ، فهم لم يدخلوا مكة في إعامهم ذلك  
 بل سيعودون من حيث أتوا ، وقد قبل الرسول أن يرد على قريش كل من أتى

إليه منها بغير إذن وليه . وأن لا ترد إليه قريش من يأتي إليها من مع محمد ،  
وفوق ذلك قد رد الرسول إلى قريش أبا جندل بن سهيل بن عمرو ، وهو رجل  
مسلم انفلت إلى جماعة المسلمين بعد تمام عقد الصلح ، وساور الناس غم شديد  
أشرف بهم على الهلاك حتى أنهم عند ما أمرهم النبي أن ينحروا بدنهم ويحلقوا  
رؤوسهم لم يطعه منهم رجل واحد . فدخل الرسول على زوجه أم سلمة ،  
وذكر لها ما لقي من الناس ، فقالت له ... أخرج ثم لا تكلم أحدا منهم بكلمة  
حتى تنحر بدنتك وتدعو حالقك فيحلقك . فقام فخرج فلم يكلم أحدا منهم  
كلمة حتى نحر بدنته ودعا حالقه فحلقه ؛ فلما رأى القوم ذلك توابوا ينحرون  
ويحلقون .

وفي رواية ابن اسحق عن ابن عباس أنه حلق رجال يوم الحديبية وقصر آخرون .  
فقال رسول الله ﷺ : « يرحم المحلقين ، قالوا والمقصرين يا رسول الله . قال  
« يرحم الله المحلقين ، قالوا : والمقصرين يا رسول الله . قال : « والمقصرين ، فقالوا  
يا رسول الله ، فلم ظهرت الترحم للمحلقين دون المقصرين ؟ قال : « لم يشكوا . »

\*\*\*

ويروون أنه كان عليه السلام قد خص المؤلفمة قلوبهم من قريش وقبائل  
العرب من قبائل هوازن بعطايا جسام لم يعط مثلها أحداً من الأنصار ، فوجد  
الأنصار في أنفسهم حتى قال قائلهم : لقي والله رسول الله قومه ، ودخل عليه  
سعد بن عباد وأبلغه رأى قومه ، فقال له الرسول : « فأين أنت من ذلك  
يا سعد ؟ » قال : « ما أنا إلا رجل من قومي قال « فاجمع لي قومك في الحظيرة ،  
فلما جمعهم سعد أتاهم رسول الله ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال :  
« يا معشر الأنصار ! لقد بلغتني عنكم وجدة وجدتموها علي في أنفسكم ! ألم آتكم

ضلالا فهداكم الله وعائلة فأغناكم الله وأعداء فألف بين قلوبكم؟ . .  
قالوا: بل الله ورسوله أمن وأفضل . ثم قال: « ألا تجيبوني يا معشر  
الأنصار؟ . . »

قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ورسوله المن والفضل . قال: « أما  
والله لو شئتم لقلتم ، فلصدقتم ولصدقتم ، أتيتنا مكذبا فصدقناك ، ومخذولا  
فنصرناك ، وطريدا فأويناك ، وعائلا فأسيناك . أوجدتم يا معشر الأنصار في  
أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوما ليسلبوا ، ووكلتكم إلى إسلامكم؟  
ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالثأفة والبعير ، وترجعوا برسول  
الله إلى رحابكم؟ فوالذي نفس محمد بيده لو لا الهجرة لسكنت امرءا من الأنصار ،  
ولو سلك الناس شعبا ، وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعبا الأنصار .  
اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار . . »  
قال فبكى القوم حتى أخصلوا لحاهم ، وقالوا: رضينا برسول الله قسما وحظا  
ثم انصرف رسول الله وتفرقوا .

\*\*\*

من هذه المثل نتبين الأسس التي كانت تقوم عليها سياسة الرسول أصحابه .  
كانت تقوم على جمع الكلمة والحلم والرفق ، بذلك كان عليه السلام يقتاد  
العصى ، ويتألف النافر ، ويحمل المحسن على أن يزداد إحسانا . على أن الأمر لم  
يكن مجرد تأليف وحلم ورفق ، بل كان من وراء ذلك كله الأسوة الحسنة والروح  
المتدفق والقلب الرحيم ، والخلق العظيم ، والعلم بطبائع النفوس وأسرارها الذي  
لا يدرك كنهه ، ولا يسبر غوره ؟

## من ذكريات الحج<sup>(١)</sup>

أما بعد ، فقد سافرت كثيرا ، وطوفت في الآفاق شرقا وغربا ، وشمالا وجنوبا ؛ فكنت في كل أسفاري السابقة أشعر ، من شدة تعلقى بأهل بيتي وأولادى وخواص شئونى ، كأنى غادرت قلبى ورائى ، فكنت دائم التلفت كثير التذكر لمن خلفت وما خلفت . ولسكنى عندما يسر الله لى العام الماضى حج بيته العتيق ، وزيارة قبر نبيه الكريم ، كان شأنى عجبا من العجب ! فقد شعرت كأن قلبى أمامى ، إذا صح هذا التعبير ، فلا تلتفت إلى الوراء . ولا تذكر لأهل ولا ولد ، ولا شئون خاصة ، ولكن توجه إلى الأمام ، واندفاع ، بل انجذاب نحو الغاية التى تركت من أجلها من أحب وما أحب . بل لقد أنسيت نفسى ، وكنت مريضا موعوكا ، وكان الطيب قد رسم لى بما أتداوى به ، فنسيت الداء والدواء ، وكان الخير والحمد لله فى ذلك النسيان .

\* \* \*

سارت بنا السفينة تشق عباب البحر متياسرة نحو المشرق ، وماهى إلا أن تراءت سواحل الحجاز ، ورفعت لنا قمم جباله ، حتى عرا الركب نوع من الوجد والهيام يعرفه العشاق المعاميد ، ويعرفه المقربون الواصلون من الصوفية . وحاذت بنا السفينة رابعا ، فأذن مؤذنها أن أحرموا أيها الحجاج ، فماهى لإسويغات قلائل حتى خيل لى أن أهل السفينة قد استحالوا ملائكة أطهارا :

(١) الرسالة عدد ١٨ ٢٤ مايو ١٩٣٩ .

أشباح قد اشتملت عليها ثياب بيض ساذجة ، و نفوس مطمئنة راضية ، و وجوه  
وضيئة مستبشرة ، و ألسنة بالتلبية و الدعاء منطلقة لاهجة . و كان لذلك المنظر في  
الركب جمال أى جمال ، فأما الشيب فقد خالط فيهم و قار السن جمال التقي فزادهم  
روعة و مهابة ، و أما الشباب فقد امتزج فيهم برد اليقين بحرارة العسا ، فعملتهم  
مسحة من التوقر و الاطمئنان اللطيف !

\*\*\*

و ما برح الركب على تلك الحال حتى بلغنا جدة و استقلنا السيارات نؤم  
مكة أم القرى . فبلغناها في الهزيع الثاني من الليل ، دون أن نشعر بتعب أو  
نحس نصبا ، على بعد الشقة ، و اتصال الحركة ، و امتناع النوم إلا غرارا فوق  
متن السفينة أو تهويما على ظهر السيارة . و راح صبحي و قد شارفنا البلد الأمين ،  
يتداكرون الحديدية ، و ذا طوى ، و غار حراء ، و غار ثور ، و غير ذلك من  
المعاهد التي أثارنا في أذهاننا ذكريات الإسلام إبان ضعفه و نأناته ، و ذكريات  
ذلك النضال العظيم الذى كان بين محمد و قريش ، بين الإسلام الهادى و الوثنية  
الضالة ، بين الحق الأبلج و الباطل اللجلج ، نعم و ذكرى ما احتمله الرسول  
و عصابته القليلة في سبيل الدعوة ، من تكذيب ، و اضطهاد ، و عدوان ،  
و انزعاج آخر الأمر عن الأهل و الوطن و المال .

و بلغنا النزل الذى أعد لمقامنا بأعلى مكة ، فقدفنا فيه بمتاعنا ، ثم أسرعنا  
نؤم الحرم لنظوف بالكعبة و نسعى بين الصفا و المروة . و إن أنس لا أنس  
مشهدنا و قد انتظمتنا موكبا و احداً و أخذنا ننحدر من المعللة في جوف الليل  
البهيم و نسير رويدا رويدا ، و مطوفنا بين أيدينا يهتف مليبا بصوته الأجش ،  
فتردد نحن التلبية بأصوات منبعثة من أعماق قلوبنا ، فتجاوب بأصداها جنبا

الطرق وتمضى صعداً في السماء . لقد كان المشهد رهيباً رائعاً ، ومنه عرفت كيف  
تسمو الروحانية في الإنسان على المادية متى استغرقت الفسكرة السامية وتولاه  
الإيمان العميق .

ثم يقف المطوف ويقف الموكب لوقوفه ، فإذا بنا قبالة باب عظيم من  
أبواب الحرم الكثيرة . وتحتبس الأنفاس ، وتجب القلوب ، وتمتد الأبصار ،  
كأنما تريد أن تلقف بنظرة واحدة منظر ذلك المسجد الرحب الذي كان يضم  
في تلك الساعة من الليل عشرات الألوف من الطائفين والتائبين والركع السجود .  
وكنت قد قرأت في بعض الكتب وصف الحرم المكي فلم يشق على أن أتبين  
معالمه لأول مشوئ فيه . فهذه الكعبة مؤتزرة بالسواد ومحتلة قرارة المسجد  
ووسطه . وهذا الحجر الأسود يتزاحم الناس على استلامه ، وهذا حجر اسمعيل ،  
وهذا المطاف من حول الكعبة يتدافع الطائفون فيه تدافعا ، وهذا مقام  
إبراهيم ، وتلك بئر زمزم يردها الطائفون ويشربون منها عللا بعد نهل . وهذا  
سائر المسجد من حول ذلك كله . والمسجد في جملة مسقوفة حواشيه ، وأما  
سائر فسقفه السماء وفرشه الحصباء ، وتطل عليه جبال أبي قبيس وقبعقان  
والصفا والمروة .

وأها لك بقعة عجيبة قد احتشدت فيها قوى الطبيعة احتشاداً ، واحتفلت  
فيها مظاهرها الرائعة احتفالاً لا قد تمثلت فيها السماء بنجومها وكواكبها ، والأرض  
بسبلها وجبلها ، والجو بأحواله المختلفة وتقلباته المتباينة ، فأنا حر لافح ، وأنا  
برد قارس ، وآونة جفاف تتقلص منه الشفاه ، وأخرى سيول دافعة تنحط من  
أعلى الجبال وتستقر حول الكعبة نفسها ، وأنا أسماء مصحبة وجو طلق ، وأنا  
سحاب مراكوم ، ورعد مجلجل وبرق خاطف .

كم للتعبد في هذه البقعة بعينها من معاني التوجه المباشر إلى الواحد القهار  
المسخر لقوى الطبيعة ، والمصرف لها على هذا النحو الذي لا يحتمل جدلا  
ولامراء ! وكفى بهذا التعبد باعثا للعبد على الإنابة والإخبات والخشوع ، وكفى  
به مشعراً لقلبه بحقارة الإنسان وضعفه وعجزه ، وبأنه إنما هو ذرة في محيط  
هذا الوجود الذي لا يسبر الوهم غوره ، ولا يدرك الخيال مداه . هنا يجد  
الإنسان نفسه وجها لوجه أمام ما يعرف في الفن الرفيع والأدب العالى بالعظيم  
والجليل حسا ومعنى .

\*\*\*

إذا كان الحرم المكي يوحى إلى النفس معنى ما هو قوى ورائع وجميل ،  
فإن اللوقوف بعرفة - وهو أهم مناسك الحج - وحيا آخر ومغزى  
عظيم الشأن .

وعرفات جبل يبعد عن مكة بنحو عشرين كيلو متراً . ويشرف على هضبة  
مترامية الأطراف ، ينزلها الحجيج في مضاربهم وخيامهم ، معهم أزوادهم  
ورواحلهم وسياراتهم التي تقلهم . فإذا كان عصر يوم اللوقوف بعرفة أخذ  
الحجاج يخرجون من خيامهم فيصعدون في الجبل ويدعون الله ويضرعون إليه ،  
ويستغفرونه لذنوبهم وخطاياهم ، ثم يعودون وقد طفلت الشمس للغروب  
مطمئنين واثقين من أن ذنوبهم حطت عنهم وأنهم استقبلوا صفحة جديدة من  
حياتهم بيضاء يرجون ألا يكتب لهم فيها إلا كل ما هو خير لهم . ولقد وقفت  
بعرفة مع الواقفين ، ودعوت الله مع الداعين ، وأشهد أن المنظر رائع ، بل  
هائل ! وأى منظر أشد هولاً من أن ترى نفسك على ساحل بحر ليس من الماء  
ولكن من خلائق يمجج بعضها في بعض ، فتحس لها همهمة البحر المحيط أو

الجيش اللهم؟ ومع ذلك فكل ملق السلاح، وكل مقر بالضعف، معترف بالعبودية، وكل قد تجرد من زخرف الدنيا وباطلها، فلا فاضل ولا مفضول، ولا سيد ولا مسود، ولا رفيع ولا وضعيع. لقد جاءوا الله كما خلقهم، وكما يقبضهم، وكما ينشئهم النشأة الأخرى. لقد ردوا أنفسهم في ذلك اليوم المشهود إلى الأصول التي يتساوى فيها الناس جميعا، وعلّموا أن ما سواها متاع الغرور.

\*\*\*

وإذا كان الحج بركنيه العظيمين من طواف بالكعبة ووقوف بعرفة يوحي معاني الجلال والبساطة، فإن في الحجاز مشهدا ثالثا ليس من الحج ولم يفترضه الشارع على الناس، ولكن شهوده واجب على المسلم في شرعة الذرق السليم على أقل تقدير. ذلك زيارة قبر الرسول بالمدينة المنورة. ولقد قصدنا الزيارة بعد أن قضينا مناسك حجنا، وكنت طوال الطريق من مكة إلى المدينة يهزني شوق يختلف عن ذلك الذي كانت تضطرم به جوانحي عند توجهنا إلى مكة. لقد كان الشوق الأول شوقا إلى المجهول غير المعلوم إذا صح هذا التعبير. أما الثاني فكان شوقا إلى المعلوم غير المجهول، إلى إنسان أثير حبيب.

ولقد صدق من أطلق هذا الوصف الجميل على الثاوي بالمدينة عليه السلام، فهو حبيب إلى الله الذي اصطفاه لتبليغ رسالته، وهو حبيب إلى الإنسانية بما أسدى إليها من صنيع باق على الزمان.

شارفنا المدينة فتواردت على الذاكرة أحداث ذلك البلد الذي يعد في مقدمة البلدان التي أثرت في تاريخ العالم أبلغ التأثير. ألا إنه إذا عدت أثينا عظيمة بما بعثت من نهضة فكرية وفلسفية رائعة، وعدت روما عظيمة بما بعثت في عالم السياسة من دولة تخمسة، فإن المدينة عظيمة بالأميرين جميعا،



وكفأها فخرأ أنها مهد المدينة الإسلامية والدولة العربية، ومثوى محمد بن عبد الله .  
 وطفقنا نتجول فى خطط المدينة وطرقها الضيقة الملتوية وننشق فيها ريح  
 القدم وعظمة الماضي وتعرف معالمها ومعاهدها . هنا بركت ناقة الرسول لأول  
 قدومه المدينة ، هناك السنح الذى نزله أبو بكر ، تلك آطام اليهود ، هذا أثر  
 الخندق ، ذلك جبل أحد ، تلك سقيفة بنى ساعدة ، هذا البقيع ، وهذا مهوى  
 الأفتدة ومحط الرحال ، هذا مسجد محمد بن عبد الله وموضع قبره الشريف .  
 ألا لقد رأيت فى أسفارى قبور كثير من عظماء الشرق والغرب ، وأشهد أنى  
 لم يأخذنى شيء من الرهبة والهيبه التى أخذتنى عندما وقفت حيال قبر الرسول  
 العربى . إن عظمة أولئك العظماء محدودة مقيدة بقيود الزمان والمسكان . أما  
 عظمة محمد فطلقة ليس للمكان ولا للزمان عليها سبيل . أولئك وردوا وشلا  
 تحت أقدامهم وفى متناول أيديهم ، أما محمد فورد بجر الحقيقة الطامى وسر  
 الوجود الخافى فنهل وعل ، أولئك بادوا وأصبحوا أحاديث ، أما محمد  
 فاستحال قوة فى هذا العالم كهوى الطبيعة باقية ما بقيت الأرض والسماء .

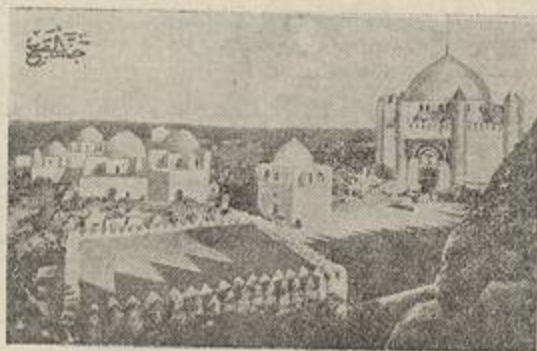
والمسجد النبوى تحفة فنية رائعة تعرف فيه خفصة الروح والوقار والهيبه .  
 وقد لزمه الطابع الذى كان له على عهد الرسول ، طابع منزل الرسول ، ومجلس  
 الرسول ، ومسجد الرسول ؛ فأنت إذا استقر بك المقام فيه أحسست أنك فى  
 منزل صديق حميم أو أخ كريم . كل شيء فيه يبعث فىك الأانس وينبى عنك  
 الوحشة ، فأنت فى منزلك ، على حد تعبيرنا المألوف ؛ تلك السقوف العالية  
 تتدلى منها الثريات الوهاجة ، وتلك البسط الوثيرة ، وتلك النقوش المذهبة  
 تغشى الجدران ، وتلك المحاريب الأثرية النفيسة ، وتلك القبة المذهبة فى السماء ،  
 كل ذلك فيه معنى اللطف ومعنى الأانس ، وإن شئت فقل فيه معنى الإنسان

الصادق والإنسانية الصحيحة . الحرم المكي يريك معنى الإله والألوهية ،  
والحرم المدني يريك معنى الإنسان والإنسانية .

كل ما في المدينة جميل : جمال في الطبيعة تعرفه في الماء والزرع والسهل  
والجبل ، وجمال في الخلق تعرفه في دعة أهل المدينة ، الذين رضى أسلافهم  
الأنصار برسول الله قسما وحظا في حياته وبعد مماته ، ثم جمال ثالث في المسجد  
وفي الذكرى التي يثيرها ، جمال في جمال في جمال .

\* \* \*

أما بعد فإن الجلال بمكة ، والبساطة بعرفة ، والجمال بالمدينة . ولست  
أعرف قطرا آخر أجمع لهذه المعاني الثلاثة من الحجاز ؟



## رسالة الحج<sup>(١)</sup>

تأليف الأستاذ ح. ع. (٢) (دبلوماسي)

الأستاذ ح. ع. من خيرة رجالنا العاملين في السلك الدبلوماسي ، مثل مصر ولايزال يمثلها في ممالك الشرق العربي ، فأفاد من ذلك خبرة نادرة بأحوال البلاد العربية في الوقت الحاضر ، وأنشأ لنفسه بخلقه وإخلاصه ونشاطه مكانة عالية عند ملوك العرب وساستهم وأدبائهم وعلمائهم . وإني لسعيد بأن أقول إني اطلعت على ذلك بنفسي في بعض تجوالي في ربوع الشرقين الأدنى والأوسط . وقد واتي الحظ الأستاذ ح. ع. وساعفته ظروف عمله الدبلوماسي فأدى فريضة الحج ثلاث مرات استطاع أن يدرس في أثنائها على هدى التاريخ وفي ضوء الواقع حال ذلك النظام الإسلامي الجليل المعدود خامس أركان الإسلام . ثم صاغ خلاصة دراسته في رسالة لطيفة الحجم عظيمة الفائدة ، يعرف فيها من يطالعها بلاغة الأديب ، وفكرة الفيلسوف ، ونزعة المصلح المؤمن برسالة الإسلام ، بإمكان إنهاض المسلمين من عثارهم بالرجوع بهم إلى كثير من نظمهم وسننهم الأولى . فجاءت الرسالة من أحسن ما كتب عن الحج ، ومن خير ما أخرجته المطابع المصرية في هذا العام .

\*\*\*

(١) نشرت بالعدد ١٢١ من الرسالة ( السنة الثالثة ) بتاريخ ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٣٥ .

(٢) هو المرجوم الطيب الذكر الأستاذ حافظ عامر بك .

ينعى الأستاذ على المسلمين في صدر رسالته إهمالهم أمر الحج حتى كاد هذا النظام العتيق يفقد من الناحية العملية الحكمة التي قصد إليها الشارع من تشريعه . فهو يقول :

« أما بعد فقد أدت فريضة الحج ثلاث مرات ، وشاهدت الحجاج من جميع الأجناس ، وخالطت منهم طوائف كثيرة ، وحادثت كبارهم وذوى العقول منهم ، ودرست بفكرى وعينى وقلبي ، فسكنت أرى وأفكر وأبحث وكنت أستلهم كل شيء حكيمته وكل مكان وحيه ، وكل عمل سره ، فظهر لى أخيرا أن الحج لا يزال مجهولا فى حقيقته ، وأن الذين يحجون إنما يؤدون عملا فرديا محضا ، ولا يعرفون إلا ظاهرا من الأمر .. »

\*\*\*

والرسالة تنقسم ثلاثة أقسام ، أولها فى أن الإسلام دين إنسانى عام ، وأنه دين المساواة التى تظهر فى شكلها المادى المحسوس فى الحج ، وأن الكعبة من العالم الإسلامى بمنزلة القلب من الجسم ، فالتوجه إليها فى الصلاة والحج ذو حكمة بالغة . والقسم الثانى يتناول الكلام على « مقاصد الحج » ، وفيه يرى الأستاذ أن الحج كفىل بتحقيق مبدأ الرجوع إلى طهارة الطبيعة الذى دعا إليه الفلاسفة أمثال روسو ولسكنهم عجزوا عن تحقيقه ، وأن الحج يستوفى مزايا نظام الكشافة ويربى عليها ، وأن الحج رمز للجهاد الإسلامى فى أسمى وأشرف معانيه ، وأن موسم الحج جدير بأن يصبح مؤتمرا عاما لنشر الثقافة بين المسلمين لو حرصت كل أمة إسلامية على أن تحج كل عام نفرا من صفوة رجالها يبادلون نظراءهم من حجاج الأمم الأخرى الرأى والمشورة ، والأستاذ يرى أن هذه المقاصد كلها بما يندرج تحت مدلول قوله تعالى : « ليشهدوا منافع لهم » .

على أن الجديد الممتع في هذه الرسالة هو قسمها الثالث ، هو تلك الفصول التي عقدها الأستاذ لمناسك الحج وأسرارها التي خفيت على كثير من بحاث المسلمين حتى ذهب بعضهم إلى أنها أمور تعبدية توقيفية لا مجال لتفكير العقل البشري فيها ؛ فالأستاذ يتناولها منسكا منسكا : من الإحرام ، إلى الطواف حول الكعبة ، إلى السعى بين الصفا والمروة ، إلى الوقوف بعرفات ، إلى رمي الجمار عند العقبة ، إلى تقديم الهدى ، إلى إستلام الحجر الأسود والإهلال بالنبلية ، فإذا هذه المناسك قد أفصحت عن سرها ، وأبانت عن مكنون حكمتها . والحق أن هذا البحث ليكشف عن ناحية روحانية جميلة من نفس الباحث القدير .

\*\*\*

ثم يحتم الأستاذ رسالته بمقترحات عملية يتقدم بها إلى الحكومات الإسلامية عامة والحكومة المصرية خاصة ، راجيا الأخذ بها حتى ينتفع المسلمون بنظام الحج .

وإن الذي يفرغ من قراءة هذه الرسالة ليرى أمرين : أن تجدد دعوة الأستاذ ح.ع. من أولى الرأى في العالم الإسلامى آذانا صاغية ، وقلوبا واعية ، وألا يحرم الأستاذ الشباب المتعلم المثقف من نفثات يراعه ، فهو يراع يصدر عن فكر ناضج وعاطفة نبيلة ؟



# عمر بن الخطاب في عام الرمادة

(١)

عرف الناس عمر بن الخطاب في الجاهلية قتي في خلقه جفاء وشدة . وعرفوه في عهد النبوة صحابيا من أمضى الصحابة عزيمة ، وأغلظهم على معاندى الدعوة الإسلامية من الكفار والمنافقين ؛ وعرفوه في خلافته فاتحا عظيما ومنظما قديرا . ولكن الناس لم يعرفوا عمر راعيا رءوفا برعيته كل الرأفة ، وأبأ لأمته شفيقا عليها كل الشفقة ؛ وإن يكونوا قد فعلوا فهم لم يعرفوه من هذه الناحية الإنسانية حق معرفته ، ولا قدره حق قدره .

ونحن نجلو على القراء من تاريخ الفاروق صحيفة بيضاء مشرقة ، تصوره لنا حاكما شديدا شعور بالمستولية عن ألقيت إليه مقاليد حكمهم ، حتى لقد أنزلهم من نفسه منزلة دونها منزلة النفس والولد والأهل والعشيرة . تلك صحيفة سيرته في الشدة التي نزلت بجزيرة العرب في العام المعروف بعام الرمادة . ويسمى أخباريو العرب بعام الرمادة : العام الذي بدأ من منتصف الناس من الحج في سنة ١٨ هـ ، وامتد إلى موسم الحج من سنة ١٩ هـ ؛ وسمى بعام الرمادة لأن الأرض كلها صارت سوداء فشبهت لذلك بالرماد .

\*\*\*

ولقد دهم عمر بن الخطاب من أمر الناس في ذلك العام شيء عظيم . فنظرة

(١) الثقافة ، العدد ١٤٦٢٥٩ ديسمبر سنة ١٩٤٣ .

الحاكم الإنسانى الشفيق كانت تمثل له هول القحط وفتك الجوع بالناس ؛ ونظرة  
السياسى الرشيد كانت تؤدى إليه أن قلب الدولة العربية الناهضة يوشك أن تلم  
به سكتة يكون فيها انهيار تلك الدولة وذهابها .

ولكن عمر مجرد للأمر تجردا . وعلم أن فى إنكار الذات ، ومضاء  
العزيمة ، وسرعة المبادرة ما يكفل تهوين الشدة على أقل تقدير . فأنشأ يأخذ  
الناس بالاقصاد فى معيشتهم ، وجعل يخلطهم بنفسه ويعيش كواحد منهم . فكان  
يطعمهم أول الأمر الثريد من الخبز مادوما بالزيت ، وربما نحس لهم فى أيام  
معينة جزورا يجعل لحمها على الثريد ، ويأكل مع الناس مما يأكلون . ويروى أنهم  
عرفوا له ذات مرة أطيب الجزور ، فإذا قدد من سنام وكبد ؛ فقال : بخ ! بخ !  
بئس الوالى أنا إن أكلت طيبها وأطعمت الناس كراديسها ، ، وأمر مولاه بأن  
يرفع هذا الطعام ويحمله إلى أهل بيت مقفرين ، وأن يأتيه هو بخبز وزيت .

على أنه لم يلبث أمام اشتداد الحال أن حرم على نفسه وأهل بيته لذائذ  
العيش من سمن ولحم وفاكهة . ولذلك قصص يروونها عنه ؛ منها أنه أتى مرة  
بخبز مفتوت بسمن ، فدعا رجلا بدويا فأكل معه . فجعل البدوى يتبع الودك  
فى جانب الصفحة ، فقال له عمر : إنك مقفر من الودك ؟ فقال : أجل !  
ما أكلت سمنا ولا زيتا ، ولا رأيت آكلا له مذكذا وكذا قبل اليوم . فحلف  
عمر لا يذوق لحما ولا سمنا حتى يحيا الناس . وكان بطنه ربما تفرقر من أكل  
الزيت المطبوخ على النار ، فكان يقول : تفرقر ! لا والله لا تأكله حتى يأكله  
الناس . وكانت لابنه عبيد الله بهمة « فجعلها فى التنور ، فخرج ريحها على عمر  
وهو فى نفر من أصحابه ، فقال : ما أظن أحدا من أهلى اجترأ على هذا ! وقال  
لمولاه أسلم : اذهب فانظر من أين هذه الريح ، قال : فوجدت البهمة فى التنور ،

فقال عبيد الله : استتر على سترك الله ! فقلت : قد عرف حين أرسلني أني لا أكذبه . قال : فاستخرجها ، ثم جاء فوضعها بين يديه واعتذر إليه من أن يكون علم بها . وقال : أنا كنت اشتريتها لابني فقرم إلى اللحم ، فذبحت له وشويت .

ونظر يوما إلى بطيخة في يد بعض ولده ، فقال : بخ ! بخ ! تأكل الفاكهة وأمة محمد هزلى ؟ فخرج الصبي هاربا وبكى ، فسأل عمر عن أمر تلك البطيخة فقيل له : اشتريت بكف من نوى . فسكت عمر .

\*\*\*

وتشتد المجاعة في داخل الجزيرة ويهجم الشتاء ، وتعصف ريح الموت بأرجائها فتحمل القبائل من بواديها إلى الحواضر عامة ، والمدينة خاصة ، على عادة أهل البدو في النوائب والأزمات ، فأزلمهم عمر بأرضها فيما بين رأس البثنية ، إلى بني حارثة ، إلى بني عبد الأشهل ، إلى البقيع ، إلى بني قريظة . وأزل منهم طائفة ببني سلمة ؛ وكان عمر يتعاهدهم بنفسه . قال أبو هريرة : يرحم الله ابن حنتمة ، فقد رأيت عام الرمادة وقد حمل على ظهره جرابين ، وفي يده عككزيت ، وإنه ليعتقب هو وأسلم فلما رأني قال : من أين يا أبا هر ؟ قلت قريبا ، قال : كن معنا . فحملنا ذلك حتى اتينا إلى حرم نحو عشرين بيتا من محارب . فقال عمر : ما أقدمكم ؟ قالوا الجهد ! وأخرجوا لنا جلد ميتة مشويا كانوا يأكلونه ، ورمة عظام مسحوقة كانوا يستفونها . فرأيت عمر طرح رداه ، ثم اتزر ، فما زال يطبخ لهم ويطعمهم حتى شبوا . ثم أرسل أسلم إلى المدينة ، فجاء بأبيرة فحملهم عليها حتى أنزلهم الجبانة ، ثم كساهم وكان يختلف إليهم حتى رفع الله ذلك .



ورأى عمر أن الأقطار المفتوحة إن يكن فيها خير فذلك وقته . فكتب إلى عماله عليها يستعينهم ويستنجدهم . وإلى القارىء نص المراسلة التي دارت بينه في هذا الشأن وبين عمرو بن العاص عامله على مصر : « من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى العاصي بن العاص : سلام عليك . أفتراني هالكا ومن قبلي ، وتعيش أنت ومن قبلك ، فياغوثاه ! ثم ياغوثاه . » فكتب إليه عمرو : « سلام عليك ، فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو ، أما بعد ، فقد أتاك الغوث . فلا بعثن إليك بعير أولها عندك وآخرها عندي والسلام . » ويظهر أن عاملي الشام والعراق ردا بمثل هذا المعنى . فأما أمداد مصر فوردت في البحر الأحمر في عشرين سفينة تحمل الدقيق والودك . وبعث عمرو في البر بألف بعير تحمل الدقيق والزيت . وبعث بخمسة آلاف كساء . وبعث معاوية من الشام بثلاثة آلاف بعير تحمل الدقيق ، وثلاثة آلاف عباءة . وبعث سعد من العراق بألف بعير عليها الدقيق . وندب عمر من ثقات رجاله من استقبال المدد الوارد في البر من مصر والشام والعراق ومال به إلى البادية . وأمره أن يجعل الظروف ، أي الأوعية ، لحفا يلبسونها ، وأن ينحر لهم الإبل يأكلون من لحومها ويحتملون من ودكها . وبعث إلى الجار ، وكانت إذ ذاك مرفأ المدينة ، من حمل ما بعث عمرو في البحر إلى تهامة فأطعمه الناس .

وقد نظم عمر توزيع الطعام على الناس توزيعا ساذجا ، ولكنه واف بالغرض المطلوب . فكون لجنة تتولى ذلك مؤلفة من أربعة نفر ، هم : ابن أخت النمر ، والمسور بن مخرمة ، وعبيد الرحمن بن عبد القارى ، وعبيد الله بن عتبة بن مسعود . وكان كل رجل من هؤلاء الأربعة على ناحية من المدينة . واتخذ عمر موائد عامة يحضرها من شاء ، وينحر لها كل يوم من أيام معلومة

عشرون جزورا من جزر بعث بها عمرو من مصر . ومن لم يحضر العشاء العام من العيالات والصبيان والمرضى أرسل إليهم طعامهم في منازلهم . هذا في الأيام التي يباح فيها أكل اللحم . أما في الأيام الأخر : فكان عمر يأمر بالزيت فيصير في القدور السكبار على النار حتى يذهب حره ، ثم يثرد الخبز ويؤدم بذلك الزيت . وكان منادى عمر ينادى : من أحب أن يحضر طعامنا فياكل فليفعل . ومن أحب أن يأخذ ما يكفيه وأهله فليأت فياخذ !

وكان النفر الذين سمينا إذا أمسوا اجتمعوا عند عمر فأخبروه ما كانوا فيه . فسألهم عمر ليلة وقد تعشى الناس : أحصوا من تعشى عندنا ! فأحصوهم من القابلة فوجدوهم سبعة آلاف رجل ، وأحصوا من أرسل إليهم الطعام في منازلهم فوجدوا أربعين ألفا . ثم أحصوهم بعد ليال فوجدوا من تعشى عند عمر عشرة آلاف ، ووجد الآخرون خمسين ألفا .

\* \* \*

غير أن ذلك الجهد كله لم يزد على أن يخفف من وطأة المجاعة ؛ فلقد كان متعذرا أن ينقل إلى الجزيرة في تلك الأيام من المؤن ما يكفي لسد حاجة أهلها دفعة واحدة ، كما كان مستحيلا ألا تتأثر الصحة العامة بهذا النوع من الطعام الخشن الجشب ، الذي اضطر إليه الناس اضطرارا ، وحملوا عليه حملا . فوقع الفناء في الناس ، حتى قيل إنه هلك في تلك السنة من العرب الذين نزلوا بأرض المدينة نحو ثلثهم . وكانوا يزيدون على مائة ألف . هذا عدا من هلك في داخل الجزيرة .. وكان عمر يأتي بنفسه فيصلي على الموتى . ولقد روى مرة وهو يصلي على عشرين جميعا . فلما تناهت الشدة إلى تلك الحال لم يعى عمر بالأمر ولا ضاق به ذرعا . بل نهج في تفريج السكرب وتهوين الخطب منهمجا جديدا هداه إليه فسكروه السليم وقلبه الكبير .

## عمر بن الخطاب في عام الرمادة<sup>(١)</sup>

(٢)

لقد كان عمر بن الخطاب أكبر قلبا وأصح تفكيراً من أن يقف في  
مكافحة الشدة التي نزلت بالجزيرة عام الرمادة عند الناحية المادية وحدها . لقد  
علم أن الناس إذا صار أمر بطونهم شغلهم الشاغل ، وهمهم الناصب ، فربما  
انقلبوا سباعاً عادية وذئاباً ضارية يأكل بعضهم لحم بعض ، كما وقع عند بعض  
الأمم في مثل تلك الحال . فينبغي إذاً أن يعصموا من الكفر والهلاك ، أو من  
التدهور والانحطاط بعاصم الدين ووازع العقيدة . ينبغى ، وقد خوت بطونهم ،  
أن تعمر قلوبهم بذكر الله ، وأن يتوجهوا إليه سبحانه في الشدة كما يتوجهون  
إليه في الرخاء . ولعمر الحق ! لولم يكن من وراء ذلك إلا أن يبرموا إلى خالقهم  
وإلى أنفسهم من معرفة الفزع والخلع ، ويستقبلوا الموت راضية نفوسهم ،  
مطمئنة قلوبهم ، لسكنى ؛ فكيف والصبر على المحن والشدائد من صفات المتقين  
دلائل الايمان الصادق الصحيح ! !

ومن ثم جرد عمر لمنازلة ما حل بالناس من آفات الجوع والعري والمرض  
قوة الدين ووسائلها من دعاء وصلاة وابتهاج وأخذ بالصبر على ابتلاء الله  
وتمحيصه . وهي نفس القوة التي نازل بها من قبل ومن بعد عوامل الفساد  
الاجتماعي والاضمحلال السياسي في أملاك الفرس والروم .

\*\*\*

(١) الثقافة ، العدد ٢١٦٢٦٠ ديسمبر سنة ١٩٤٣ .

وبدأ عمر بنفسه على عادته في المنهج الجديد الذي نهجه والخطة التي اختطها،  
فكما جعل نفسه المثل والقُدوة في الاقتصاد وعفة النفس ، فكذلك أحب أن  
يكون المثل والقُدوة في صحة التدين وصدق التضرع إلى من بيده الأمر كله .

روى الواقدي بإسناده إلى ابن عمر قال : « أحدث عمر في زمان الرمادة  
أمراً ما كان يفعله من قبل . كان يصلي بالناس العشاء ، ثم يدخل إلى بيته فلا  
يزال يصلي إلى آخر الليل . ثم يخرج فيأتي الأتقاب فيطوف عليها ، وإني لأسمعه  
ليلة في السحر وهو يقول : اللهم لا تجعل هلاك أمة محمد على يدي وفي ولايتي . »  
وحدث ابن سعد بإسناده إلى من رأى عمر عام الرمادة قال : « قال رأيت  
عمر رضى الله تعالى عنه يصلي في جوف الليل في مسجد رسول الله ﷺ عام  
الرمادة وهو يقول : اللهم لا تهلكنا بالسنين ، وارفع هذا البلاء عنا : يردد  
هذه الكلمة . »

ثم يلجأ إلى دعاء الاستسقاء وصلاته ، وهي صلاة يصلها المسلمون عند  
امتناع المطر واشتداد الجذب . روى البلاذري بإسناده إلى السائب بن يزيد ،  
قال : نظرت إلى عمر يوماً في الرمادة وقد غداً متبتلاً متضرعاً ، عليه برد لا يبلغ  
ركبتيه ، يرفع صوته بالاستغفار وعيناه تهرقان على خديه وعن يمينه العباس بن  
عبد المطلب ، فدعا يومئذ وهو مستقبل القبلة رافع يديه إلى السماء ، وعج إلى  
ربه ودعا ودعا الناس معه . »

ورأى عمر أن يكون دعاء الاستسقاء عاماً يشمل عرب الجزيرة جميعاً ،  
فكتب إلى عماله على نواحي الجزيرة وقبائلها أن يخرجوا للاستسقاء بالناس  
يوم كذا وأن يتضرعوا إلى ربهم ويطلبوا إليه رفع هذا المحل عنهم . وخرج  
عمر لذلك اليوم وعليه برد رسول الله ﷺ حتى انتهى إلى المصلي فخطب

الناس فتضرع، وجعل الناس يلحون، فما كان أكثر دعائه إلا الاستغفار، حتى إذا قرب أن ينصرف رفع يديه مداً وحول رداءه كما يفعل المستسقي فجعل اليمين على اليسار ثم اليسار على اليمين، ثم مد يديه وجعل يلح في الدعاء ويكي بكاءً طويلاً حتى اخضلت لحيته. « وخرجت العرب في ذلك اليوم عنه يستسقون فلم يبق منهم إلا غبرات أي بقايا. فخرجوا يستسقون كأنهم السنور العجاف تخرج من وكورها يعجون إلى الله » .

\*\*\*

وأخيراً يتأذن الله بالفرج بعد الشدة، وباليسر بعد العسر. حدث ابن سعد بإسناده قال: « قال عمر للعباس بن عبد المطلب، يا أبا الفضل! كم بقي علينا من النجوم؟ قال العواء! قال كم بقي منها؟ قال ثمانية أيام! فقال عمر، وعسى الله أن يجعل فيها خيراً » .

والعواء بالتشديد نجم يظهر في أفق الجزيرة في فصلي الخريف والشتاء، وطلوعها يكون لاثنتين وعشرين ليلة من أيلول، وسقوطها لاثنتين وعشرين ليلة تخلو من آذار.

قال ساجعهم: إذا طلعت العواء وجثم الشتاء، طاب الصلاة.

وقد جعل الله في تلك الأيام الثمانية خيراً كما رجا عمر. حدث محمد بن سعد بإسناده إلى زيد بن أسلم عن أبيه قال: « قال كنا في الرمادة لا نرى سحاباً، فلما استسقى عمر بالناس مكثنا أياماً، ثم جعلنا نرى قزح السحاب، وجعل عمر يظهر التكبير كلما دخل وخرج، وجعل الناس يكبرون، حتى نظر إلى سحابة سوداء جاءت من ناحية البحر، ثم تشاءمت فكان الحيا » .

وأرسل الله السماء على الجزيرة مدراراً، فعاثمت الأرض الهامدة السوداء

أن دب فيها ديب الحياة ، فاهتزت وربت وأنبت الكلاء والعشب ، فتغنى  
الطير ورتعت الآرام ، وثغت الشاء ، ورغت الإبل ، وحممت الخيل ، وبدت  
معالم الربيع العربي في جميع أرجاء الجزيرة .

هنالك رأى عمر أن قد انتهى واجبه ، فأمر أولئك النفر الأربعة الموكلين  
بمن في نواحيهم بأرباض المدينة أن يخرجوا الأعراب إلى البادية ويعطوهم قوتا  
وحملانا ، وكان عمر ربما تولى العمل في إخراجهم بنفسه .

\*\*\*

ورب سائل يسأل ، ماذا كان عمر فاعلا لو تهادى القحط عاما آخر ، أو لم  
تتوافر عنده المؤن الكافية ؟ ويجيبنا عمر نفسه عن هذا السؤال . روى البلاذري  
بإسناده إلى ابن عمر أن عمر بن الخطاب قال عام الرمادة : « لو لم أجد للناس  
من المال ما يسعهم لادخلت على كل أهل بيت عدتهم فقاسموهم أنصاف بطونهم  
حتى يأتي الله بالحيا ، فإنهم لن يهلكوا على أنصاف بطونهم . ولعل من هنا نشأت  
عند عمر خطة المقاسمة التي اتخذها بعد بإزاء العمال الذين كانوا يثرون على حساب  
مناصبهم ، فكان يقاسمهم أموالهم على النصف ، فيأخذ النصف لبيت المال ويدع  
لهم النصف الآخر .

وكم كان عمر بليغ الرفق بالناس عندما أخرج تحصيل الزكاة عام الرمادة ، فلما  
كان العام القابل مبعث السعاة ، وأمرهم أن يحصلوا زكاة عامين ؛ وأن يوزعوا  
نصفها على الفقراء ويقدموا عليه بالنصف الآخر . وقد بين عمر لموزعي  
الصدقات من يعطون ومن لا يعطون . فأمرهم أن يعطوا من أبقته له السنة  
غنا وراعيا ، ولا يعطوا من أبقته له غنمين وراعين ، وكذلك واسبى عمر

الفقراء في تلك الشدة في غير ما عنف بالأغنياء ولا إعنات لهم .

\*\*\*

ولقد لقي عمر في عام الرمادة نصبا شديدا ، ونال منه الجهد والإعياء .  
حدث ابن سعيد بإسناده إلى عياش بن خليفة قال : « رأيت عمر رضي الله  
تعالى عنه عام الرمادة وهو أسود اللون ، وعهدته قبل ذلك أبيض ، فقلت ، « لم  
أسود ؟ » فقيل إنه كان يأكل السمن واللبن ، فلما أحل الناس حرمهما حتى يجيوا ،  
فأكل الزيت ، فتغير لونه وجاع فأكثر » .

وحدث ابن سعيد بإسناده إلى أسامة بن زيد عن أبيه عن جده ، قال :  
« كنا نقول لو لم يرفع الله المحل عام الرمادة لظننا أن عمر يموت هما بأمر الناس » .

\*\*\*

رحم الله عمر ، كما رحم عمر الناس ؟



# عمر الفاتح<sup>(١)</sup>

(الروح الذي وجه المسلمين إلى النصر الباهر)

مهما بعد العهد فليس ينقضى عجب المؤرخين وعشاق البطولة من فعال  
قواد العرب القدماء ، أمثال المثني بن حارثة ، وخالد بن الوليد ، وسعد بن  
أبي وقاص ، وأبي عبيدة بن الجراح ، وعمر بن العاص ، وحذيفة بن اليمان .  
فهم الذين قوضوا ملك كسرى ، وزلزلوا عرش قيصر . وهم الذين شادوا في  
مدى من الزمن لا يتجاوز عشر سنوات ملكا ضخما انتظم الجزيرة والعراق  
وفارس والشام ومصر . ولكن ينبغي ألا ينسينا لألاء هذه الفتوح ، وما انعقد  
على مفارق هؤلاء الأبطال المغاير من أكاليل المجد ، أنهم ما كانوا يفعلون  
ما فعلوا ويبلون ما أبلوا لولا روح فياض عمرهم ، وعقل جبار سيطر عليهم ،  
وعزيمة ماضية صرفتهم ، هي روح عمر بن الخطاب وعقله وعزيمته .

ولعلنا لا نكون مسرفين إذا قلنا إنهم جميعا لم يزيدوا على أن يكونوا  
أعوانا وجنودا لعب بهم عمر لعبة الحرب الرهيبة مع كسرى وقيصر ، وإنه في  
حقيقة الأمر هو الفاتح الذي فتح الممالك ودوخ الأمصار ، وأقام الدولة العربية  
عالية الذرى ، ثابتة الأساس ، متينة البنيان . ورعى الله أبا الطيب حيث يقول :  
الرأى قبل شجاعة الشجعان هو أول وهى المحل الثاني

(١) الهلال ، نوفمبر ١٩٣٧ ص ٤٠ - ٤٤ .



ولربما طعن الفقى أقرانه بالرأى قبل تطاعن الأقران

لم يكن عمر قبل الخلافة بالجندى البارز بروز من ذكرنا من القواد . وتعليل ذلك الخمول الظاهرى غير عسير . لقد كانت سنه فى الجاهلية أصغر من أن تأذن له بغشيان الحرب . أما زمن النبوة والخلافة الأولى فكان سداد رأيه وشجاعته الأديبة آثر عند الرسول وعند أبى بكر من شجاعته الحربية . فكان عندهما أظهر فى مقام الرأى والمشورة منه فى مشاهد الجلاذ والطعان . على أن عمر كان من غير شك ذا كفاية حربية ممتازة اكتسبها من حضوره المشاهد مع رسول الله ومن تدبيره قتال الردة مع أبى بكر . وقد أدرك أبوبكر تلك الكفاية وود لو أنه انتفع بها انتفاعاً مباشراً . فيروى أنه قال وهو على فراش الموت : « ووددت أنى كنت إذ وجهت خالد بن الوليد إلى الشام ، كنت وجهت عمر بن الخطاب إلى العراق فسكنت قد بسطت يدي كئنيهما فى سبيل الله » . فقد عده أبو بكر عدل « سيف الله » ورضيعه . وكفى بذلك دليلاً على رسوخ قدمه فى فن الحرب وكفايته فى شئون القتال . فلما ولى عمر الخلافة ظهرت تلك الكفاية أيما ظهور وأثمرت أيما ثمر .

كانت كفاية عمر الحربية من ذلك الطراز العالى الذى يقوم على قوة التصور ، وسلامة الإدراك ، والإحاطة بطبائع البشر أفراداً كانوا أو جماعات ، وعلى معرفة الفرص عند سنوحها والعلم بطرق افتراضها ، ومواجهة الأزمات والطب لها . هذا إلى نشاط جسم ، وعزيمة صارمة ، وذهن نفاذ . وهى صفات لم تجتمع بعد رسول الله لواحد من المسلمين غير عمر بن الخطاب .

وكان لعمر مظهر ومخبر . ويا بعد ما كان بين مظهره ومخبره ! فهو بادى الرأى رجل من أهل المدينة ، ساذج العيش ، يأكل أجشب الطعام ، ويلبس

أخشن الثياب ، وينام حيث يدركه النوم . وسلاحه درته ، ومطيته قدمه ،  
يروح ويغدو كأحد الناس ، لا يفضلهم إلا بأنه أول خدامهم ، وأشبه سادتهم  
بعبدانهم . بيد أنه إذا تأمله المتأمل وقد نصب نفسه لحرب الفرس والروم لرأى  
دون ذلك المظهر ، أحوذيا مشمرا ، قد استحضر في ذهنه ميادين القتال في الشرق  
والغرب . فهو ينتخب الرجال ، ويعي الجنود ، ويرسم المواقع ، ويخطط الخطط ،  
ويبعث رجلا بعينه إلى العراق وآخر إلى الشام وثالثا إلى مصر ، ويأمر بالإقدام  
تارة وبالإحجام أخرى ، وينقل الأمداد من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى  
الشرق ، لا يكاد يستأخر حسابه في ذلك أو يستقدم يوما واحدا . فإذا ما أحكم  
الخطوة وأعد العدة قال لأصحابه في هدوء الواثق بنجح مسعاه : « قد رمينا ملوك  
العجم بملوك العرب . فانظروا عم تنجلي ! » ، فإذا ما أفلح سعيه ، وأثمر غرسه ،  
وجاءه نبأ الفتح والظفر تلقاه في خشوع وإخبات وتواضع تزيد روعة  
وعظمة وجلالا .

ويطول بنا القول لو ذهبنا نقيم البينة على صحة تلك الدعاوى في جميع ميادين  
القتال الذي نشب في أيام عمر بين العرب وبين الفرس والروم . فنكتفي بالتدليل  
على صحتها في مقام واحد : هو وقعة القادسية ( ١٤ هـ ) المعدودة أعظم وقائع  
العرب مع الفرس .

لما اشتد الأمر على العرب بالعراق بعدد وقعة الجسر ( ١٣ هـ ) التي أودت  
بقائدين عريين هما أبو عبيد ثم المشني بن حارثة ، وصمم الفرس على طرد العرب  
من بلادهم ، قام عمر للأمر وقعد واهتم له غاية الإهتمام فكتب<sup>(١)</sup> إلى عماله  
على قبائل العرب وكورهم : « ... ولا تدعوا أحدا له سلاح أو فرس أو نجدة

(١) الطبرى ج ٤ ، ص ٨٢ .

أورأى إلا انتخبتموه ثم وجهتموه إلى . والعجل العجل ! ، . فلما توافقت إليه  
 النجدات حارفيمن يؤمره عليها . وهم أول الأمر أن يسير فيها بنفسه إلى العراق ،  
 ولكن ذوى مشورته ثنوه عن ذلك . ثم وفق إلى رجل لحظ فيه أصالة الرأى  
 وتمام الشجاعة ويمن النقيبة فأمره عليها . روى الطبرى (١) قال : « وكان سعد  
 على صدقات هوازن ، فبعث إلى عمر بألف فارس وكتب إليه كتابا بذلك ...  
 فوافى كتابه مشورتهم ، فقالوا قد وجدته ! قال : من ؟ قالوا : الأسد عاديا !  
 قال : من ؟ قالوا : سعد ! فأنتهى إلى قولهم . فأرسل إليه فأمره على حرب العراق  
 وعقد له على أربعة آلاف معهم ذراريهم ونساؤهم . وأتاهم عمر فى عسكرهم  
 فأرادهم جميعا إلى العراق ، فأبوا إلا الشام ، وأبى إلا العراق ، فسمح نصفهم  
 فأمضاهم نحو العراق ، وأمضى النصف الآخر نحو الشام ، .

« فلما نزل سعد بشراف كتب إلى عمر بمنزله وبمنازل الناس فيما بين غضى  
 إلى الجبانة . فكتب إليه عمر : إذا جاءك كتابى هذا فعشر الناس ، وعرف  
 عليهم ، وأمر على أجنادهم ، وعيهم ، وواعدهم القادسية ، واضم إليك المغيرة  
 بن شعبة فى خيله . واكتب إلى بالذى يستقر عليه رأيهم ، (٢)

ثم يكتب عمر إلى سعد بالمنازل التى ينزلها وبخطة الحرب وبميعاد تحركه ،  
 قال الطبرى (٣) : « وقدم على سعد وهو بشراف كتاب عمر ... أما بعد فسر من  
 شراف نحو فارس بمن معك من المسلمين . . فإذا انتهيت إلى القادسية ... وهو  
 منزل رعيب خصيب حصين دونه قناطر وأتار ممتعة فتكون مسالحك على  
 أنقابها ، ويكون الناس بين الحجر والمدر ، على حافات الحجر وحافات المدر

(١) المصدر نفسه ص ٨٥ .

(٢) » ص ٨٧ .

(٣) » ص ٨٧ .

والجرع بينهما . ثم الزم مكانك فلا تبرحه ، فإنهم إذا أحسوك أنقضتهم ، رموك بجمعهم الذى يأتى على خيلهم ورجلهم وحدثهم وجدهم . فإن أتم صبرتم لعدوكم واحتسبتم لقتاله ونوئتم الأمانة رجوت أن تنصروا عليهم ، ثم لا يجتمع لكم مثلهم أبدا ، إلا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبهم . وإن تسكن الأخرى كان الحجر فى أديباركم فانصرفتم من أدنى مدرة من أرضهم إلى أدنى حجر من أرضكم ، ثم كنتم عليها أجرا وبها أعلم ، وكانوا عنها أجبن وبها أجهل حتى يأتى الله بالفتح ... فإذا كان يوم كذا وكذا فارتحل بالناس فيما بين عذيب الهجانات وعذيب القوادس ، وشرق بالناس وغرب بهم ، .

ثم كتب عمر إلى سعد يستوصفه المنازل والبقاع ويستخبره عن أحوال العدو<sup>(١)</sup> : ... واكتب إلى أين بلغك جمعهم ، ومن رأسهم الذى يلى مصادمتكم ، فإنه منعى من بعض ما أردت الكتاب به قلة على بما هجمتم عليه ، والذى استقر عليه أمر عدوكم . فصف لنا منازل المسلمين والبلد الذى بينكم وبين المدائن صفة كأنى أنظر إليها واجعلنى من أمركم على الجلية ، .

فكتب إليه سعد : والقادسية بين الخندق والعتيق ، وإن ما عن يسار القادسية بحر أخضر فى جوف لاح إلى الخيرة بين طريقين ، فأما أحدهما فعلى الظهر ، وأما الآخر فعلى شاطئ . نهر يدعى الحوض يطلع بمن سلكه على ما بين الخورنق والخيرة ، وإن ما عن يمين القادسية إلى الوجبة فيض من فيوض مياههم ، وإن جميع من صالح المسلمين من أهل السواد قبلى إلى أهل فارس قد خفوا لهم واستعدوا لنا . وإن الذى أعدوا لمصادمتنا رستم فى أمثال له منهم . فهم يحاولون إنغاضنا وإقحامنا ونحن نحاول إنغاضهم وإبرازهم . وأمر الله بعد ما مضى ، وقضاؤه مسلم إلى ما قدر

(١) الطبري ، ص ١٩ - ٩٠

لنا . فكتب إليه عمر : « قد جاءني كتابك وفهمته ، فأقم بمكانك حتى ينغض  
الله لك عدوك ، وأعلم أن لها ما بعدها . فإن منحك الله أذبارهم فلا تنزع عنهم  
حتى تقنحهم عليهم المدائن . »

« ووضع سعد بالعذيب خيلا تحوط الحرير ... ونزل سعد القادسية ، فنزل  
بقديس ، ونزل زهرة بحيال العتيق في موضع القادسية اليوم ... وبعث سعد إلى  
عمر بنزوله قديسا ، وأقام بها شهرا ... ثم كتب إلى عمر : « لم يوجه القوم إلينا  
أحدا ، ولم يسندوا حربا إلى أحد علمناه ، ومتى ما يبلغنا ذلك نكتب به .  
واستنصر الله فإننا بمنحاة دنيا عريضة دونها بأس شديد ،<sup>(١)</sup> »

« وبعث سعد عيوننا إلى أهل الخيرة وإلى صلوبا ليعلموا له خبر أهل فارس  
فرجعوا إليه بالخبر بأن الملك قد ولي رستم بن الفرخذاذ الأرمني حربته وأمره  
بالعسكرة ، فكتب بذلك إلى عمر . فكتب إليه عمر « لا يكربنك ما يأتيك  
عنهم ولا ما يؤتونك به ... وابعث إليه رجالا من أهل المناظرة والرأى والجلد  
يدعونه ، فإن الله جاعل دعاهم توهينا لهم وفلجا عليهم . واكتب إلى في  
كل يوم . »

« .. ولما عسكر رستم بسباط كتبوا بذلك إلى عمر ،<sup>(٢)</sup> « ثم إن سعد بن  
أبي وقاص حين جاءه أمر عمر جمع نفرا عليهم نجار ولهم آراء ، ونفرا  
لهم منظر وعليهم مهابة ولهم آراء .. فبعثهم دعاة إلى الملك ، وكان من أمر  
هذا الوفد العربي ما رواه الطبري من مفاوضاتهم لرستم أولا ويزدجرد  
أخيرا . وهي مفاوضة صورية بطبيعة الحال ؛ وقد انتهت بأن زحف رستم من

(١) المصدر نفسه ج ٤ ، ص ٩١ .

(٢) » » ص ٩٢ .

سأباط إلى القادسية للقاء سعد<sup>(١)</sup> ، والمحرم عام ١٤ هـ .

كانت كفة الفرس هي الراجحة في اليومين الأولين من أيام القادسية ، ثم كان من صنع الله للعرب ، ولطف تديبير عمر أن قدم المدد من الشام في اليوم الثاني وقد زلزل العرب زلزالا شديدا ، فقويت عزائمهم وانتصفوا من الفرس في اليوم الثالث ، وهو المعروف بيوم عماس . قال الطبرى<sup>(٢)</sup> : « وكان يوم عماس من أوله إلى آخره شديدا ، العرب والعجم فيه على السواء ، ولا يكون بينهم نقطة إلا تعاورها الرجال بالأصوات حتى تبلغ يزدجرد فيبعث إليهم أهل النجدات من بقى عنده ، فيقوون بهم . فلولا الذى صنع الله للمسلمين بالذى ألهم القعقاع في اليومين وأتاح لهم بها شتم كسر ذلك المسلمين ،

واتصل القتال ليلة اليوم الرابع ، وهي المعروفة عندهم بليلة الهرير . فلم يتنفس صبح ذلك اليوم إلا وقد انتصر العرب على عدوهم انتصارا عظيما .

قال الطبرى<sup>(٣)</sup> ، وكتب سعد بالفتح ... وكان كتابه : أما بعد فإن الله نصرنا على فارس ومنحهم سنن من كان قبلهم من أهل دينهم بعد قتال طويل وزلزال شديد وقد لقوا المسلمين بعدة لم ير الرايون مثل زهاتها ، فلم ينفعهم الله بذلك ، بل سلبهموه ، ونقله منهم إلى المسلمين ، واتبعهم المسلمون على الأنهار وعلى طفوف الآجام وفي الفجاج . وأصيب من المسلمين سعد بن عبيد القارىء وفلان وفلان ورجال من المسلمين لانعلهم ، الله بهم عالم ، كانوا يدوون بالقرآن إذ جن عليهم الليل دوى النحل ، وهم آساد الناس لا يشبههم الأسود ، ولم يفضل

(١) المصدر نفسه ج ٤٤ ص ١٠٠ .

(٢) » » ص ١٢٦ .

(٣) » » ص ١٤٤ .

من مضى منهم من بقى إلا بفضل الشهادة إذ لم يكتب لهم .

ولما أتى عمر بن الخطاب نزول رستم القادسية كان يستخبر الركبان عن أهل القادسية من حين يصبح إلى انتصاف النهار ، ثم يرجع إلى أهله ومنزله . قال فلما لقي البشير سأله : من أين ؟ فأخبره . قال يا عبد الله ! حدثني . قال : هزم الله العدو ! وعمر يخب معه ويستخبره والآخر يسير على ناقته ولا يعرفه حتى دخل المدينة ، فإذا الناس يسلمون عليه بإمرة المؤمنين . فقال الرجل : فهلا أخبرتني رحمك الله أنك أمير المؤمنين ؟ وجعل عمر يقول : لا عليك يا أخي ، (١) .

ويمكن القارىء أن يدرك الدور الذى قام به عمر فى تلك الواقعة الفاصلة ، فهو مدير رحاها وبطلها على الحقيقة . وقد أدرك الفرس ذلك من فورهم . فيروى أن رستم لما ضرسته الحرب بناها ووطنه بمنسما ، نادى فقال بالفارسية ما تعريبه : ه أنانى صوت عند الغداة ، وإنما هو عمر الذى يكلم الكلاب فيعلمهم العقل . أكل عمر كبدى ، أحرق الله كبده ، (٢) . ولما هم الأعاجم المقيمون بالمدينة أن ينتقموا ممن فتح بلادهم لم يعمدوا إلى خالد ولا إلى سعد ، وإنما عمدوا إلى عمر ابن الخطاب فاغتالوه . ولعمرى لقد كان رستم وأبولؤلوة ومن أمره على قتل عمر أصرح وأشجع ممن جاء بعدهم روافض الشيعة وغلاتهم الذين أسسوا رفضهم عمر على استئثاره بالخلافة ، كأن لم يكن هناك سبب آخر أذعى إلى الرفض وأجل خطرا ؟



(١) الطبرى ج ٤ ، ص ١٤٤ .

(٢) » » ص ١١٤ - ١١٥ .

# دولة الأَكْسَرَة<sup>(١)</sup>

٢٢٦ - ٦٥١ م

لقد شهدت إيران في تاريخها الطويل دولاً إيرانية كثيرة : شهدت في الزمن القديم دول عيلام ، ومادى ، والكيانيين ، والأشخانيين ، والساسانيين . وشهدت في عصورها الحديثة دول الصفويين والزنديين والقاجاريين إلا أن الدولة الإيرانية التي يعظمها الإيرانيون أشد التعظيم ويفخرون بها الفخر كله ، ويرونها عنوان المجد الإيراني والقومية الإيرانية بكل معانيها ، هي الدولة الساسانية ، أو دولة الأَكْسَرَة التي قامت سنة ٢٢٦ م ، وعبرت من الزمان أربعمئة عام تزيد قليلاً .

\*\*\*

والساسانيون ينسبون إلى رجل يسمى ساسان ، كان قياً على بيت نار مدينة اصطخر بإقليم فارس . وقد ولد له ابن يسمى بابك ، نشأ جليداً هماماً ، حريصاً على بعث القومية الإيرانية التي أماتها أو كادت غارة الإسكندر المقدوني على فارس في أوائل القرن الرابع قبل الميلاد ، راغباً في استعادة المجد الذي كان لإيران على عهد الدولة السكيانية العظيمة ، والذي قضى عليه الفاتح المقدوني في عشية وضحاها . وما زال بابك يسعى وتواتيه المقادير ، حتى أنشأ لنفسه ملكاً كانت قاعدته

(١) الثقافة ، العدد ١٤ ، ٤ أبريل سنة ١٩٣٩ .



مدينة (خير) الواقعة شرقي شيراز . فلما توفي خلفه ابنه أردشير (٢٢٦ - ٢٤١) فاقتنى أثر أبيه ، ونزع هزعه في السياسة ، فصار يوسع رقعة ملكه على حساب مجاورية من ملوك الطوائف ، حتى فطن لماآربه كبيرهم أردوان الأشغانيين ، فنهض لحسم الأمر قبل استفحاله ، ولكن أردشير ساجله الحرب حتى قضى عليه في واقعة عظيمة جرت سنة ٢٢٤ م ثم دخل بعد عامين المدائن مظفراً منصوراً . فكان ذلك الفتح ختام عهد الفوضى السياسية التي نشأت عن الفتح المقدوني ومبدأ لعهد مجيد حافل بالأحداث العظام ، هو عهد الدولة الساسانية .

\* \* \*

والمتصفح لتاريخ الدولة الساسانية من أول قيامها إلى أن تضعضت أمورها واختلت أحوالها في أوائل القرن السابع الميلادي يلحظ فيه ظاهرة ماثلة كل المثل ، هي ظاهرة الحروب المتلاحقة ، بل المتصلة ، التي وقعت بينها وبين الدولة الرومانية . وليس من شك في أن تلك الوقائع الجسام ، والخطوب العظام ، إنما هي فصل من فصول تلك المأساة التاريخية الكبرى مأساة الصراع بين مايسمى على سبيل الاصطلاح شرقاً ومايسمى غرباً .

ولقد كانت كفة الدولة الساسانية ، هي الراجحة على وجه الإجمال في ذلك الصراع العنيف . فلم يوغل الروم قط في الحضبة الإيرانية ولاقاتلوا خصومهم في عقر دارهم وصميم ملكهم ، بل كان قصاراهم أن يرددوا الغارة على أرمينية ، وأن تنساح كتابتهم في سهول العراق ، لا يكادون يزيدون على ذلك ، في حين أن الفرس على عهد كسرى أبرويز ( ٥٩٠ - ٦٢٨ م ) أمكنهم أن ينتزعوا من الروم آسيا الصغرى والشام وفلسطين ومصر ، وأن يربطوا في البر الآسيوى تجاه القسطنطينية نفسها ، وأن يحملوا بعض الصليب الأعظم من بيت المقدس إلى

عاصمتهم المدائن . وإلى هذا النصر أشار القرآن الكريم في أول سورة الروم بقوله : « ألم ، غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون ، الآية . ولقد يكون أروع حوادث ذلك الصراع الحاد العنيف وقوع الإمبراطور الروماني وليريان أسيرا في يد سابور الأول ( ٢٤١ - ٢٧٢ ) وذلك عام ٢٦٠ م وقضاء ذلك الإمبراطور التعس بقية حياته أسيرا ذليلا . لقد رجح هذا الحادث الجلل العالم الروماني رجا عنيقا ، كما كان سبب فخر لاحد له للفرس الساسانيين . ولقد استظهر الساسانيون في حروبهم مع الروم بالعرب فأذنوا لهم أن ينزلوا بادية العراق ، ويستقروا بالخيرة في القرن الرابع الميلادي ، وينشئوا بها مملكة الخيرة المشهورة التي نفعت الدولة الساسانية نفعا مزدوجا ، فكانت عوننا لها على الروم ، كما أنها بسطت نفوذها على شرقي الجزيرة العربية وجنوبها . ولقد نهج الروم منهج الفرس فأقاموا من عرب بادية الشام مملكة الغساسنة ، وكان موقفها من الروم موقف الخيرة من فارس سواء بسواء .

على أن المظهر الحربي للدولة الساسانية لم يكن مقصورا على مجالدهم الروم وحدهم ، فلقد كانوا عرضة لهجوم القبائل البدوية الهمجية التي تنزل حدودهم الشمالية الشرقية ، ولكنهم استطاعوا أن يدمروا ذلك بانتصاراتهم العديدة على التتار المعروفين بالهياطة أولا وعلى قبائل الترك أخيرا ، وأن يسيطروا سلطانهم على رقعة واسعة من الإقليم الذي عرف بعد بما وراء النهر .

وإذا صح أنه لا يوجد في هذا العالم خير محض ولا شر محض ، فيمكن القول بأن هذه الحرب على كثرة ما أزهقت من نفوس ، وخربت من بلدان ، وأكلت من مال ، لم تكن شرا محضا ، بل لقد نتجت خيرا كثيرا للفرس أنفسهم وللروم والعرب والترك . فأما الفرس فقد كان من سياستهم بإزاء عدوهم الروماني

أن يفتحوا أبواب بلادهم للمخالفين على الدولة الرومانية من رعاياها . فانتجعت  
أرض فارس نساطرة النصارى الذين اضطهدتهم الدولة الرومانية ، ونزلوها آمنين  
مطمئنين ونشروا فيها العلوم والآداب السريانية المستمدة من علوم الأوغريق  
وآدابهم ، فكان لذلك أثر كبير في رفع المستوى العلمى والثقافى للدولة  
الفارسية الساسانية .

ولما أمر الامبراطور جستنيان ( ٥٣١ - ٥٧٨ م ) بإغلاق مدارس الفلسفة  
بأثينا وإخراج الفلاسفة من ملكه ، لم يكن لهؤلاء العلماء من ملجأ سوى فارس ،  
وقد تقبلهم العاهل الساسانى العظيم كسرى أنوشروان ( ٥٣١ - ٥٧٩ م ) بقبول  
حسن وأذن لهم فى نشر علومهم فى بلاده ، فنشروا فيها مذهب الأفلاطونية  
الحديثة الذى امتزج بالعقلية الإيرانية والخيال الإيراني ، فكان لذلك الامتزاج  
أثر قوى فى ظهور التصوف الفارسى المشهور فى آداب الفرس قديما وحديثا .  
ولقد أخذ الروم عن الفرس الساسانيين أن دينا رسميا واحدا خيرا للدولة  
من أديان متعددة ، فاتخذوا النصرانية ديانتهم الرسمية وهجروا الوثنية ، فكان  
ذلك بدء اعتزاز المسيحية وانتشارها فى الأرض .

ثم أن اتصال العرب بالفرس الساسانيين وقف العرب على أساليب الفرس  
والروم فى الحرب ، كما أظهرهم على معارف ومعلومات دينية لم يكن لهم بها عهد  
من قبل ، فعلا مستواهم الثقافى ، وتهذبت نواحي حياتهم الحشنة الساذجة إلى  
حد بعيد . وما يقال عن العرب يقال مثله عن الترك فإبهم تأثروا بالمدنية  
الإيرانية تأثرا كبيرا إلى حد أن غير واحد من فلاسفة الإسلام الذين نبغوا بما  
وراء النهر لا يدري أصله على التحقيق : أفارسى هو أم تركى ؟ .

\*\*\*

قد ينجل إلى القارىء أن الساسانيين لكثرة خوضهم غمار الحرب مع الروم تارة والترك أخرى ، قوم لاهم لهم إلا الحرب والجلاد ، وأن شأنهم في ذلك شأن الآشوريين والاسبيرطيين والترك العثمانيين . ولكن الواقع ليس كذلك ، فإن عظمة الساسانيين الحقيقية تتجلى زمن السلم أكثر مما تتجلى زمن الحرب .

لقد كان لهم سياسة داخلية مقررة محكمة تدل على أن ملوكهم كانوا رجالا موفوري الحظ من الخبرة العملية بشؤون الناس وعلى علم تام بطبائعهم . فمن أسس هذه السياسة عملهم على التمكين للنظام الملكي في إيران وجعله لا مجرد نظام معرض لعواصف السياسة العاتية وأعاصيرها الهوج ، ولكن عقيدة تملك على الشعب الإيراني لبه وقلبه على السواء ، فألقوا في نفسه أنهم سلالة الملوك السكيانيين العظام الذين كانوا يحكمون في الأرض بتفويض من إله النور آهورا مزدا ، وأنهم ورثة ملك السكيانيين وأنهم إنما يحكمون بهذا التفويض الإلهي ، وأن عليهم وخدمهم سمة الملك وطابع الحكم لا ينتقل ذلك عنهم إلى غيرهم أبدا . وقد عززوا هذه الدعوة بأن أحاطوا الملك بسياج من المهابة والأبهة والعظمة ، يتمثل في تاجه المتألق وسريه العالى وإيوانه المنيف ، وفي احتجابه عن الشعب ، وفي تلك المراسم الدقيقة التي كان يؤخذ بها كل من يسعده الحظ بالمثل بين يدي كسرى ملك الملوك .

ومن الأسس التي عنى بها الساسانيون لمصلحة الملك والرعية على السواء الدين . والدين الفارسي القديم هو الزرادشتية التي ظهرت قبل الدولة الساسانية بأزمان طويلة . والزرادشتية ديانة رمزية تؤله الخير والشر وتأمّر بالخير وتنهى عن الشر . والخير والشر عندها أمران مادبان محسوسان إيجابيان ، فهي تأمر بالعمل والإنتاج والزراعة والتجارة ، وتحث على الزواج والنسل وتعد ذلك خيرا ، وتنهى عن أضداد ذلك وتراها شرا .

ولقد أدرك الساسانيون القيمة العملية للديانة المذكورة فعملوا من أول أمرهم على مناصرتها وجعلها الديانة القومية للأمة الإيرانية ، فأنشأوا في كل مدينة ، بل في كل قرية ، بيوت النار حيث يعبد الناس النار ، مبعث النور الذى هو رمز الخير وطاردة الظلمة التى هى رمز الشر . وقد أدت تلك العناية بالدين الزرادشتى إلى رفع شأن رجاله المعروفين بالمواذبة على سائر رجال الدولة .

فلما ظهر ماني ودعا إلى مذهبه ، وكان مذهبا عدنيا سلبيا يرى الخير فى الزهد ، وعدم الإنتاج ، والامتناع من الزواج والنسل . فإن بهرام الأول ( ٢٧٣ - ٢٧٦ م ) تجرد لمحاربه فقتل ماني ونكل بأصحابه شر تنكيل . وقد قابل رجال الدين الزرادشتى هذا الصنيع من الساسانيين بأن أيدوا سلطانهم السياسى بما لهم على الشعب من نفوذ روحى عظيم .

ومن المبادئ المقررة فى سياسة الساسانيين الداخلية المحافظة التامة على النظام الاجتماعى الإيرانى القديم القائم على الأسرة والملكية ، فلما ظهر مزدك فى أوائل القرن الخامس ، ودعا إلى نخلته الشيعوية الهادمة لنظامى الأسرة والملكية ، وافتتن بها العامة ، فإن كسرى أنوشروان تجرد لمحاربة نخلته ، ففضى على مزدك وأتباعه ، كما قضى من قبل بهرام الأول على ماني وأصحابه .

وأجمل الفضائل السياسية التى كان يتوخى أكاسرة الدولة الساسانية التحلى بها فضيلة العدل . وهى ملحوظة فيهم من أولهم إلى آخرهم ، فقد ورد فى عهد أردشير الأول إلى ابنه قوله : لا ملك بغير جند ، ولا جند بغير مال ، ولا مال بغير زراعة ، ولا زراعة بغير عدل ، فالعدل عنده أساس الملك . وكان أنوشروان يلقب بالملك العادل ، وعلى هذه الفضيلة العظيمة جروا فى نظمهم

التي تتصل بالحقوق والواجبات بوجه عام .

\*\*\*

ونعود فنقول إن أعمال الناس مزاج من الخير والشر . فإذا كانت سياسة الأكارمة تنطوي على خير كثير فإنها للأسف كانت تحمل في ثناياها العناصر التي أدت في النهاية إلى انتقاص أمرهم وضياع ملكهم ، فإن حملهم الشعب على اعتقاد أنهم يحكمون بتفويض من الله على حسب تصورهم له كان لا بأس به إبان قوة الأسرة الساسانية ، فلما اضمحلت ، وعراها الوهن والمهرم من بعد كسرى أنوشروان لم يكن بممكننا أن يقوم رجل قوى فينتزع منهم السلطان ، وينقله إلى أسرة أخرى فنية ناهضة . فإذا حدث أن رجلا قويا حدثته نفسه بذلك لقي الخذلان من الشعب ، على نحو ما حدث لبهرام جوبين في أواخر القرن السادس . ثم إن انتصار الدولة للزرادشتية والمبالغة في رفع أقدار رجالها قد أدى في نهاية الأمر إلى قيام طبقة كهنوتية متعصبة مستبدة لا تعرف الرفق بالناس في مسائل الدين ، ولا التسامح نحو أهل الديانات الأخرى الذين كان منهم بيران خلق كثير .

ثم إن التمسك بنظام الأسرة والملكية على النحو الذي كان عليه دون تعديل يطابق الظروف ، أدى إلى قيام طبقة أرستقراطية قليلة العدد واسعة الثروة كثيرة الامتيازات ، كما قسم الشعب طبقات متحاجة تحاجزا تاما أو غر قلوب الناس بعضهم على بعض . والواقع أن شيوعية مزدك إنما كانت احتجاجا عمليا على ذلك النظام بصورته التي أصبح عليها في القرن السادس الميلادي .

وكان اجتماع هذه العوامل في نهاية القرن السادس مما أوقع الدولة في الفوضى والارتباك ، وهي فوضى يكفي للتدليل عليها أن اثني عشر ملكا جلسوا

على سرير الملك فيما بين عامي ٦٢٨ و ٦٣٢ م ، أى فى نحو أربع سنوات . ومن الاتفاقات العجيبة أنه فى تلك السنوات عينها أخذ العرب يخرجون من جزيرتهم غزاة فاتحين ! فلم يقو صرح الأكامرة المتداعى على صدماتهم العنيفة فى ميادين القادسية وجلولاء ونهاوند . وقضى آخر الأكامرة وهو يزدجرد بن شهريار بقية أيامه شريدا مطردا إلى أن اغتيل على يد رجل من أحقر رعيتة عند مدينة مرو عام ٣١ هـ ( ٦٥١ م ) ، فذهب بمصرعه على هذه الصورة المؤلمة مثلا واضحا لجحود العامة وغرور الحياة .

\*\*\*

على أن الدولة الساسانية لم تذهب إلا بعد أن أدت واجبها من حيث هى دولة عظيمة . لقد أقامت بيران معالم حضارة رائعة ، لاتزال آثارها شاهدة بروعتها ، كما أنها ثقفت الشعوب المجاورة لها ، وبخاصة العرب والترك ، وهياتهم للقيام بدورهم التاريخى العظيم . وهى التى علمت الروم أن وحدة الدين خير فى السياسة من تعدده ، وقد علم الروم ذلك وعملوا به ، فكان من وراء ذلك الخير كل الخير للنصرانية . وأخيرا فإن دولة الأكامرة الساسانية بنظمها وسياستها وإدارتها وحياتها العامة ، كانت المثل والقذوة للسلمين فى عصرهم العباسى العظيم .



# (١) فتح العرب لمصر

تأليف الدكتور ألفرد ج. بتلر

و ترجمه محمد فرید ابو صمد

سمعت مرة أستاذنا الجليل أحمد لطفي السيد بك يقول ما معناه : أننا الآن في دور النقل والتعريب من حياتنا العلمية ، وهو قول لاغبار عليه ، فإن زمن الإقتصار على تراثنا العلمي والأدبي القديم قد انقضى منذ عهد بعيد ، وزمن الابتكار في العلم والأدب لم يأت بعد ، وينبغي أن يتقدمه زمن نتوفر فيه على نقل أصول العلوم والفنون والآداب الغربية إلى لغتنا العربية إقتداء بما فعل السلف الصالح في صدر الدولة العباسية .

إننا بهذا التوافر نبك في حياتنا العلمية روحا جديدا ، ونكسبها مادة جديدة وأسلوبا في البحث والعرض العلمي جديدا ، ونكون قد مهدنا للحياة العلمية المستقلة وأعدنا لها أساسا قويا راسخا لا يخشى عليه من تطاول البنيان ومرور الزمان ، ونكون قد أدينا واجب العلم والوطن والإنسانية جميعا .

لكن الترجمة الصحيحة عبء ثقيل مضمّن يقتضى كثيرا من الجهد والتضحية . فهي من ناحية المترجم تطلب غزارة علم وأدب وإنكارا شديدا للذات ، يستعذب معه المترجم أن يكون أسيرا للوئاف الذي ينقله ، وقليل من الناس

(١) نشرت بالعدد الخامس من الرسالة ( السنة الأولى ) ١٥ مارس ١٩٣٢



من يصبر على مثل هذا العناء . ثم هي تقتضى من ناحية الناشر ، وبخاصة في بلدنا هذا ، أن يوطن نفسه على الخسارة المادية التى تصيبه مما ينشر ، فإذا استطاع أن يخرج من الأمر كفافا لا عليه ولا له فحسبه ذلك .

والناشر بعد تاجر يقيس قيمة الكتب بالفائدة المادية المرجوة منها ، فإذا يحمله على أن يعرض ماله للضياع ؟

من أجل ذلك كسدت سوق الترجمة فى بلدنا . وتأثرت حياتنا الأدبية بهذ الكساد تأثرا شديدا ، حتى أصبحت لا شرقية ولا غربية ولا قديمة ولا حديثة . ولكن الحمد لله ، فقد أخذت هذه الحال تؤذن بالتحول والزوال . وآية ذلك ما نسمعه عن التفكير فى وضع قاموس عربى جديد يجمع شتات اللغة التى أصبحت إلى حد بعيد سماعية غير مدونة . ومن آيته أيضا ما ترجم فى السنوات الأخيرة من غرر أدب الغرب وعلمه ، نذكر من هذه الغرر على سبيل المثال : كتاب الجمهورية لإفلاطون ، وكتاب الأخلاق ، وكتاب السكون والفساد ، ونظام الآئينين وآلام فرتر لجوته ، وفاوست له أيضا ، والشاهنامة للمفردوسى ، وأصل الأنواع لدارون . ثم كتاب فتح العرب لمصر وهو الذى سقنا هذه المقدمة تمهيدا للتعريف به أصلا وترجمة .

\*\*\*

ألف كتاب « فتح العرب لمصر » منذ ثلاثين عاما بجائنة إنجليزية هو الدكتور ألفرد ج . بتلر . ونقله إلى العربية منذ عام صديقنا الأستاذ محمد فريد أبو حديد ، ثم نشرته فى هذه الأيام لجنتنا المباركة لجنة التأليف والترجمة والنشر . والكتاب يقع فى قرابة ستائة صفحة مكسورة على ثلاثين فصلا وبضعة ملحقات . فى الفصول الأربعة الأولى يعرض المؤلف الحال السياسية للدولة الرومانية فى

أوائل القرن السابع الميلادي . ويتكلم عن الثورة التي انتهت بأن أصبح هرقل  
عاهل الدولة المذكورة ، وفي الفصل الخامس والسادس والسابع والثامن والتاسع  
يتكلم على غزو الفرس الشام ومصر ، فنهضة هرقل واسترداده الإقليمين  
المذكورين ، وعقده مع الفرس صلحا أعاد إلى الروم شرفهم العسكري ، فالحال  
الادبية للإسكندرية خاصة لذلك العهد . وفي الفصل العاشر والحادي عشر والثاني  
عشر والثالث عشر يتكلم على ظهور الإسلام . وفتح العرب الشام ومصر ،  
واضطهاد قيرس البطريك الملكاني للأقباط في السنوات العشر السابقة على الفتح .  
ومن الفصل الرابع عشر إلى الثالث والعشرين يفصل المؤلف الكلام على  
حوادث الفتح العربي لمصر . فيتكلم على زحف عمرو بن العاص على مصر وبلوغه  
مدينة مصر ، فغزوة الفيوم ، فواقعة عين شمس ، فحصار حصن نابليون وأخذه ،  
فالزحف على الإسكندرية والاستيلاء عليها ، فأخذ المدن الساحلية الشمالية ،  
فانتهاء السيادة الرومانية على مصر . ومن الفصل الرابع والعشرين إلى الثلاثين  
يتكلم المؤلف كلاما ممتعا موضوعه حال الإسكندرية وقت الفتح ومكتبتها  
المشهوره ، وحريق هذه المكتبة المنسوب إلى عمرو ، وغزو عمرو لبرقة  
وطرابلس ، والنظام الإداري الإسلامي الذي وضع لمصر عقب الفتح . ثم يتبع  
المؤلف هذه الفصول بملحقات حقق فيها بصفة خاصة ، شخصية المقوقس ،  
والترتيب الزمني لحوادث الفتح العربي ، والكتاب إلى جانب ذلك مزود بخرائط  
ورسوم تعين على فهم موضوعه .

من هذا العرض يتبين القارىء أن المؤلف قد أحاط بموضوع الفتح العربي  
لمصر أتم الإحاطة ، واستوعب وقائعه كل الاستيعاب ، والحق أن الدكتور  
بتلر قد جلا موضوعا من أوعر موضوعات التاريخ الإسلامى ، وحل كثيرا من

الغازه : أوضح شخصية المقوقس ، وكانت غامضة ، ورتب حوادث الفتح ترتيباً أوفى إلى الصحة منه في أي مصدر قديم . وأتى بالقول الفصل في حريق مكتبة الاسكندرية ، وبين وجه الخلاف القديم في فتح مصر ، أصلها أم عنوة ؟ على أن الكتاب يؤخذ بنقص جوهرى واحد . ذلك أن المؤلف عنى بالجانب السياسى والدينى فقط من حال مصر قبيل الفتح وأغفل شئونها الإدارية والإقتصادية ، على ما كان لها من أثر قوى في سهولة انتقال مصر من حكم الروم إلى حكم العرب . ولقد ظهر في هذا الموضوع في العشرين سنة الأخيرة بحوث قيمة كنا نود لو أن الكتاب طبع طبعة ثانية تضمن نتائجها . من هذه البحوث : النظام العسكرى لمصر البيزنطية ، لجان ما سبرو . و الإدارة المدنية لمصر البيزنطية ، لجرمين رويارد .

ثم أننا لا نوافق المؤلف على تصويره لغارة عمرو على الفيوم ، فهو يرى أن عمراً عندما بلغ رأس الدلتا ورأى قلة من معه من الجنود وخرج موقفه بين جنود الروم جنوباً وشمالاً ، أرسل إلى الخليفة عمر بن الخطاب يستمده ورأى في الوقت نفسه أن يشغل جنده ويستنقذهم من الخطار ريثما يصل المدد ، فتكلف عبور النيل إلى شاطئه الغربى ، وأغار على الفيوم ثم عاد فعبر النيل ثانية ، فوجد المدد قد قدم من المدينة . لاشك أن هذه طريقة غريبة جداً في الخلاص من المواقف العسكرية الحرجة ، ثم هى لا تأتلف بحال مع ما عرف عن عمرو من شدة الدهاء وبعد المسكيدة . يضاف إلى ذلك أن المصادر العربية من حيث هذه الغزوة نوعان : فنوع لا يعرفها بالمرّة ، ونوع يعرفها ، ولكنه يوردها على صورة تجعلها أقرب إلى المعقول من الصورة المذكورة ، ومع ذلك لم يعتمد عليها المؤلف واكتفى بمتابعة يوحنا النقيوسى بحجة أنه أقدم عهداً من كل المصادر

العربية ؛ ولكن القدم وحده لا يكون دائما دليلا على صحة المصادر التاريخية .  
كذلك يؤخذ على المؤلف حكمه في الفصل الحادى عشر بأن غزوة تبوك  
المشهورة كانت فشلا لأنها لم تؤد إلى ما كان الرسول يرى إليه بها من مصادمة  
الروم ، والحق أنها أدت إلى ما كان النبي ﷺ يرى إليه من شد سلطانه السياسى  
على شمال الحجاز . بقيت ملاحظة يسيرة : لقد توهم المؤلف أن مسيلة المتنبى  
ظهر باليمن ( ١٢١ ) والصحيح أنه ظهر باليمامة .

ومع ذلك فهذه الملاحظات لا تنقص من قيمة الكتاب العامية وحسب  
القارىء أن يعلم أن الدكتور بتلر قد أقام فى كتابه تاريخ الفتح العربى لمصر على  
أساس علمى متين ، وأنه إلى الآن لم يظهر فى ذلك الموضوع كتاب آخر يداينه ،  
فضلا عن أن يفوقه .

أما الترجمة العربية لكتاب فتح العرب لمصر فأحب قبل كل شىء أن  
أهنى صديقى فريدا على توفيقه فيها أخلص النهشة ، فقد جاءت صورة صادقة  
للأصل مطابقة له فقرة فقرة ، وجملة جملة ، هذا مع سهولة العبارة وسلاستها  
ووضوحها ، مما يشهد للأستاذ فريد بالبراعة فى صناعة الترجمة ، ولكن ليت شعرى  
أى مترجم ولو كان الأستاذ فريد نفسه يترجم زهاء الستائة صفحة ثم لا يهفو  
قلبه ولا ينحرف عن الأصل الذى ينقل عنه يمنا أو يسرة ؟ على هذا الاعتبار  
أهدى إلى الأستاذ فريد هذه الملاحظات اليسيرة .

جاء فى صفحة ٢٥ هذه العبارة . ( النذر اليسير ) وصوابها ( النزر ) بالزاي  
المعجمة ؛ وفى ص ٢٧ عرب اسم المستشرق المشهور De Goeje بـ ( دى جويجة )  
وصوابه ( دى غويه ) ؛ ووردت فى صفحة ٢٧ أيضا كلمة ( المونوفيسية ) وأحسن  
منها أن يقال ( المذهب يعقوبى ) ؛ وجاء فى ص ١٢٣ ( هزيمة تبوك ) بدلا من

( فشل غزوة تبوك ) وهو المقابل للأصل . وفي ص ٨٣ ترجمت Theology  
 ( بالفقه ) وصوابها ( اللاهوت ) ؛ وجاء في ص ٢١٨ تسور الزبير إلى الحصن  
 والصواب أن يحذف حرف الجر . وفي ص ٢٢٨ ترجمت Drawbridjes  
 بـ ( قناطر ) وأصح من ذلك ( جسور ) ، لأن العرف جرى بإطلاق اللفظ  
 الأول على البناء الثابت الذي يعقد فوق الأنهار ، وهو غير المراد من اللفظ  
 الانجليزي . وجاء في ص ٢٥٥ : وكانت « مسلحة » المدينة بدلا من : وكانت  
 « حامية المدينة » . وفي ص ٤٠٦ : وقال عن ( النواوى ) وصوابه ( النووى )  
 بدون ألف المد .

على أن هذه الملاحظات أيضا لاتضر الترجمة شيئا : وإذا كان الكتاب مثالا  
 يحتذى من حيث دقة البحث العلمى فترجمته العربية مثال ينسج على منواله من  
 حيث أمانة النقل وصحة التعبير ؟



## على ساحل بحر الروم<sup>(١)</sup>

إن عهدى ببحر الروم بعيد ليس بالقريب ، فلعشرات من السنين خلت  
أذكر أنى كنت بمدينة الاسكندرية ، وأنى كنت طفلا عليل الجسم رمد العينين ،  
قد أعيا نطس الأطباء علاجه ، وحرار في أمره والداه أشد الحيرة . وأخيرا  
وصف الواصفون لوالديه رحمة الله عليهما ماء البحر المالح ، وقالوا لها أنه ينفع  
طفلهما المريض . فكان أكبر إخوتي يقتادنى كل صباح إلى ساحل البحر من  
« حى الأنفوشى » ، فيدفعنى فى الماء إلى حيث تغمر لجته ساقى الناحلتين ، ثم يجعلنى  
أنضح وجهى بالماء الملح بحيث يتخلل جفونى الرمدة . وربما تجرد هو بعقب  
ذلك من ثيابه فعبث فى الماء بعد أن يكون قد استسكمتنى ذلك عن والدى .  
وربما قضينا بعد ذلك كله بعض الوقت نعبث بالرمل أو نلتقط من صخور  
الساحل بعض ما علق بها من الأصداف .

تم تأذن الله بذهاب المرض عنى وعود الصحة إلى . ولست أشك فى أن  
الفضل فى ذلك يرجع إلى ماء البحر ، وهوائه ، وشمسه ، وإلى الحرية التى كنت  
أنعم بها على ساحله . ومهما يكن من الأمر فقد نشأت على حب البحر ؛  
واعتقاد أنى مدين له فى صحتى وعافيتى وحياتى كلها . وهما حب واعتقاد لم تزد هما  
الأيام إلا رسوخا فى نفسى وتمسكنا من قلبى .

\*\*\*

(١) مجلة الرابطة العربية ، العدد ١٢١ ، أكتوبر ١٩٣٨ .

ودارت الأيام ، فإذا أنا تلميذ بمدرسة رأس التين ، أغدو إليها كل صباح وأروح منها كل مساء . فكنت أجعل طريق غدوى إليها ورواحي منها على البحر ، لا أكاد أعدل عنه إلا مضطرا . وإن أنس لا أنس ما كانت تحتلى عيناى فى تلك الأيام من البحر فى مختلف حالاته وتنوع منظره . فتارة هو ساج ساكن كصفحة المرأة ، وتارة هو هائج مضطرب يرمى بموج كالجبس ، وأخرى هو بين بين ، فليس بالساجى ولا الهائج المضطرب . ولقد كان البحر فى تلك الأيام يهدى بتعدد صورته وتنوع منظره إلى فسكرة الغض وخيالى الناشئ . ضروبا من معانى الروعة ، والقوة ، والحركة ، واللانهاية .

كان مبلغ حظى من البحر فى ذلك العهد أن أسير وساحله ، وأن أنعم بالنظر إليه ، لا أتجاوز منه غير ذلك . فقد كان أبواى يحذرانى الدنو منه فضلا عن التورط فى لجته . وكانا يلقيان فى روعى أن فى البحر كائنات خفية تحتطف الأطفال الذين يجرءون على نزوله . فلها ترعرعت بعض الشئ . كانا يقصان على نبأ التيارات الخفية التى تذهب بالأولاد المجازفين إلى حيث لا يعودون .

ولم يكن يعمر ساحل البحر فى ذلك الزمان إلا طوائف من الناس يعملون فى البحر ، من سفانى السفن ، وصيادى السمك ، ونساجى شباك الصيد ، وإلا أوزاع من الشبان العاطلين من العمل ، يغشون ساحل البحر لتزجية الوقت ، أو للتشاجر على عادتهم أيامئذ ضربا باليونيات والروسيات ، وتضاعنا بالمدى والسكاكين أحيانا .

\*\*\*

ثم دارت الأيام دورة أخرى ، فإذا بي قد أتممت دراستى ، وبلغت مبلغ الرجال ، وارتفعت عنى رقابة والدى ، وإذا بسواحل الاسكندرية قد قامت على

حافاتها المصايف والحمامات والملاهي والمقاهي .

وكنت لما قدمت من الأسباب لم أتعلم السباحة بعد . فوطنت النفس على استدراك ما فاتني من ذلك زمن الطفولة . وأردت الإستعانة فيما قصدت بكتاب انجليزى فى فن السباحة ، ولكن الكتاب لم يسعبنى ، فاستعنت بصديق كريم عليم بذلك الفن . وماهى إلا أسابيع معدودة حتى حذقت أن أمسك جسمى فوق سطح الماء ، ثم أن أحرك أطرافى جيئة وذهابا ، ثم أن أقذف بنفسى فى الماء من عل ، وأن أغوص تحت لجته أخيرا . ومن ذلك الوقت صار البحر متعة نفسى وبهجة قلبى وبخاصة زمن الصيف . فكنت أعشى الحمامات مقيدها ومطلقها . فى الحمامات المقيدة حيث لا يباح اختلاط الجنسين فى مكان واحد كنت أعنى بتقوية جسمى وتقويمه ، وتشذيبه وتهذيبه ، عملا بالحكمة الفرنسية القائلة إن كل مجهود ينفقه الشاب فى تقوية جسمه يكسبه قوة أديبة . وفى الحمامات المطلقة حيث يباح استحمام الجنسين فى مكان واحد كنت أروض عيني على تعرف مواقع الحسن والقبح من جسم الإنسان . وكان رائدى فى ذلك ما لفته إبان الدراسة من كتب الفن والأدب . فكنت وأصدقائى عند كل مناسبة نتمثل شيئا مما أثر فى الغزل والنسيب عن امرئ القيس ، وابن أبى ربيعة ، وأبى تمام ، والبحترى وغيرهم . وقد نتذاكر آلهة الجمال عند اليونان والرومان ، وتمائيل فدياس وشخصيات شكسبير ، وصور ميشيل انجلو وغيره من أئمة الفنانين .

والحق أنى لم أدرك إلا على ساحل بحر الروم جمال الجسم الإنسانى الذى هو أصل الفنون وملهمها وموجيها ، وبدايتها ومنتهاها .

\*\*\*



ثم مضت أيام ، وتقضت أعوام ، فإذا بي أعلم في بعض الجامعات ، وإذا  
بي زوج ورب بنين وبنات . وإذا العاطفة المشبوبة قد هدأت ، والعين الخائنة  
قد أرعوت ، وإذا العقل هو الآخذ بالزمام ، وعليه المعول وإليه الاحتكام .  
جلست في يوم من أخريات صيف هذا العام على سيف البحر من رمل  
الاسكندرية . فلم يستهوني هذه المرة ما كان يستهويني من قبل ، من جسوم شبه  
عاريات كالدمى ، مرموقات كالمنى ، أنا تصافح الموج وتلاعبه ، وأنا تخوضه  
وتخالطه . وطوراً ينتظمها الرمل ، فلولا الحياة لخلتها تماثيل من عاج مكفومة ،  
وطوراً يتوزعها الصخر ، فسكأنما هي قطع الرياض المطورة ، وأنا هن بين  
الحالين ، يخطن رائمات غاديات ، آنسات نافرات ، قريبات بعيدات .  
كلا ! ولم تأخذني هذه المرة روعة البحر ، وهو الذى طالما فتنت روعته  
خاطرى وسحرت لبي ، والذى له على من الفضل ما أنا عاجز عن شكر بعضه  
فكيف بشكره كله ! وإنما عراني ما يعرفو الأساتذة المحنكين ، وإن شئت فقل  
السكرهول المجر بين ، من ميل إلى التفكير ونزوع إليه عند كل مناسبة وحين  
لا مناسبة . فذهبت أفكر كأنما أنا وحدى بذلك الساحل ، وكأنما الساحل  
قد خلا من أسباب الفتنة ودواعى الهوى .

سبحانك اللهم ! هذا بحر الروم مهد الملاحة عند آبائنا الأولين . هذا بحر  
الروم الذى قامت حوله حضارة مصر ، وبابل ، وفينيقية ، واليونان ، والرومان ،  
والعرب ، وهى الحضارة التى ترتكز عليها حضارة العالم الحديث وإن جحد  
الخلف فضل السلف . هذا بحر الروم أجل بحار الأرض شأننا وأبعدها أثرا فى  
التاريخ ، قديمه ، ووسيطه ، وحديثه ، ومعاصره .

هذا البحر يقال إن مصر تملك من سواحلها ما يقدر ذرعه بمئات الأميال ،

ومع ذلك فليس لها فيه سفن تجارية تعتملها زمن السلم، ولا أسطول حربى ينافح عنها إذا جد الجد، وعظم الخطب .

ولا يظن ظان أن تلك الحال طبيعية، بل هى مقصودة متعمدة . فإن البحر باب عظمة الأمم وطريقها، وما من أمة عظم شأنها وعلا نجمها إلا كان البحر سلها إلى المجد وسيلها إلى النبوغ . وحذاق المؤرخين يرون البحر قسيم البر فى تنشئة الدول ورفع عمادها . ولئن خفيت تلك الحقيقة على محدثى المشاركة فقد أدركها مستعمرو بلادهم فحرصوا على أن تكون مفااتيح الشرق بأيديهم، وتركوا الأهل البلاد ما وراء ذلك من رمال يتمرغون عليها وأوحال يضطربون فيها . وإن نظرة عجلى يلقىها القارىء على خريطة الشرق لسكفيلة بأن تثبت له صحة هذه الدعوى . فما من مرفأ منيع ولا مرسى أمين، من لندن طنجة بأقصى المغرب إلى سواحل الصين بأقصى المشرق، إلا وهو بأيدي المستعمرين الغاصبين .

لقد غدوت يابجر الروم لا تقترن فى أذهان شبابنا إلا بذكر الحمامات والملاهى، والمصايف والمقامى الفتى ياترى تصبح مقترنا بذكر الأسفار الطوال، والوقائع الجسام، إن كان ولا بد من وقائع جسام؟ متى تضعون أيها المصريون أيديكم على سواحلكم حقا وتستغلونها حقا، فتصبحوا أمة ملاحين، إلى جانب كونكم أمة فلاحين؟ لقد استرهنكم المستعمر الأراض ووضع فى أعناقكم أغلالا وفى أقدامكم قيودا . ولا خلاص لكم من ذلك الرق المضروب عليكم إلا بركوب متن البحار . هنالك تنشقون فوق ثبج الماء ربح الحرية الصحيحة، وتبرأون من علل وأدواء أورثكموها لزوم البر أحقابا طوالا، هنالك تنبعث مصر الحرة حقا، مصر الحديثة حقا، مصر العظيمة حقا .

ولقد كنت أسترسل في تفكيري هذا لولا أن قطعه على ابني الصغير بقوله !  
لقد ابتعد الجو ، وكادت الشمس تغرب ، فهيا إلى المنزل ! وانتهت ، فإذا الأفق  
الغربي قد أحالته الشمس الغاربة لها مضطربا ، وإذا الأفق الشرقي قد أخذ  
يتلفف في غلالة سوداء . ثم جعلت ظلمة المشرق تشتد وتمتد حتى استحال الأفق  
كله ظلاما في ظلام . وتألف من ظلام الجو وهدير البحر منظر يبعث في النفوس  
الوحشة والرهبسة . هنالك نهضت فاقنعت أولادي نحو المنزل وأنا أردد قول  
القائل :

للدهر لو كنت تدري هول منطقه      لحن تردده الأصال والبكر



## شعراؤنا وسيدنا عثمان<sup>(١)</sup>

أبت الأقدار إلا أن يشقى بالخلافة سيدنا عثمان في حياته وأن تشقى بها ذكراه بعد مماته . فقد تولى الخلافة بعد عظيم من عظماء الأمة العربية فاستقامت له الأمور ست سنين ثم اضطرب بحر السياسة وهبت أعاصير الفتنة من كل جانب ، فلبث يغالبها وتغالبه ست سنين أخرى ، ثم طأطأ لها من هامته ومضى مقتولا شهيدا ، فكان أول خليفة سفك دمه جهارا ، وانصدع بمقتله شمل الأمة الإسلامية انصداعا لم يليئم حتى يومنا هذا .

عابوا عليه لينه وإيثاره مع هنات أخر، ولو أنصفوا لعدوا عثمان من أولئك الرجال الذين لطف مزاجهم الأخلاقي وترقرق ماء الحياء في وجوههم وأصبحوا بعيدين عما تتطلبه مآزق السياسة ومحرجاتها من جراءة وإقدام . وإن كان لين الرجل لم يكن عن جبن في النفس وخور في الطبيعة : فقد نصر النبي في كثير من المواقف الحرجة وثبت يوم الدار والموت يتوثب عليه من كل جانب وما رعدت له فريضة ولا اضطرب له جنان .

فلما مضى لسبيله كان خلفه بطلا من أبطال العرب ذا فصاحة وشيعة تتعصب له وتذمى على مخالفيه . والناس عامة يتعجبون بالمتهجمين من السواس والمشهورين من أبطال الحروب ومساير القتال ويتشوقون سماع أخبارهم وقراءة سيرهم ، ولكنهم لا يحرصون كثيرا على مطالعة سير الأنبياء والقديسين والعلماء

(١) السفور ، العدد ١٧٦ ، ٣١٤ أكتوبر سنة ١٩١٨ .

والأخلاقين وكان ذلك نزوع منهم إلى معيشة آبائهم الأولين أيام كان للشجاعة الطبيعية الشأن الأكبر في حياة الإنسان .

من أجل ذلك نرى أن عثمان الحي الوجه، الرقيق الطبع، الدمث الخلاق، قد أصبح بينه وبين سابقه ولاحقه تباين في نظر الجمهور كبير . فلا هو في شدة عمر وصرامته ، ولا هو في جرأة على وإقدامه، فكان كواد بين جبلين تتخطاه أنظار المتحمسين من المؤرخين، كما تتخطاه أنظار المتحمسين من شعرائنا . وإن كان واديا يجرى فيه الماء العذب وينبت على جانبيه غض الزهر ويانع الثمر .

قرا أنا ، البردة ، و نهج البردة ، و كشف الغمة ، و العمرية ، و البكرية ، و لبثنا حيننا نتوقع قراءة العثمانية ، فإذا بنا في شهر وبعض شهر نقرأ ثلاث ، علويات ، طوال ، فعبجنا من متابعة شعرائنا للرأى العام حتى في اختيار الموضوعات الشعرية .

إذا كان التاريخ يخطئ عثمان فإن الشعر يعطف عليه العطف كله . وإذا كان المؤرخ يستخلص العبرة من عصر عثمان فإن الشاعر يجد فيه كثيرا مما يهمه خاصة من محرك للعواطف ومستفز للقلوب؛ ولعلنا لانجد في التاريخ كله موضوعا أروع وأدعى إلى أن يكتب فيه الشاعر الفيلسوف والكاتب التمثيلي والعالم الإجتماعي من موضوع الثورة التي انتهت بمقتل عثمان بن عفان . ولو انا ارتجعنا الأيام الخوالي وألقينا نظرة تنفذ قلوب الناس أيام تلك الثورة وتستقرى وحى غرائهم لرأينا منظرا عجبا :-

فهذه روح الجاهلية الأولى، روح الخلاف والشقاق، ترفع من رأسها مناهضة روح الدين الجديد، روح التضامن والاتحاد . وهذا الباطل يتغلب حيننا على الحق . وتنجم رؤوس الفتنة في الكوفة والبصرة ومصر، ثم تندفع من هذه النواحي

الثلاث شطر حاضرة الخلافة فتستحكم - حلقها بالمدينة حول دار عثمان . وهذا  
التخاذل يدب إلى قلوب النصاراء كما يؤلف التناصر بين قلوب الاعداء . وهذا  
عثمان نفسه يطل على الثوار وينصح لهم؛ ولكن أنى لصوته الخافت الضعيف أن  
يعلو ضوضاء الجماهير وقعقة السلاح . ثم يشهد الخطب ويعظم البلاء ويمنع  
خليفة الإسلام الماء . ولكن القوم الذين بلغوا من التدنن والندالة مكانا قريبا  
أبو إلا أن يذهبوا إلى أبعده منه . لقد اشتمت الذناب الضارية ربح فريستها  
وهيئات أن تصرف أو تلغ في دمها وتطعم من لحمها . هاهم أولاء يحرق بعضهم  
على عثمان باب داره ، في حين أن بعضا آخر يتسور الجدران ويقتمح الدار .  
وماذا يرون ؟ يا لله ! يرون شيخا فات السبعين من عمره ، أعزل من  
السلاح قد اتحنى مكانا من غرفته الهادئة يقرأ القرآن ، وبالقرب منه زوجه  
ناثلة بنت الفرافصة ، تؤازره في بلواه . فما يتخشع المجرمون لذلك المنظر  
الساذج المهيب ، بل يتقدمون إليه بأقدام ثابتة ويعملون فيه سلاحهم . حتى إذا  
همت الزوجة البارة بالذود عن زوجها لم يتخرج أحدهم أن ينفخ يدها بالسيف  
نفحة أظنت أصابعها . وهكذا احتسى القوم كأس الندالة حتى الصباية . ثم أبوا  
شر مآب؛ على أن الرواية لم تتم فصولا : فالحروب الطاحنة التي انتشبت بعد بين  
المسلمين إنما كانت انتقاما عدلا للخليفة المظلوم . لقد تفرقت جماعة الأمة ، ويد  
الله إنما تكون مع الجماعة ما دامت مجتمعة ، فإذا تفرقت فيد الله عليها تذيها  
وبال تفرقها .

تلك عظة بالغة ومجال للشعر قد لا نجد له مثيلا غير مقتتل يوليوس قيصر  
في الزمن القديم ، ومقتل قيصر روسيا في أعماق سيبيريا في أيامنا هذه ؟

## أبو ذر الغفاري

العربي القديم من أبسط الناس طبيعة ، وأوضحهم سريرة ، وأصرحهم لسانا ، وأشدهم استمساكا بما يراه الحق ، وأعظمهم حمية أن يجرى عليه ذل أو ضيم . ثم هو من أكثر الناس قناعة ، وأرضاهم من حطام الدنيا بالسكفاف . ذلك الخلق ، الذي قد لا ترضى عن بعض نواحيه النظريات الأخلاقية الحديثة ، يرجع إلى البيئة الطبيعية والاجتماعية التي نشأ العربي في حجرها وصيغ على مثالها . فالبادية محدودة الحاجة ، ونظام القبيلة الاجتماعي إنما هو نظام الأسرة مكبرا . وكل للناس من فضائل هي وليدة بيئتهم ، وإن شئت فقل : كم من فضائل الناس ما هو مرزوق غير مجلوب ، وموهوب غير مكسوب .

ولقد جاء الدين الإسلامي مطبوعا في جملته بالطابع العربي ، موسوما بسمته ، قد سلك إلى الحقيقةين الدينية والاجتماعية أقرب السبل ، وعبر عنهما أوجز تعبير وأبلغه . فهو من ناحية يأمر بالتوحيد المحض ، ومن ناحية أخرى يأمر بالتسوية بين الناس في الحقوق العامة ، وبالأخذ من الدنيا بحساب .

ولكن شاء الله أن ينبعث العرب من جزيرتهم غزاة فاتحين ، وأن يحووا مواريث أمم التبس عليها أمر الحقيقةين المذكورتين ، فلم يلبث العرب أن تأثروا بتلك الأمم وانتقلت إليها أدواؤها وأصابعهم ما أصابها من لبس واضطراب . فأما الحقيقة الدينية السهلة فقد صيرها غلاة الفقهاء والمتكلمين ، وأهل الأهواء

(١) الرسالة ، أول فبراير سنة ١٩٣٣ .

والنحل ، أمرا صعبا مستصعبا ، له ظاهر وباطن ، وقريب وبعيد .

ليس من موضوعنا أن نفيض فيما طرأ على الحقيقة الدينية في صدر الإسلام ، ولكن موضوعنا مقصور على ما عرى الحقيقة الاجتماعية فنقول إن هذه أيضا قد ضل عنها رجال السياسة ضلالا بعيدا . فأفسدوا بضلالهم النفس العربية الساذجة ، وأبدلوها بالزهد في الدنيا شغفا بها ، وتهالكوا عليها . نعم إن أبا بكر وعمر أنفقا جهدا غير يسير في سد ذرائع هذا الخطر ، وبدءا في ذلك بأنفسهما . فكانا مضرب المثل في القناعة والزهد وخشونة العيش . وحاول ثانيهما أن يحمل الناس على القصد والاعتدال ، فلم يقسم بينهم الأرض المفتوحة عنوة ، ثم زاد ففتح قريشا من الخروج إلى البلدان المفتوحة إلا باذن وإلى أجل . فلما شكوه خطبهم خطبة قال فيها تلك المقالة التي تفيض قوة وتصميا :... ألا وإن قريشا يريدون أن يتخذوا مال الله معونات من دون عباده ، ألا فأما وابن الخطاب حتى فلا ! إني قائم دون شعب الحرة فأخذ بمحلامي قريش وحجزها أن يتهافتوا في النار . فلما ذهب عمر لسيدله وولى عثمان تنفست قريش وسرى عنها ، وأقبلت تستغل لين ذى النورين وحياءه الجم ، فانطلقت إلى الأمصار تقتني المال الوافر والعقار الواسع والإقدمات المترامية على ضفاف دجلة والفرات والنيل ، وتملك أرضا هي بحكم نظام عمر وقف على عامة المسلمين يشتركون جميعا في غلته . فأثرت قريش وربلت ، وصارت إلى رفاغة عيش لم تلها من قبل بخيال . يحدثنا أبو الحسن المسعودي فيقول : « وفي أيام عثمان أقتنى جماعة من أصحاب النبي الضياع والدور ، منهم الزبير بن العوام ، بنى داره بالبصرة وهي المعروفة في هذا الوقت ... وابتنى أيضا دورا بمصر والسكوفة والاسكندرية ، وما علم من دوره وضياعه فمعلوم غير مجهول إلى هذه الغاية . وبلغ مال الزبير بعد وفاته خمسين



ألف دينار ، وخلف الزبير ألف فرس وألف عبد وألف أمة وخطط بحيث ذكرنا من الأمصار . وكذلك طلحة بن عبيد الله التيمي ، ابنتى داره بالسكوفة المشهورة به هذا الوقت ، المعروفة بالسكناسة بدار الطلحين ؛ وكانت غلته من العراق كل يوم ألف دينار ، وقيل أكثر من ذلك (1) وبناحية سراه (؟) أكثر مما ذكرنا ، وشييد داره بالمدينة وبنها بالآجر والجص والساج ؛ وكذلك عبد الرحمن بن عوف الزهرى ابنتى داره ووسعها ، وكان على مربطه مائة فرس ، وله ألف بعير وعشرة آلاف من الغنم ؛ وبلغ بعد وفاته ربع ثمن ما له أربعة وثمانين ألفا . وقد ذكر سعيد بن المسيب أن زيد بن ثابت حين مات خلف من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفؤوس ، غير ما خلف من الأموال والضياع بقيمة مائة ألف دينار . وابتنى المقداد داره بالمدينة فى الموضع المعروف بالجرف على أميال من المدينة وجعل أعلاها شرفات ، وجعلها مخصصة للظاهر والباطن . ومات يعلى بن أمية وخلف خمسمائة ألف دينار وديونا على الناس وعقارات وغير ذلك . ثم يقول المسعودى « وهذا باب يتسع ذكره ويكثر وصفه فيمن تملك من الأموال فى أيامه ، ولم يكن مثل ذلك فى أيام عمر بن الخطاب ، بل كانت جادة واضحة وطريقة بيئة . »

مهما يكن من المبالغة فى هذا النص فهو لا ريب يشير إلى حال كانت لا بد مشيرة لمعارضة جادة غير هازلة ، فالعهد بصاحب الشريعة الإسلامية وبالشيخين كان لا يزال قريبا ، ومبادئ الإسلام الديمقراطية لم تمنح بعد من الأذهان ، وقد وجد نوعان من المعارضة لهذه الحال : نوع يستند إلى العنف والقوة المادية ، وكان بالأمصار الكبرى حيث الجند الذين شادوا الدولة بسيوفهم والذين أصبحوا يرون قریشا استأثرت بحقهم فى النىء ، وبلسان هؤلاء يقول شاعر

من أهل الكوفة :-

يلينا من قريش كل عام أمير يحدث أو مستشار

لنا نار نخوفها فنخشى وليس لهم فلا يخشون نار

ومن هذا القبيل معارضة أهل المدينة . ولكنها كانت ذات صوت خافت  
مجمج ، لأن المدينة لم تعد محل القوة المادية في الدولة العربية ، فقد خلفتها في ذلك  
الأمصار المذكورة . والحق أن الأوس والخزرج قد أدوا الواجب الذي من  
أجله لقبوا « بالانصار » ثم أخذ نجم مجدهم السياسي في الأفول .  
وأما النوع الآخر من المعارضه فكان يستند إلى الدليل الشرعي وإلى مبدأ  
الحق والعدالة . وهذا كان يحمل لواءه عالياً رجل قوال اللسان ، ثبت الجنان  
صريح في الحق كل الصراحة : ذلك أبو ذر الغفاري .

\*\*\*

كانت غفار من القبائل الضاربة بين المدينة ومكة ، وكانت في الجاهلية تحترف  
قطع الطريق واعتراض القوافل التي تمر من أرضها ، وهي حرفة لم يكن بها بأس  
في عرف ذلك الزمان . فنشأ أبو ذر نشأة أعرابية ، واتصف بما يتصف به  
الأعراب عادة من صدق اللهجة وصراحة القول ، ومرن على حياة البادية بما  
فيها من خشونة وسذاجة . ويقال إنه بقوة عقله وصفاء ذهنه أدرك ما عليه  
قومه من فساد العقيدة فاطرح الأوثان ووحيد الإله ، وذلك قبل أن يبعث  
النبي ﷺ بثلاث سنين . فلما نبي عليه السلام وبلغت أبا ذر دعوته ، وجد  
مشكلة قوية بين هذه الدعوة وبين ما كانت نفسه اطمأنت إليه من قبل ، فرحل  
إليه من فورهِ وما هو إلا أن لقيه وسمع منه القرآن حتى أسلم ، وكان خامس  
خمسة هم الجماعة الإسلامية وقتئذ . ولقد أبى إلا أن يجهز في مكة بدينه الجديد

فتعمدته قريش بالأذى ، ثم ذكرت أنه من قوم تمر عيرها من أرضهم ، فكفت عنه .

وعاد أبو ذر بعد ذلك إلى البادية فدعا قومه إلى الإسلام فأسلم بعضهم ، ثم أسلم سائرهم عندما هاجر الرسول إلى المدينة . وبذلك أصبحت غفار من القبائل التي ظهرت الرسول في محاربه قريشا . وقد لبث أبو ذر في قومه إلى أن تمت الهجرة وانقضت أيام بدر وأحد والخندق ، ثم قدم المدينة وخرج مع الرسول في غزوة تبوك ، ولزم صحبته إلى أن توفي عليه السلام فكان بذلك من أكبر رواة الحديث .

وقد وردت أحاديث تشير إلى أخلاق أبي ذر: فيروى أن النبي سمعه يقول لآخر : «يا بن الأمة ، فقال عليه السلام «ما ذهبت عنك أعرايتك بعد ، وتحلفت بأبي ذر راحلته عن الجيش في غزوة تبوك فتركها وأدرك الجيش ماشيا وحده . فقال الرسول « . يمشي وحده ويموت وحده ويبعث وحده ، وورد فيه أيضا « ما أقلت الغبراء ولا أطلت الخضراء من ذى لهجة أصدق من أبي ذر ، .

وأقام أبو ذر بعد وفاة الرسول بالمدينة ، فلها كانت خلافة عمر بن الخطاب ألحقه عمر في العطاء بأهل بدر تشريفا لقدره وإن لم يكن منهم ، ففرض له خمسة آلاف درهم في السنة . ثم خرج إلى الشام وغزا مع معاوية أرض الروم سنة ٢٣ هـ وجزيرة قبرص سنة ٢٧ هـ .

\*\*\*

فليسا وقف تيار الفتوح العربية منتصف خلافة عثمان أقام أبو ذر بالشام فرأى ما آل إليه المسلمون من الحال التي سبق وصفها : رأى رجال الدولة تسمى النبيء مال الله توصلا بهذه التسمية الخادعة إلى الاستئثار به ، أو التصرف

فيه كما يشامون، ورأى المجتمع قد استحال فريقين متباينين: أغنياء مترفين وفقراء معدمين . فأثارت تلك الحال حفيظة أبي ذر وهو الذى شهد دورة الفلك كاملة ، ورأى العرب فى جاهليتهم وما صاروا إليه فى خلافة عثمان ، فنصب نفسه لمكافحة تلك الحال مهما جر عليه ذلك . وأعلن برنامجا فى الإصلاح . فأما الفئمة فىجب أن يسمى ( مال المسلمين ) لا ( مال الله ) وأما الأغنياء فىجب أن يرد فضل أموالهم على الفقراء ، وذهب أبو ذر إلى أن المسلم لا ينبغى له أن يكون فى ملكه أكثر من قوت يومه وليلته أو شئ ى ينفعه فى سبيل الله أو يعده لسكرىم ، ، أخذ ذلك من ظاهر قوله تعالى : والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم ، وبذلك البرنامج أصبح أبو ذر داعية اشتراكيا صريحا . وقد شاعت دعوته فى فقراء الناس ومحاولتهم فثاروا بالأغنياء وطالبوهم أن يشركوهم فى أموالهم ، فتوجه الأغنياء بالشكوى إلى أمير الشام لذلك العهد : معاوية بن أبى سفيان .

أحب معاوية قبل كل شئ أن يختبر صدق أبى ذر فيما يدعو إليه ، فبعث إليه فى جنح الليل بألف دينار ، ولما كان الصبح أرسل إليه يستردها بحيلة احتالها ، فوجد أبأ ذر قد فرقها كلها ، فعلم معاوية أن الرجل يفعل مايقول . فأقبل يجادله فيما يدعو إليه ، وعلى سبيل الترضية له قبل أن يسمى الفئمة ( مال المسلمين ) بدلا من ( مال الله ) ، ولكن أبأ ذر أصر على أن ينزل الأغنياء عن فضل أموالهم للفقراء ، رعبنا حاول معاوية أن يقنعه بأن الآية التى يستدل بها إنما نزلت فى أهل الكتاب وحدهم . وأعيأ معاوية أمر أبى ذر ، فجنح إلى أخذه بالشدة ، فنهى الناس عن مجالسته وتهده بالقتل ، فلما لم يجد كل ذلك رفع أمره إلى عثمان فأمره بإشخاصه إليه ، فأشخصه إليه على شرح حال .

لم يكن أبو ذر في المدينة بأسعد منه في الشام، فقد حاول عثمان أن يصرفه عن دعوته، ويريه أنه لا يملك أن يجبر الناس على الزهد وعلى أن يؤدوا غير فريضة الزكاة، وأن كل الذي يملك هو أن يدعو المسمين إلى الاجتهاد والاقتصاد، ولكن أبا ذر كان يريد برنامجا كاملا، وولع به أهل المدينة والتفوا حوله. فرأى عثمان آخره الأمر أن يحصر الخطر في أضيق نطاق ممكن، فنفى أبا ذر إلى الربذة، وهي مكان في البادية ناء عن المدينة؛ والظاهر أن عثمان لم يرد أكثر من إبعاد أبي ذر عن الناس، فالروايات تقول أنه أجرى عليه رزقا يناله كل يوم، وأنه لم يمنعه من الاختلاف إلى المدينة من حين لآخر حتى لا يرتد أعرابيا.

لم يكن أبو ذر نازرا ولكن طالب إصلاح أرتاه. وبما يدل على عدم نزوعه إلى التوراة أنه وهو في منفاه مر به ركب من أهل الكوفة ممن كان منحرفا عن عثمان، فطلبوا إليه أن ينصب راية يلتفت حولها كل من كان على شاكلته وشاكلتهم، فأبى ذلك بتاتا وهام عنه. وأما مذهبه في الإصلاح فلا شك أنه ابن بجدته، فالإسلام لا يحظر الثروة ولا الملكية، ولا يوجب على المسلم حقا في ماله غير الزكاة، وكل ما ينهى عنه الإسلام في هذا الصدد إنما هو أن تجعل الثروة غرضا مقصودا لذاته.

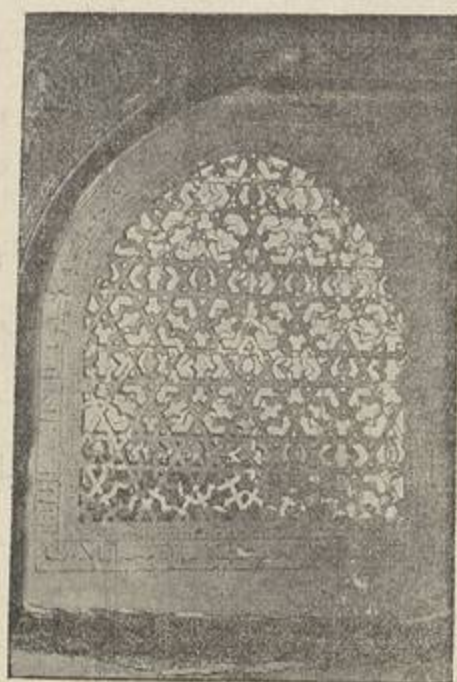
وعندى أن حركة أبي ذر الاشتراكية تمت بسبب قوى إلى حركة مزدك الشيعي الذي ظهر بفارس على عهد قباذ وكسرى أنوشروان، والذي كاد يقلب نظام المجتمع الفارسي رأسا على عقب لولا عزم أنوشروان وحزمه. فإذا عرفنا أن اليمن خضعت لفارس قبيل الإسلام، وأن يهوديا من أهل صنعاء يعرف بابن السوداء ادعى الإسلام في خلافة عثمان وجعل يطوف الأمصار

الإسلامية داعيا إلى الثورة ، وأنه هو الذى حرك أبا ذر لما أنس فيه من  
الميول الاشتراكية ، إذا عرفنا ذلك كله فقد وضحت الصلة بين الحركة  
الشيوعية الفارسية القديمة وبين الحركة الاشتراكية التى أوشكت أن تقع فى  
الدولة الإسلامية على عهد ثالث الخلفاء الراشدين .

\* \* \*

لبث أبو ذر فى منفاه نحو ثلاث سنين يعانى ألم الوحشة وكبر السن وخيبة  
الأمل ، فلما أدركه الموت فى سنة ٣٢ هـ كانت وفاته مؤثرة ودالة على شدة  
ثباته على مبدئه حتى النهاية ، وعلى أنه حقا قد مشى وحده ومات وحده ، يروى ابن  
سعد فى طبقاته أنه عندما حضرت الوفاة أبانذر حارت امرأته فى أمرها لتوحيدها  
فى تلك الفلاة ، فكانت تشد إلى كئيب تقوم عليه فتتنظر ثم ترجع إليه فتمرضه  
ثم ترجع إلى الكئيب ، فيبنا هى كذلك إذا هى بنفر تخديهم رواحلم كأنهم الرخم  
على رحالم ، فألاحت بثوبها فأقبلوا حتى وقفوا عليها ، قالوا مالك ؟ قالت أمرؤ  
من المسلمين يموت تكفونونه . قالوا ومن هو ؟ قالت أبو ذر . فدفنوه بأبائهم  
وأمهاتهم ، ووضعوا السياط فى نحورها يستبقون إليه حتى جاءوه . فقال لهم ..  
لو كان لى ثوب يسعنى كفنا لم أكفن إلا فى ثوب هولى ، أولا مرأتى ثوب يسعنى لم  
أكفن إلا فى ثوبها ، فأنشدكم الله والإسلام ألا يكفننى رجل منكم كان أميرا أو عريفا  
أو نقيبا أو بريدا . فكل القوم قد كان قارف شيئا من ذلك إلا قى من الأنصار  
قال أنا أكفنك فى ثوبى لم أصب بما ذكرت شيئا ، أكفنك فى رداى هذا الذى  
على وفى ثوبين فى عيى من غزل أمى حاكتهما لى . قال أنت فسكفى .....  
فكان ذلك الفتى الأنصارى هو الذى تولى تجهيزه ، ثم دفنوه جميعا .

وهكذا انطلقاً سراج هذه الشخصية الفذة العجيبة . إنها لاشك من تلك  
 الشخصيات التي يقدمها الزمن عادة بين أيدي الأحداث الخطيرة إنذاراً  
 للناس وإقامة للحجة عليهم إذا لج بهم الغرور فلم يرعوا ولم يزدجروا .  
 على أن روح أبي ذر لم يكن ليغيب مع جثمانه في تلك الفلاة البلقع ، فقد  
 ظل صوته داوياً إلى أن تحقق ما أنذر به المدينة من غارة شعواء وحرب  
 مذكارة ، ووقعت الفتنة الكبرى التي يقال إنها انتجت كل فتنة حدثت في  
 الإسلام . ولقد كانت غمار من نهض فيها وألقى في نارها حطباناً ؟



## العبّات المقدّسة<sup>(١)</sup>

— ٤٥٤٣٤٣ —

كان يوم الجمعة الماضي من أيام ربيع العراق ، فالجو باسم طلق والهوى ندى  
رخاء ، وجوانب الأفق كاسية حالية بالماء والحضرة والزهر .  
خرجنا في صبيحة ذلك اليوم لنؤدى واجب الزيارة للعبّات المقدّسة  
بكر بلاه والنجف الأشرف . وكنا رفاقا أربعة ، كلهم عارف بشروط الصحبة  
وأدب الطريق : ثلاثة مصريون وواحد عراقي هو في الحقيقة داعينا وهاديننا في  
طريقنا ، هو الشاب الأديب محمد كاشف الغطاء النجفي ، سليل آل كاشف الغطاء  
الغنيين بفضلهم وإفضالهم عن التنويه والتعريف .

\* \* \*

وانطلقت بنا السيارة تطوى المنازل والمراحل طيا عجيبا ، فكأنما عراها  
ما عرانا من الشوق والحنين ، فهي تعدو غير متأبئة ولا مستعصية ؛ فأذكرني أمرها  
قول الشاعر العربي القديم :

لقد زارني طيف الخيال فهاجني	فهل زار هذي الأبل طيف خيال ؟
لعل كراها قد أراها جذابها	ذوائب طلح بالعقيق وضال
تلون زبوراً في الحنين منزلاً	عليهن فيه الصبر غير حلال
وأنشدن من شعر المطايا قصيدة	وأودعتها في الشوق كل مقال .

(١) الغري ، السنة الثالثة العدد ٩٣ . النجف الأشرف ، الثلاثاء ٤ ربيع الثاني سنة ١٣٦١  
و ٢١ نيسان سنة ١٩٤٢ .



وإذا بنا في أقل من ساعتين من الزمان نسير بين صفين من بساتين موقفة متصلة الظلال ، فإذا بنا في ضواحي كربلاء ،

فإذا بنا في شوارع كربلاء ، فإذا بنا قبالة مسجد الحسين بن علي ، عليهما السلام .

كل شيء في كربلاء فيه مشابه من سيد شباب أهل الجنة : مياه جارئة ، ورياض ناضرة ، وبلدة آمنة مطمئنة ، ومسجد خفيف الروح ، وجيران أريحيون كرام ، ولكن ذلك الجمال كله ملفوف في غلالة سوداء لا تبين إلا لعين الناظر المتوسم ، فإذا تبينتها هاجت به لواعج أسى دفين لم يملك معها حسرة النفس وابتدار الدموع .

\*\*\*

ومال ميزان النهار وأخذت أشعة الشمس الفضية تتحول خيوطا عسجدية اللون زادت معالم كربلاء جمالا كاسفا حزينا . قاستأذنا مضيفنا الكرام في متابعة السفر إلى النجف الأشرف فأذنوا .

وراحت السيارة تعدو بنا عدو الظلم ، في قفار يابسة جرداء قاحلة ، ليس بها من أنيس سوى الضباب وكأنها ريعت من ديبب السيارة فهي تسرع إلى أبحارها مستعيذة بالله من بغى الإنسان وعدوانه . وبينما نحن تتقاذفنا تلك المهامه الفيج إذ رفع لنا على حافة الأفق الجنوبي ما يشبه أن يكون نجما متوقدا ، فسألنا عنه دليلنا الخريت ، فقال : تسلم قبة مسجد الإمام .

وما أسرع ما أسلمتنا البيداء إلى مقبرة النجف الأشرف ، فإذا نحن عند ربوة عالية يقوم عليها مسجد أمير المؤمنين وضريحه وقبته المذهبة الذاهبة في السماء . هنالك ترجلنا وسعينا على الأقدام إلى المسجد ، فدخلناه مخبتين خاشعين .

و السلام عليك أبا حسن ! طبت حيا وميتا ! أما والله لست أعلم ميتا غيرك  
لم تتل يد الموت من شمائله ونفحاته قليلا ولا كثيرا ! ها أنت ذا منفرد وحيد  
بذلك القفر ، ولقد كنت كذلك منفردا وحيدا في حياتك ، شأن كل قوال للحق  
عمال به في هذه الدنيا ! ها أنت ذى على تلك الربوة عال على لحظ العيون ،  
كذلك كنت في حياتك عاليا بإيمانك وتقائك وزهدك على نقد الناقدين وتنقص  
المتنقصين ! وها هي ذا رياض الفرات وغياضه تتراعى لك من بعيد كما كانت  
الدنيا تتراعى لك بزخرفها وبهرجها ، وها أنت ذا كأنك تصدها كما كنت تفعل  
قائلاً : يا دنيا عرى غيرى ! وها هي ذى نفائس الأغلاق وكرائم الأموال قد  
سيقت إليك وكدست عند قدميك تقدمة لك من مواليك ومحبيك ، وها أنت ذا  
كأنك تنجها عنك بلطف وتقول كما قلت يوم دخلت بيت المال : يا صفر  
ويا بيضاء غرى غيرى ! وها هي ذى جموع الوافدين حولك كأنهم ينصتون إلى  
خطبة من خطبك الجليلة الرائعة ، وكأنما أنت تخطبهم كما كنت تخطب في الحياة  
سامعيك فتدمى القلوب وتبكي العيون . وحتى علمت وفصاحتك وجودك  
ولطفك لم نزل منها أثاره في جيرانك الأحياء الذين اختاروا جوارك والنزول  
في رحابك .

وانتهت من أحلامي على دعوات الداعين وحفاوة المحتفين من أهل النجف  
الأشرف ، فخرنا من حضرة أمير المؤمنين ، وما زلنا ننعلم بلطف أهل النجف  
ونقتبس من علمهم وأدبهم حتى لم يبق من الليل إلا قليل .

\*\*\*

وانحدرنا في الصباح إلى الكوفة فوقفنا على ديارها البلاقع وأطلالها

الدوائر فتلوت قوله تعالى ، تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في  
الأرض ولا فساداً ، والعاقبة للمتقين .

\*\*\*

وبرحنا الكوفة نريد بغداد ، فلم نخرج في طريقنا إليها إلا على الخلة الفيحاء ،  
تلبية منا لدعوة فاضل من فضلائها أبي إلا أن نطعم من زاده ، ثم استأنفنا السفر  
فبلغنا بغداد وقت الغروب فألفيناها كهدنا بها : هاتجة ماثجة ، ساحرة فاتنة ،

فقلت لأصحابي : رجعنا إلى الدنيا ٩

بغداد في ١٦ نيسان سنة ١٩٤٢



# الأب لأمانس<sup>(١)</sup>

## والحكومة الإسلامية الأولى

إن الأيام بل الساعات القلائل التي مرت بالمسلمين عقب وفاة النبي ، عليه السلام ، هي لا شك أدق ظرف مر بهم في تاريخهم ، على كثرة ما شهد ذلك التاريخ من ظروف دقيقة عصبية ؛ ذلك بأنه في تلك الساعات المعدودة كانت الشريعة الإسلامية التي ظل الرسول سنين طويلة يعمل على تثبيت قواعدها وإدخالها على قلوب العرب ، معرضة لأشد الاخطار؛ كما كانت الوحدة السياسية التي قضى النبي طوال العصر المدني من حياته يعمل على تكوينها وإحكامها ليتمكن لدعوته الدينية ، هي أيضا معرضة لخطر التفكك والانتقاض . ولكن ما هي إلا تلك الأيام أو الساعات القلائل حتى نجت من الضياع قضية الإسلام وقضية الدولة الإسلامية ، وافتتح كل منهما عصرا جديدا لا يزال إلى اليوم لإحد أعاجيب التاريخ ومن دواعي حيرة المؤرخين . تلك الأيام أو الساعات هي التي عبرها المهاجرون والأنصار بسقيفة بني ساعدة بالمدينة والتي اشتد أثناءها الخلاف بين الفريقين حتى خيفت الفتنة ، ثم آل أمرهما جميعا إلى إنتخاب أبي بكر خليفة لرسول الله على المسلمين ، وإلى قيام الخلافة الإسلامية بشكلها الديمقراطي المعروف .

(١) الثقافة ٤ العدد ٤٨ ، السنة الأولى ٢١ فبراير سنة ١٩٣٩ .

وبعد فلأب لآمانس المستشرق اليسوعي المعروف بسعة اطلاعه على آداب العصر الجاهلي وتاريخ العصر الإسلامي الأول نظرية<sup>(١)</sup> غريبة تتعلق بشكل الحكومة الإسلامية التي قامت يوم السقيفة واستمرت طوال عهد الشيخين .

فهو يرى أن تلك الحكومة كانت حكومة ثلاثية من طراز النظام الثلاثي Triumvira المعروف في التاريخ الروماني في طور الانتقال من الجمهورية إلى الامبراطورية ، وأن قوام هذه الحكومة ثلاثة من كبار الصحابة : هم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة ، وأن هؤلاء اجتمعت كلمتهم في أواخر حياة النبي على أن يحتكروا الحكم بعد وفاته عليه السلام ، ويتداولوه واحدا بعد واحد ، وأن اثنتين من أزواج النبي ، هما عائشة بنت أبي بكر ، وحفصة بنت عمر ، مهدتا لهم السبيل إلى ذلك ، وأن هذه المؤامرة قد نجحت إلى حد بعيد . إذ أيد عمر وأبو عبيدة أبا بكر يوم السقيفة ، وفاز أبو بكر بالخلافة ، وقد عاوناه أصحابه في الحكم . فكان عمر على القضاء وأبو عبيدة على الفيء . فلما حضرت الوفاة أبا بكر عهد إلى عمر من بعده . ثم إن عمر رشح أبا عبيدة للخلافة من بعده ، بأن ولاه القيادة العليا لجيوش الشام . غير أن أبا عبيدة توفي في حياة عمر ، فحبط مشروع الحكم الثلاثي ، وكان من وراء ذلك أن يرجع المسلمون إلى الشورى التي حرموا منها في استخلاف أبي بكر وعمر ١١

(١) انظر المجلد الرابع من المجلة المصنفة Mélanges de la Faculté Orientale Beyrouit .

ونحن مع احترامنا لعلم الأب لامانس واطلاعه نقول إن نظريته هذه لا تقوم على أساس تاريخي متين .

أولا - لأن المصادر القديمة الموثوق بها لا تذكر شيئا من هذا القبيل ، فالطبرى والبلاذرى اللذان استوعبا كل ما أمكنهما استيعابه من الأخبار المتعلقة بقيام الخلافة العربية ، لا يأتیان بخبر واحد يؤيد من قريب أو بعيد نظرية الأب لامانس .

ثانيا - إن الأحاديث التي يستشهد بها الأب لامانس أغلبها من الأحاديث المروية في مناقب الصحابة وخصائصهم . وهذه ينبغي أن تؤخذ بتحفظ تام ، وربما كان من واجب الباحث ألا يستشهد بها في مقام البحث العلمي الصريح ، ذلك بأن معظمها لا شك موضوع ، وأن السبب في وضعه يرجع إلى حالة الأحزاب السياسية إبان العصر الأموي و صدر العصر العباسي .

ثالثا - إن الأب لامانس يهمل كل الإهمال الرواية التي تشير إلى الذهول الذي أصاب عمر بن الخطاب عقب وفاة النبي ، وقد لحظ صديقنا الدكتور السنهوري بك في كتابه ( الخلافة ) قيمة هذه الرواية ، ولكنه لا يعلق عليها الأهمية التي نعلقها نحن . وليبيان هذه الأهمية ثبت نص الرواية كما ساقها ابن اسحق :

قال ابن اسحق : قال الزهري وحدثني سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال لما توفي رسول الله ﷺ قام عمر بن الخطاب فقال : إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ قد توفي ، وإن رسول الله ﷺ ما مات ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات . والله ليرجعن رسول الله ﷺ كما رجع

موسى ، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله ﷺ مات .  
وأقبل أبو بكر حتى نزل على باب المسجد حين بلغه الخبر وعمر يكلم الناس ، فلم  
يلتفت إلى شيء حتى دخل على رسول الله ﷺ في بيت عائشة ، ورسول الله ﷺ  
مسيحى في ناحية البيت عليه برد حبرة ، فأقبل حتى كشف عن وجه رسول  
الله ﷺ ، ثم أقبل عليه فقبله . ثم قال : بأبي أنت وأمي ! أما الموتة التي كتب  
الله عليك فقد ذقتها ثم لن تصيبك بعدها موتة أبدا . قال ثم رد البردة على وجه  
رسول الله ﷺ ، ثم خرج وعمر يكلم الناس ، فقال : على رسلك يا عمر !  
أنصت ! فأبى إلا أن يتكلم . فلما رآه أبو بكر لا ينصت أقبل على الناس ، فلما سمع  
الناس كلامه أقبلوا عليه وتركوا عمر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس  
من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ،  
قال ثم تلا هذه الآية : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات  
أو قتل انقلبتم على أعقابكم . ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي  
الله الشاكرين » . قال فوالله لسكان الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت حتى  
تلاها أبو بكر فإنما هي في أفواههم . قال فقال أبو هريرة : قال عمر : « فوالله  
ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعمرت حتى وقعت إلى الأرض ما تحملني  
رجلاي ، وعرفت أن رسول الله ﷺ قد مات » .

فالقارىء يرى أن هذه الرواية العالية الإسناد من الأهمية بمكان ، فهي  
تتعلق بإثبات نص من نصوص القرآن . وهي من أجل ذلك بعيدة عن أن  
تكون مختلقة ، والمناسبة التي وردت في صدها لا شك صحيحة .

إذا كيف نوفق بين عمر المؤتمر ، على رأى لامانس ، وعمر الذاهل لموت

الرسول كل هذا الذهول كما تدل الرواية المذكورة ؟

\*\*\*

وبعد فإن القول بائتمار أبي بكر وعمر قديم غير حديث ، فقد قال به روافض الشيعة منذ ظهرت الأحزاب السياسية بشكلها التاريخي في صدر الإسلام ، فزعموا أن أبا بكر وعمر وعثمان « لا أبا عبيدة كما يرى لا مانس ، قد ائتمروا ببني هاشم وغصبوهم حقهم في الخلافة . ولا أدل على حدوث هذا الزعم من شعر السيد الحميري الذي يفيض مدحا لبني هاشم وذما للخلفاء الثلاثة الأوائل . روى صاحب الأغاني<sup>(١)</sup> قال : جلس المهدي يوما يعطى قريشا صلوات لهم وهو ولي عهد ، فبدأ ببني هاشم ثم بسائر قريش ، فجاء السيد فرفع إلى الربيع رقعة محتومة ، وقال إن فيها نصيحة للأمير فأوصلها إليه ، فأوصلها فإذا بها :

قل لابن عباس سمى محمد	لا تعطين بني عدي درهما
واحرم بني تميم بن مرة إنهم	شر البرية آخرها ومقديما
إن تعظم لا يشكروا لك نعمة	ويكافئوك بأن تدم وتشتما
وإن ائتممتهم أو استعملتهم	خانوك واتخذوا خراجك مغنما
ولئن منعتم لقد بدأوكم	بالمنع إذ ملكوا وكانوا أظلمنا
منعوا تراث محمد أعمامه	وبنيه وابنته عديلة مريمنا
وتأمروا من غير أن يستخلفوا	وكفي بما فعلوا هناك مأثما
لم يشكروا لمحمد إنعامه	أفيشكرون لغيره إن أنعاما ؟
والله من عليهمو بمحمد	وهدهم وكسا الجنوب وأطعنا
ثم انبروا لوصيه ووليه	بالمنكرات فجرعوه العلقنا

(١) ج ٧ ص ٩



قال : وهي قصيدة طويلة حذف باقيها لقبح ما فيه . قال : فرمى بها إلى  
أبي عبيد الله ثم قال : اقطع العطاء ! فقطعه ، وانصرف الناس ، ودخل السيد  
إليه ، فلما رآه ضحك وقال : قد قبلنا نصيحتك يا إسماعيل ! ولم يعطهم شيئا .  
وقال الشهرستاني في المال والنحل في كلامه على المغيرة إحدى فرق غلاة  
الشيعة : إن زعيمها المغيرة بن سعيد العجلي كان يزعم أن أول ما خلق الله هو  
ظل محمد وعلى قبل ظلال السكل ، ثم عرض على السموات والأرض أن يحملن  
الأمانة ، وهي أن يمنعن على بن أبي طالب من الإمامة ، فأبين ذلك ، ثم عرضها  
على الناس ، فأمر عمر بن الخطاب أبا بكر أن يتحمل منعه من ذلك ، وضمن أن  
يعينه على الغدر به . على شرط أن يجعل الخلافة له من بعده ، فقبل منه ، وأقدا  
على المنع متظاهرين ، فذلك قوله تعالى « وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا » (١)  
فالأب لامانس لم يزد على أن أخذ نظر روافض الشيعة وغلاتهم إلى قيام  
الخلافة ، وبنى عليها بحته الخاص بشكل الحكومة الإسلامية الأولى ، وهي بعد  
وجهة نظر ليست لها قيمة عليية على الإطلاق .

---

(١) ابن حزم ج ٦٢ ص ١٤ .

# زياد بن أبي سفيان<sup>(١)</sup>

(١)

إذا عد رجال الدولة العربية من أهل السياسية ، كان زياد بن أبي سفيان من غير شك عدلاً من أعلامهم وقطباً من أقطابهم ، بل لعل زياداً الرجل الوحيد الذي أخذ عن عمر بن الخطاب مبدأ القوة في غير عنف واللين في غير ضعف ، وحاول العمل به بقدر ما وسعت ذلك الظروف القاسية التي عاش فيها . وإذا عد رجال الإدارة الذين نقلوا الدولة العربية من حال السذاجة الإدارية التي كانت عليها زمن الخلفاء الأربعة ، وأعطوها طابع الدولة المستقرة المنظمة ، فزياد لا يكاد يلحق به رجل آخر في ذلك المضمار .

\*\*\*

ولد زياد بالطائف في السنة الأولى للهجرة من أب قرشي هو أبو سفيان على المشهور المتعارف ، ومن أم فارسية الأصل تسمى سمية كانت مولاة الحارث بن كلدة المعروف بطبيب العرب . وتعلم في كتاب من كتاتيب الطائف القراءة والكتابة والحساب ، فنشأ قارئاً كاتباً حاسباً . ثم اعتنق الإسلام في أغلب الظن عند ما أسلمت ثقيف برمتها في سنة تسع للهجرة ، وإن كان بعض الروايات يجعل إسلامه سابقاً على ذلك . فلما كانت سنة ١٤ للهجرة ووجه عمر عتبة بن فزوان إلى الأبله وجنوبي العراق ليسكون ردها لسعد بن أبي وقاص ، كان الفتى زياد

(١) الثقافة .

فيمن انتدب للخروج معه وكان هو الذي يقسم لهم الغنائم ، وأجروا عليه كل يوم  
 درهمين . ثم ولي لسعد ديوانه فكان هو الذي يكتب الناس ويدونهم ، فلما فتحت  
 جلولاء سنة ١٦ بعث سعد بأخماس الغنائم إلى عمر وبعث بالحساب مع زياد  
 وكلفه استئذان الخليفة في الانسياح في أرض فارس . فلما قدم الوفد المدينة كلم  
 زياد عمر فيما جاء له ، وأعجب الخليفة الكبير بذكاء الفتى الناشئ . وفصاحة  
 لسانه ، وقوة جنانه ، وأحب أن يستزيد من اختباره فسأله : « هل تستطيع أن  
 تقوم في الناس بمثل الذي كلمتني به » . فأجاب الفتى . والله ما على وجه الأرض  
 رجل أهيب في صدرى منك ، فكيف لا أقوى على هذا مع غيرك ؟ ، فلما كان  
 الغد قام في الناس فتكلم بما أصابوا من الغنائم وبما صنعوا وبما يستأذنون فيه  
 من الانسياح في بلاد فارس ، فازداد عمر إعجابا به وقال : « هذا الخطيب المصقع ،  
 ولم يكن الإعجاب قاصرا على عمر ، بل لقد أعجب زياد من سمعه يومئذ من  
 أكبر الصحابة ، فقال عمرو بن العاص : « لو كان هذا الفتى من قریش لساق  
 العرب بعصاه ! » فيقال إن أبا سفيان همس في أذنه بقوله إنه هو أبوه الذي ولده  
 حقا . ثم عاد زياد بعقب ذلك إلى العراق . فلما مصرت البصرة سنة ١٦ هـ نزلها  
 زياد فيمن نزلها من ثقيف ، واتخذها مقرا مدى حياته بوجه عام . ولما ولي عمر  
 المغيرة بن شعبة على البصرة سنة ١٦ هـ ورى المغيرة بما رمى به ، وهم عمر برجمه  
 لم ينجه من الهلاك إلا شهادة شهدا زياد ولم يقطع فيها ، فكانت تلك الشهادة  
 سببا في درء الحد عنه . وقد حفظ المغيرة لزياد تلك اليد مدى حياته وانعدت  
 بينهما من ذلك الوقت أوامر المودة والصدافة .

ولما طعن أهل البصرة على أميرهم ، أبي موسى الأشعري سنة ٢٣ ، كان بما  
 احتجوا به عليه عند عمر أنه فوض أمر البصرة إلى زياد وهو بعد فتى حدث ،

ليست له سن ولا تجربة ، يريدون زيادا . فرد عليهم أبو موسى بقوله : و إنى وجدت له نبلا ورأيا ، فأسندت إليه عملي ، وقد قبل عمر قول أبي موسى متأثرا لاشك بالصورة التي كانت لزياد في ذهنه ، ولكنه أحب أن يتحقق بنفسه لإلام صار أمر ذلك الشاب في مدى سبع سنوات ، فأمر أبا موسى أن يشخص إليه زيادا . وقدم زياد على عمر قدمته الثانية وقام بباب عمر . فلما خرج عمر وجد شابا حسن الهيئة ، له ذؤابة . وعليه ثياب بيض من كتان ، فابتدره بقوله : ماهذه الثياب ؟ فأخبره زياد . فقال : كم ثمنها ؟ فأخبره زياد بشيء يسير ، وصدق عمر . ثم قال له : كم عطاؤك ؟ قال : ألفان . قال ما صنعت في أول عطاء خرج لك ؟ قال : اشتريت والدتي فأعتقتها ، واشتريت بالثمان ربيبي عبيدا فأعتقته . قال الخليفة : وفقت ! ثم اختبر عمر قدرته على الكتابة فأمره أن يكتب في معنى واحد ثلاثة كتب مختلفة العبارة ، فكتب زياد ثلاثة كتب بليغة أعجب بها عمر ، ثم سأله عن الفرائض والسنن والقرآن فوجده فقيها ، فرده إلى البصرة وأمر أمراءها أن يسيروا برأيه . وكذلك لم تحب فراسة عمر في ذلك الشاب منذ رآه عند قدومه عليه بأخماس جلولاء لسبع سنوات خلت ، ولم تزد الأيام إلا ثقة به واطمئنانا إليه ، كما أن هاتين القدمتين غرست لذلك الخليفة في قلب زيادا إكبارا وتجلة جعلته يرى فيه مثله الأعلى الذي يتأثره ويقتدى به .

ولما شخص عبد الله بن عامر عامل البصرة من قبل عثمان إلى خراسان غازيا سنة ٣١ هـ استخلف على البصرة زيادا ، فقام بأمرها في غيبته خير قيام على صعوبة حكم المصر في تلك الأيام .

فلما اضطرت أمور الدولة الإسلامية بالفتنة التي انتهت بمقتل عثمان ، واستخلف على بن أبي طالب ، وخرج عليه أهل البصرة مع عائشه وطلحة

والزبير ، لم يحرك زياد في تلك الفتن ساكناً ، ولم يخض فيها مع الخائضين ، ولا ألقى في نارها حطباً ، بل أعتزل الفريقين كما فعل كثير غيره ، وأقام مستخفياً في بعض دور البصرة ينتظر عم تنجلي الأمور . ولم يكن أمر زياد خافياً على علي ، فإنه بعد أن ظفر بخصومه في وقعة الجمل سنة ٢٦ وجاءه عبد الرحمن بن أبي بكر ، وهو ابن أخي زياد لأمه ، مستأمناً مبايعاً ، قال له علي : وأين عمك المتربص المتقاعد بن ؟ . فقال : والله يا أمير المؤمنين إنه لك لواد . وإنه علي مسرتك لحريص ، ولكن بلخني أنه يشتكي ، أفأعلم لك عليه ثم آتيك ؟ وكنتم علياً مكانه حتى استأمر زياداً فأمره أن يعلمه بمكانه فأعلمه . فقال علي : إمش أمامي فاهدني إليه ! ففعل . فلما دخل عليه قال : تقاعدت عني وتربصت ! ووضع يده على صدره وقال : هذا وجع بين !! فاعتذر إليه زياد ، فقبل عذره . ثم استشاره علي وأراده علي إمرة البصرة ، فامتنع زياد من قبولها وقال : بل رجل من أهل بيتك يسكن إليه الناس ... وسأ كفيه وأشير عليه . وافترقا على عبد الله بن عباس . إلا أن علياً ولي زياداً خراج البصرة وبيت مالها ، وأمر ابن عباس أن يسمع منه .

من ذلك الوقت أصبح زياد من أشد عمال علي إخلاصاً له ، وقد لبث علي إخلاصه وولائه له إلى أن أنتهت حياة علي نفسه . ويتضح هذا الإخلاص في حادثين وقعوا في ذلك الوقت في أهم النواحي التابعة لعلي ، في البصرة وفارس ، وهما يبينان مقدرة زياد ودهاءه وسعة حيلته . أما حادث البصرة فذلك أنه لما قتل محمد بن أبي بكر بمصر سنة ٤٩ هـ واضطرب الأمر على علي خرج إليه بالكوفة عبد الله بن عباس بعد أن استخلف زياداً على البصرة . ودعم زيادا غداة رحيل ابن عباس أمر عظيم ، فإن معاوية أنفذ إلى البصرة عبد الله بن

الحضرمي ناعياً مقتل عثمان ومحركاً لأهل البصرة على علي . ونظر زياد فوجد نفسه في قلة وأن أمر البصرة يوشك أن يذهب من يده . فأعمل الرأي والحيلة ولما كان ابن الحضرمي قد نزل في بني تميم فإن زياداً أسرع فزول ومعه الأموال في قبيلة الأزدي المعادية هي وحليفها بكر بن وائل تميم . وكان لنزوله في الأزدي معنى التحرم بالجوار المقدس عند العرب ، فقد تكفلت الأزدي بالذود عنه كأننا ما كان الأمر . وكتب زياد إلى علي يخبره بالحال ويستمده . فصوب علي رأيه وأنفذ إليه مدداً مع جارية بن قدامة السعدي التميمي . وقد استطاع جارية أن يرد قومه عن متابعة ابن الحضرمي ثم سار إلى ابن الحضرمي فقضى عليه وعلى أصحابه ، ورجع زياد إلى دار الإمارة موفور النفس والمال .

أما الحادث الآخر بخلاصته أنه عند ما اضطرب الأمر على علي طمع الفرس في استعادة استقلالهم ، فنهعوا الخراج واضطربت فارس ناراً . فأشار ابن عباس على علي أن يولي زياداً على فارس وكرمان ففعل . قال الطبري : ولما قدم زياد فارس بعث إلى رؤسائها فوعد من نصره ومناه ، وخوف قومه أو توعدهم ، وضرب بعضهم ببعض ، ودل بعضهم على عورة بعض ، وهربت طائفة ، وأقامت طائفة فقتل بعضهم بعضاً . وصفت له فارس ، فلم يبق فيها جمعاً ولا حرباً وفعل مثل ذلك بكرمان . ثم رجع إلى فارس فسار في كورها ومنامم فسكن الناس إلى ذلك فاستقامت له البلاد ، وأتى اصطخر فنزلها وحصن قلعة بها ... فكانت تسمى قلعة زياد ، فحمل إليها الأموال سنة ٤٠ هـ .

ولقد أتني عليه الفرس إذ ذاك فقالوا : ما رأينا سيرة أشبه بسيرة كسرى أنوشروان من سيرة هذا العربي في اللين والمدارة والعلم بما يأتي .  
والظاهر أن زياداً لم يحصن قلعة اصطخر ويحمل إليها الأموال لمجرد التحصن

ففيها من العجم إذا ساوروه مرة أخرى ، بل كان يرمى فوق ذلك إلى غرض آخر : لقد رأى بثاقب ذهنه وبعيد نظره أن الصراع العنيف الناشب بين علي ومعاوية منته لا محالة بغلبة معاوية ، ورأى في الوقت نفسه أنه قد سار أمداً بعيداً في إحفاظ معاوية بأخذه جانب علي ، وهذا إلى مضاضة كان يحسها في قرارة نفسه تجعله لا يسارع إلى معاوية إذا تم الأمر له . فأولى له أن يحتاط لنفسه إذا ما وقع المحذور ، فيتحصن في مكانه الحزين وبين أظهر الفرس الذين غدوا معجبين به أيما إعجاب ، ثم يفاوض معاوية وهو في حصنه ويساومه مساومة الند للند ولا ينزل إليه إلا على شروط يملها هو عليه .

وقد صدقت فراسة زياد ، ولكن على نحو ما كان يخظر له بيال ، ففي عام ٤٠ قتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، وأصبح زياد ومعاوية في حقيقة الأمر وجهاً لوجه . وهنا نجد رجلين متعادين عداً غريباً . كلاهما لم يتعمد جنابة علي الآخر ، ومع ذلك فمسافة الخلف بينهما شديدة البعد . كلاهما بعيد النظر واسع الحيلة عظيم الدهاء ، إلا أن معاوية من غير شك أعظم الرجلين دهاءً وأوسعها حيلة . وكان معاوية بالطبع هو البادئ بفتح باب المفاوضات والمراوضة ، فقد كتب بعد مقتل علي إلى زياد يتهده ويتوعده ، ويعرض في الوقت نفسه بولادة أبي سفيان له . فلم يسع زياداً إلا أن يكشف له القناع ويصرح له بحقيقة موقفه منه ، فقام في الناس خطيباً فقال : العجب من ابن آكلة الأكباد وكهف النفاق ورئيس الأحزاب ، كتب إلى يتهددني وبينى وبينه ابننا عم رسول الله في تسعين ألفاً واضعى سيوفهم على عواتقهم لا يثنون ، لئن خلص إلى الأمر ليجدني أحمر ضراباً بالسيف ! . وكذلك أعرض زياد ونأى بحسابه معللاً نفسه بأنه لا يزال بينه وبين معاوية الحسن بن علي وعبد الله بن

عباس . وأتبع وعيده بأن انتقل إلى القلعة ومعها الأموال وامتنع بها ، وذلك سنة ٤١ هـ .

ولسكن فراسة زياد لم تصدق هذه المرة ، فسرعان ما نزل الحسن عن حقه في الخلافة لمعاوية ، وقدم معاوية السكوفة لينهى أمر العراق والمشرق جميعا ، وخلا ما بين زياد ومعاوية مرة أخرى . أو عاد معاوية يجاذب زيادا الحبل ولسكن في غير تهديد ولا وعيد . فكتب إلى زياد يستقدمه ليحاسبه على ما في ذمته من مال الدولة ، وجعل له الخيار بعد ذلك في أن يقيم عنده أو يعود إلى مكانه . ولسكن زيادا أصم سمعه عن تلك الدعوة الخلابية . فلم يسع معاوية عند ذلك إلا أن يلجأ إلى العنف حين لم يجد اللين والرفق ، فأمر بسر بن أرطاة عامله على البصرة بأخذ الأكبر من أولاد زياد وحبسهم ، كما أمر المغيرة بن شعبه ، عامله على السكوفة ، بالشخوص إلى البصرة واستصفاء أموال زياد التي كانت في يد عبد الرحمن بن أبي بكر ، وتعذيب عبد الرحمن إن امتنع من أداؤها . ولسكن زيادا لم تلن قناته إزاء هذا الجد من معاوية في أمره . وهم بسر بأن يقتل أبناء زياد فعلا لولا أن تدخل في الأمر أخوه لأمه أبو بكر ، على ما بينه وبين زياد من جفاء قديم يرجع إلى الشهادة التي شهدها زياد في حادث المغيرة . فقد شفع في أبناء زياد لدى معاوية فشفعه فيهم ، وكتب إلى بسر بأن يخلى سبيلهم . واهتم معاوية لأمر زياد وضاق به ذرعا . وبيننا الحال كذلك إذا برجل يثق به معاوية ولزياد عنده يد مشكورة ، ومنة مذكورة ، يتطوع للسفارة بين الرجلين ، ويصل ما انقطع بينهما . ذلك الرجل هو المغيرة بن شعبه . قالوا إنه دخل يوما على معاوية وهو بالسكوفة فقال معاوية حين وقع نظره عليه :

إنما موضع سر المرء إن باح بالسر أخوه المنتصح  
فإذا بحت بسر فإلى ناصح يكتمه أو لا تبح



فقال: يا أمير المؤمنين! إن تستودعني تستودع ناصحاً شفيقاً، ورعاً وثيقاً،  
فما ذاك؟ قال: قد ذكرت زياداً واعتصامه بأرض فارس وامتناعه بها، فلم  
أنم ليلتي؛ فأراد المغيرة أن يهون من شأن زياد فقال: ما زياد هناك! فقال  
معاوية: داهية العرب، معه الأموال، متحصن بقلع فارس، يدبر ويربص  
الحيل. ما يؤمنني أن يبايع لرجل من أهل هذا البيت، فإذا هو قد أعاد على  
الحرب جذعة؟ قال المغيرة: أتأذن لي يا أمير المؤمنين في إتيانه؟ قال: نعم!  
فأته وتلطف له! فأتى المغيرة زياداً وأعلمه بنزول الحسن عن الأمر، وأن  
الأولى له أن يصل جبله بجبل معاوية. وما زال به حتى جنح زياد إلى السلم،  
وأخبره بأنه شاخص إلى معاوية.

قدم زياد على معاوية بدمشق في سنة ٤٢، ورفع إليه حساب فارس، فأحسن  
معاوية لقاءه وصدق كل ما قال، ثم أنزله الكوفة كما طلب. إلا أنه لم يركن  
إليه كل الركون فقد كتب إلى المغيرة يأمره بأن يأخذ زياداً ورموس أصحاب  
على الكوفة، كحجر بن عدى الكندى وعمرو بن الحنق بحضور صلاة الجماعة،  
فكانوا يصلونها معه.

بيد أن معاوية كان أدهى من أن يقف في أمر زياد عند هذا الحد. لقد أراد  
أن يستخلصه ويحذبه إلى جانبه جملة، وبذلك يتيسر له الانتفاع بكفايته ومواهبه  
العظيمة. ورأى أن هذا الأمر لا يتم إلا إذا محا من نفس زياد ما كان يحس من  
المضاضة، بأن يعلن على رموس الأشهاد صحة ما كان يتهاوس به الناس من  
نسبة زياد إلى أبي سفيان. وتفصيل ذلك أن زياداً كان حتى ذلك الوقت  
لا يعرف له أب على التعيين، فبعضهم كان ينسبه إلى عبيد، وهو عبد رومي  
كان للحارث بن كعدة، وبعضهم ينسبه إلى أبي سفيان، وبعضهم ينسبه إلى أمه

فيقول زياد بن سمية ، وبعضهم يسميه زياد بن أبيه أيا كان ذلك الأب . إلا أن ذلك الغموض في النسب لم يلحق زيادا منه سبة ولا عار ، فقد بلغ أسنى المراتب كما رأينا ، وهذا مما يدل على سماحة السياسة في ذلك الزمان وسعة أفقها . فما كان من معاوية إلا أن أخذ بإقرار أبي سفيان الذي سبقت الإشارة إليه ، وبشهادة شهود شهدوا ببنوّة زياد لأبي سفيان ، وأعلن في الآفاق أن زيادا أخوه لأبيه . ولقد أثار معاوية بعمله هذا دهشة الرأي العام ، وامتعض بني أمية ، وسخط بعض رجال الفقه والحديث ، أمثال ابن عمر وسعيد بن المسيب ، فقدموا إلى المسألة نظرة ضيقة ، ورأوا فيها مخالفة لقضاء رسول الله الذي قضى بأن الولد للفراش وللعاهر الحجر . وغاب عنهم جميعاً أن معاوية إنما طرد في هذه المسألة التي وقعت وقائعها الأصلية قبل إسلام أبي سفيان ، حكم الإسلام بصحة أنساب الجاهلية الصادرة عن نظمهم في الزواج ، وإن لم يقر هذه النظم وعدها سفاحاً . فكان لمعاوية في الأمر نظر أوسع من نظرهم وتقدير أبلغ من تقديرهم . أضف إلى ذلك أنه سياسي يتوخى الصالح العام ، وكان الصالح العام يقضى باصطناع تلك الشخصية الفذة والانتفاع بها في إدارة الدولة .

ولقد كان معاوية مرتاح الفسك والضمير إلى ما عمل ، فعند ما فشلت القالة واشتد النكير عليه ، قام في الناس فقال : « أما والله لقد علمت العرب أني كنت أعزها في الجاهلية ، وأن الإسلام لم يزدني إلا عزاً ، وإني لم أتكثر بزياد من ذلة ولكن عرفت حقاً فوضعت موضعته ، ألا إن يكن معاوية قد أظهر في هذه المسألة شيئاً ، فقد أظهر شجاعة أدبية نادرة المثال ، وسعة فكر لا يقاس بها ضيق فكر الخليفة المهدي العباسي الذي أمر في سنة ١٦٠ بإخراج آل زياد من ديوان قريش وردهم إلى ثقيف ؟ »

## زياد بن أبي سفيان<sup>(١)</sup>

(٢)

كانت دعوة معاوية زيادا في سنة ٤٤ ، وسرعان ما عرضت الظروف التي رأى معاوية أن يفتتح فيها بكفاية أخيه الجديد ومواهبه . ذلك بأن البصرة قد اختلت أمورها اختلالا كبيرا ، فكثرت في نواحيها عيث الخوارج ، والتلصص وقطع الطرق ، وفشت في البلد نفسه الآفات التي تلحق الجماعة البدوية متى انتقلت طفرة إلى الحضارة والترف ، فكثرت الفسق وشاع الفجور . وزاد الطين بلة تعصب القبائل بعضها على بعض ، مما جعل البلد يحيا حياة جاهلية إلى حد بعيد . ولقد عجز من ولاهم معاوية أمر البصرة عن إصلاح تلك الحال ، وأصبحت الحاجة ماسة إلى رجل حازم عليم بالسياسة والادارة يضع الأمور في مواضعها ، ويرد فساد ذلك المصر إلى صلاح . ولم ير معاوية أقدر على الاضطلاع بذلك العبء الجسيم من زياد ، فولاه في سنة ٤٥ على البصرة وخراسان وسجستان ، ثم جمع له الهند والبحرين وعمان ، والمراد بالهند هنا ثغر الأبله وما إليها . رأى زياد أن الحال تقتضى حزما وعزما وشدة في بعض المواطن وصرامة ، ولكنه جهد في أن يعمل بالسياسة العمرية القديمة ، سياسة الشدة في غير عنف واللين في غير ضعف ، وإن يكن قد طبقها تطبيقا حرفيا دقيقا في حالات معدودة قصد الإرهاب وقذف الرعب في نفوس المفسدين ، وقد وضع لسياسته برنامجا

(١) النفاة ، العدد ٢٦٠ ، ٢١٦ ديسمبر سنة ١٩٤٣ .

أعلنه في خطبته البتراء التي خطبها الناس بالمسجد الجامع لأول دخوله  
 البصرة . فقد أعلن عزمه على هدم المواخير ودور الفساد ، فقال : « ما هذه  
 المواخير المنصوبة ، والضعيفة المسلوقة في النهار المبصر والعدد غير قليل ؟ حرام  
 على الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدماً وإحراقاً ، . ونهى عن دبلج  
 الليل نهياً باتاً ضرباً على أيدي المتلصصة وقطاع الطرق من الأعراب ، وذلك في  
 قوله : « وإياي ودلج الليل فإنني لا أوتئ بمدلج إلا سفتك دمه ، . ونهى عن  
 دعوى الجاهلية منعا لتعصب القبائل بعضها على بعض . « وإياي ودعوى  
 الجاهلية ، فإنني لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعت لسانه ، ؛ وأعلن تضامن الناس  
 في حفظ النظام : « وإنني أقسم بالله لآخذن الولي بالمولى ، والمقيم بالظاعن  
 والمقبل بالمدير ، والصحيح منكم بالسقيم . . . أو تستقيم لي قناتكم ، . إلا أن  
 زيادا وإن كان قد شد الوطأة على أصحاب الريب والفساد فإنه سمكن خواطر  
 الصلحاء وجهد في استمالة المنحرفين عنه : « فمن كان محسناً فليردد إحساناً ، ومن  
 كان مسيئاً فلينزع عن إساءته ، ، ثم بين لهم حرصه على مصلحتهم : « واعلموا  
 أني مهتما قصرت عنه فإنني لا أقصر عن ثلاث : لست محتجبا عن طالب حاجة  
 منكم ولو أتاني طارقاً ليل ، ولا حابساً رزقا ولا عطاء عن إبانته ، ولا بجمراً  
 لكم بعثاً . أيها الناس . . عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولكم علينا العدل  
 فيما ولينا ،

وكان زياد عند قوله ، فما تعلق عليه أحد بكذبة ، ولقد أنفذ وعيده هذا  
 في حالات تعد على أصابع اليد الواحدة ، بقصد الإرهاب ، لا حباً في سفك  
 الدماء ، فاستقامت أمور البصرة ؛ ولما تم له ذلك تكلف ضبط الأمر في نواحيها  
 فاستسكن كل قبيلة من فيها من الخوارج ، فكسر بذلك شرارة تلك الفرقة العاتية ،

وعم الأمن أطراف البصرة ونواحيها حتى قال زياد : لو فقد جبل بنى وبين خراسان لعرفت من أخذه .

ولقد بلغ من ضبط زياد البصرة وأعمالها أنه لما توفى المغيرة بن شعبة في سنة ٥٠ لم يتردد معاوية في ضم إمارة الكوفة وأعمالها إلى زياد .

كان الخطر بالكوفة آتياً لا من قبل أهل الريب والفساد والخوارج وتعصب القبائل كما كانت الحال بالبصرة ، ولكن من قبل الشيعة الذين كانوا لا يعترفون بسلطان معاوية والذين وجدوا في لعن علي على منابرهم فرصة لإعلان معارضتهم وسخطهم ، فكانوا يقابلون ذلك بلعن معاوية وعماله والترحم على أبي تراب ، ولقد رأى معاوية فيهم خطراً جوهرياً على حكمه فأمر المغيرة ابن شعبة بمراقبتهم .

وكان المغيرة بن شعبة في أخريات حياته رجل رفق ولين وإيثار للعافية ، فكان يكتفي من الشيعة بالإخلاء إلى السكون وعدم مخالفة الجماعة ويدعمهم بعد ذلك يقولون ماشاءوا . فلما أسندت ولاية الكوفة إلى زياد قدمها ، وشد الوطأة على رؤساء الشيعة : حجر بن عدى وأصحابه ، وطوى ما بينه وبينهم من صداقة قديمة ، إيثاراً منه على عادته لأداء واجبه نحو الحكومة التي يخدمها . ولما أحس منهم المقاومة لسلطانه والمجاهرة بلعن معاوية وعماله والترحم على علي ، قبض على حجر بن عدى وبضعة عشر رجلاً كانوا زعماءهم ، واستشهد ناساً من وجوه أهل الكوفة على أن حجراً وأصحابه قد خالفوا الجماعة وشقوا عصا الطاعة ، ثم بعث بهم وبالشهادة عليهم إلى معاوية . وهنا يتورط هذا السياسي الخنك في الأمر ويضيق بهؤلاء نفر حله المشهور ، فيأمر بقتل ستة منهم ، فيهم حجر بن عدى ، قتلوا صبراً . بمرج عذراء بظاهر دمشق سنة ٥١ هـ

وهدأت أحوال الكوفة على أثر ذلك إلى حد أن استطاع زياد أن يكتب إلى معاوية يقول : إنى قد ضبطت العراق بشمالى ويمينى فارغة ، يعرض برغبته فى أن تضم إليه اليمامة ، لا الحجاز كما ورد فى بعض الروايات . فضم إليه معاوية اليمامة وما إليها .

ولم تطل حياة زياد بعد هذا الحادث ، فقد أصابه الفالج وتوفى فى رمضان عام ٥٣ هـ . ودفن بالثوية بظاهر الكوفة .

\*\*\*

ذلك تصوير عام لحياة زياد السياسية . ومنه نرى أن زياداً كان سياسياً حازماً يعرف مواضع الشدة ومواضع اللين ، ويلبس لكل حال لبوسها ، ويداوى كل داء بدوائه ، وقد أخذ ذلك عن الخليفة الثانى ، وكان يتأثره ويجب سماع الحديث عنه ويعمل بسنته ويقضى بقضائه .

وأياً ما كانت الحال فقد جعل رائده أداء الواجب والإخلاص للمصلحة العامة ، ولا أدل على ذلك من موقفه من معاوية عند ما أراد أخذ البيعة بولاية العهد لابنه يزيد ، فقد رأى زياد الأمر جد خطير ، وأن واجبه نحو الإسلام والمسلمين يحتم عليه ألا يعين معاوية على ما يريد ، فكتب إليه كتاباً مؤدباً ينصح له فيه بالترث وعدم العجلة . وحسب زياد فخراً أن معاوية لم يخطط الخطوة الأخيرة فى هذا الأمر إلا بعد موت زياد .

ذلك وجه الحق فى أمر ذلك السياسى الذى عاش فى أيام فتن واضطراب ونقلة من عصر النبوة والخلافة إلى عصر الملك والسياسة : أخذ بالحزم ، وأداء للواجب ، ونصح لولى الأمر . ومع ذلك فثم روايات تصور زياداً طائش السيف ، سفاكاً للدماء بغير حق ، فنزعم أنه قتل الأبرياء بالبصرة ، وأنه قطع

أيدى ثمانين أو ثلاثين رجلا حصبوه وهو على المنبر بالسكوفة ، وأنه دفن رجلا من أصحاب حجر حيا . إن هذه الروايات وأمثالها متهمة ، لأنها صادرة عن رواة الشيعة المنحرفين عن بني أمية ، ومؤرخي بني العباس الذين قضوا على الدولة الأموية . وإلا فكيف يتصور أن ينال زياد بإجماع الأخبار رضا الأئمة المهديين عمر وعثمان وعلي ، وثقة عمالهم سعد وأبي موسى وابن عامر وابن عباس ، وإعجاب الفرس وولاهم ، ثم ينقلب بمجرد وضعه يده في يد معاوية سفاكا سفاحا ؟ ألا إن سبب الوضع والاتحال أو المبالغة على أقل تقدير واضح في تلك الروايات من غير مرأ .

\*\*\*

وكما كان زياد سياسيا حازما ، فقد كان إداريا بارعا ، لا يكاد يلحق به في ذلك الميدان من رجال الصدر الأول إلا قليل . والظاهر أنه لقف صناعة الإدارة أثناء عمله بفارس الإمام علي ، وذلك بمعاشرته الدهاقين وسماعه أخبار الأكاسرة الأولين . عنى بعمارة فارس والعراق . فأما فارس فقد بلغه أن الساسانيين كانوا يضعون عن الناس كل عشر سنوات خراج سنة فاقتدى بهم في ذلك ، فعمرت فارس عمارة عظيمة . وأما العراق فعرف من أول الأمر أهمية الري بالنسبة له ، فحفر عدة أنهار ، منها نهر معقل ونهر الأبله ونهر ديس ، وأكثر من الأقطاع وإحياء الموات . قال المسدائي : « وكان يقطع الرجل القطيعة ويدعه سنتين ؛ فإن عمرها وإلا أخذها منه » .

وقد عمر العراق لعهد عمارة عظيمة . روى البلاذري أن جباية كور البصرة على عهد زياد بلغت ستين ألف درهم ، كان يرسل منها إلى معاوية أربعة آلاف فقط ، وينفق الباقي في أعطيات الجند وعامة ضروب الإصلاح .

وبلغت جباية كور الكوفة على عهده أربعين ألف ألف درهم كان يرسل منها إلى معاوية ثلثي ما يرسل إليه من جباية البصرة ، وينفق ما تبقى في مختلف شئون الكوفة .

وعنى بأمر الأسواق ، فكان يراقب الأسعار مراقبة دقيقة متوخيا مصلحة الجمهور في ذلك . قال المدائني : « غلا الطعام على عهد زياد ، فدفح إلى التجار مالا فابتاعوا به طعاما ؛ وقال زيدوا ربعا ربعا ، فلما رخص الطعام ارتجع ماله » . وربما تنكر ونزل إلى السوق واختبر الموازين والمكاييل بنفسه ، وكان يوقع العقوبة الموجعة بمن يظف كميلا أو يخسر ميزانا .

وعنى العناية كلها بالشرطة والجند ، فاتخذ حرسا مؤلفا من خمسمائة رجل لا يبرحون المسجد ، وجعل الشرطة ٤٠٠٠ رجل ، وبلغت مقاتلة البصرة في زمنه ثمانين ألفاً ، ومقاتلة الكوفة ستين ألفاً . وجعل جند البصرة أحماسا ، وجند الكوفة أرباعا ، مازجا بين القبائل المتباعدة الأنساب ليؤلف بينها ، ويضعف من تعصب بعضها على بعض . وولى على كل خمس أو ربع رجلا من قبل الحكومة بدل سيد القبيلة كما كانت الحال من قبل ، ونقل إلى خراسان خمسين ألفا من عرب المصريين ، وجعلهم أرباعا على نظام جند الكوفة ، فكان ذلك بدء استعمار العرب ذلك الأقليم . وكانت أعطيات الجند وأرزاقهم وأرزاق عيالهم تصرف إليهم من دار الرزق في مواعيد معينة من السنة ، وأكثر ما كان ذلك في المحرم ورمضان .

روى البلاذري أن زيادا سأل أحد جلسائه فقال : ألسنت تعلم أن الأسواق قائمة وأن الاعطيات والأرزاق تخرج إلى شهر معلوم ويبيع البائع إلى شهر معلوم ؟ قال : بلى ! قال : لله الحمد ! لا يزال الناس بخير ما كان أمرهم هكذا .



وكان لزياد شغف بالبناء مع ذوق فيه وحب للنظافة العامة . بنى بالبصرة دار الامارة ؛ وهدم مسجدها ، وكان من القصب ؛ ثم وسعه وبناه بالاجر والجص وسقفه بالساج ؛ ونقل أساطينه من جبل الأهواز ؛ وأنشأ به المقصورة يدخل إليها من دار الإمارة مباشرة دون أن يتخطى الناس . ويروى أنه حين بنى المسجد ودار الإمارة جعل يطوف فيهما وينظر إلى البناء ثم يقول لمن معه : أترون خللا ؟ فيقولون ما نعلم بناء أحكم منه ! فقال : بلى ! هذه الأساطين التي على كل واحدة منها أربعة عقود ؛ لو كانت أغلظ من سائر الأساطين ؛ قالوا ولم يؤت من تلك الأساطين قط تصديق ولا عيب . وقد قال شاعر من شعراء ذلك الوقت في فخامة بناء ذلك المسجد :

بني زياد لذكر الله مصنعة من الحجارة لم تعمل من الطين  
لولا تعاور أيدي الإنس ترفعها إذا لقلنا من أعمال الشياطين

وكذلك وسع مسجد الكوفة واتخذ به مقصورة ، وفرش صحنه وسحن .  
مسجد البصرة بالحصباء حتى لا تترب أيدي المصلين .

وقال المدائني . كان زياد يأخذ صاحب كل دار بعد المطر إذا أصحت برفع ما بين يدي فنائه من الطين ، فمن لم يفعل أمر بذلك الطين فألقى في محلته . ويأخذ الناس بتنظيف طرقتهم من القذر والكناسات ؛ ثم انه اشترى عبيدا ووكلمهم بذلك . وكان زياد يعنى بمظهره الرسمي للخاصة والعامة على السواء . كان يشتمو بالبصرة ويصيف بالكوفة ؛ وكان له مجلس يحضره أشرف المصر يدخلون عليه فيه على السابقة والشرف والحسن ، ويسمرون عنده فيه جالسين على السكراسي ؛ وهو أول من جلس بين يديه على السكراسي ، وكان لا يطعم وحده ولكن مع الصحابة والشرط والمقاتلة ومن حضر ، وكان يغدى الناس ويمشيهم كل يوم إلا

يوم الجمعة فكان يعيشهم فقط ، وكان له قبة يشرف منها على عرض الجند كلما  
أراد ذلك ، وكان إذا برز من دار الأمانة في موكب نخم يسار بين يديه  
بالحراب والأعمدة ، وهو أول من سير بين يديه كذلك .

\* \* \*

ولسيرة زياد الخاصة طرافة وروعة : كان زياد في صباه حسن الهيئة ، حسن  
التياب ذا ذؤابة . وقد وصفه من رآه في أواخر حياته فقال : رأيت فيه حمرة ،  
وفي عينه اليمنى انكسار ، أبيض اللحية ، مخروطها ، عليه قبص مرقوع . وقد أجمع  
الرواة على أن زيادا كان من أخطب الخطباء ، وأنه كان كاتباً بليغاً ومحدثاً لبق  
الحديث . قال الشعبي : « ما رأيت أحداً يتكلم إلا أحبت أن يسكت مخافة أن ينقطع ،  
إلا زياداً فإنه لا يخرج من حسن إلا إلى أحسن » . وكان أبا باراً ببنتاه وأبنائه  
الكثيرين ، وصديقاً وفيماً لم يخل بصداقة المغيرة ولا صداقة بدر بن حارثة الغداني  
الشاعر ، على قلة كلف زياد بالشعر ، ومع ما عرف به بدر من معاقرة الشراب .  
وإن يكن قد تنكر لحجر بن عدي فمن أجل الواجب وحده تنكر . وفوق كل  
شيء فقد كان زياد عفيفاً لم تؤخذ عليه هنة في حياته الخاصة ، زاهداً في الدنيا  
غير حريص عليها . روى الحافظ ابن عساكر في تاريخه أن زياداً لم يكن  
من القراء ولا الفقهاء . ولا يكن كان يعد في الزهاد . وقال الأصمعي : مكث زياد  
على العراق تسع سنين لم يضع لبنة ، ولم يغرس شجرة . يريد أنه لم يختص  
نفسه ببناء ولا زرع تعففاً وزهداً . وكان يقول : أغبط الناس حالاً رجل له  
دار لا يجرى عليه كراؤها وزوجة سالحة قد رضيت ، فهما راضيان بعيشهما ،  
لا يعرفنا ولا نعرفه .

ولما مات زياد رثاه غير واحد من الشعراء ، وقال فيه صديقه بدر  
ابن حارثة :

صلى الإله على قبر وطهره      عند الثوية يسنى فوقه المور  
أدت إليه قريش نعش سيدها      فثم كل التقي والبر مقبور  
أبا المغيرة والدنيا مغيرة      وإن من غربالدنيا لمغرور  
قد كان عندك للمعروف معرفة      وكان عندك للسكران تنكير  
ولا تلين إذا عوسرت معسرا      وكل أمرك ما يوسرت تيسير  
لم يعرف الناس مذ كفتت سيدهم      ولم يحل ظلماً عنهم نور  
والناس بعدك قد خفت حلومهم      كأنما نفخت فيها الأعاصير  
قد يقال تلك زفرة صديق محزون      لفراق صديقه ، ولكن العواطف  
النبيلة ، لا يهيجها عادة إلا ما هو نبيل حقاً .



## محمد بن القاسم الثقفي<sup>(١)</sup>

لو أن من يدرس تاريخ الأمة العربية فنش في ثنايا التاريخ عن شخصية تتمثل فيها سجايا تلك الأمة الكبيرة وعناصر قوتها لما وجد أجمع لتلك السجايا وهذه العناصر من شخصية الفتى الشهيد والفاخر العظيم ، والشاعر الحساس : محمد بن القاسم الثقفي ، الذي شرع في غزو السند في السابعة عشرة من عمره ، وأتمه ولما يتجاوز الثالثة والعشرين ، فأدخل بذلك في الهند الثقافة الإسلامية التي يدين بها في الوقت الحاضر زهاء ثمانين مليوناً من أهلها . إنها شخصية تجمع إلى فناء السن حنكة الكهولة ، وإلى خشونة الجندي رقة الشاعر ، وإلى الحرص على الدنيا زهد الفيلسوف وطماً نينة الحكيم .. وكل صفات اتصف بها العرب في نهضتهم التاريخية الكبرى التي رجعت العالم القديم فنبهته من سباته ورسمت للتاريخ مجرى جديداً . وهو محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم بن أبي عقيل الثقفي ، فهو من ثقيف المشهورة في الجاهلية والإسلام بقوة الدهاء وسعة الحيلة ومضاء العزيمة ، ثم هو بن عم الحجاج ، أمير العراق ورجل الدولة الإسلامية في الربع الأخير من القرن الأول الهجري . يلتقي نسبهما في الحكم بن أبي عقيل . ولد في سنة ٥٧٢ هـ ، ونقع الحوادث مشار ، وريح الفتن نكباء ، والسيوف يتجاوب صليلها في فارس والعراق والحجاز وإفريقية ، فجعل غلامنا يتنفس في جو مكفهر عابس ، ولقف صناعة الحرب سماعاً وعياناً ، ثم شاء ربك رحمة منه بالناس أن يكون إلى جانب

(١) الثقافة ، العدد ٨ ، السنة الأولى ٢١ فبراير سنة ١٩٣٩ .

هذه الحياة القلقة المضطربة الخائفة حياة أخرى آمنة هادئة هي: حياة الأدب الذي يتمثل في الشعر الغنائى الرقيق المأثور عن ابن أبي ربيعة ، وجميل ، وكثير ، والتميز وغيرهم من شعراء ذلك الزمان فعشا نظر الفقى الثقفى الحائر إلى ذلك النور المشرق . فجاءه واهتدى به ، وهفت نفسه العطشى إلى ذلك المورد العذب فورده وار توى منه ، وبذلك اعتدل مزاجه ، ورقت حواشى نفسه ، وأصبح وهو فى السابعة عشرة من عمره أشرف ثقفى فى زمانه كما يقول صاحب الأغانى ، وأقبل الحجاج ، وهو هو فى نقد الرجال وتمييز الكفائيات ، يعقد به آمالا كباراً ، ويرشحه على حداثة سنة للأمر الجليل بعد الأمر الجليل .

\* \* \*

لم يكد ينتصف العقد التاسع من للقرن الأول الهجرى حتى كانت الفتن التى صدعت وحدة الدولة الإسلامية من بعد معاوية قد رككت ريجها ، فانهت ثورة ابن الزبير بالحجاز ، وكسرت شوكة الخوارج بفارس ، وسكنت العاصفة الهوجاء التى أثارها ابن الأشعث بالعراق . هنالك عاود العرب حبهم القديم للفتح والتغلب ، وكان الحجاج واضع سياسة ذلك الاتجاه الجديد ومنفذها ، فغزا قتيبة بن مسلم ما وراء النهر وأوغل فيها ، وتوطد سلطان الدولة ببلاد عمان ، وغزا موسى بن نصير المغرب ، وقرع أبواب الأندلس نفسها . وقد أراد الحجاج أن تأخذ ثقيف بنصيبها من شرف هذه الفتوح الجسام ، فأغزى ابن عمه محمد بن القاسم السند التى هى مدخل ذلك العالم الزاخر بالناس والحافل بالخيرات ، والذى يسمى بلاد الهند .

الحق أن الحجاج لم يتسكّر سياسة غزو الهند ، فقد عرف هذه البلاد عرب شرقى الجزيرة منذ الجاهلية ، وطالما ركبوا البحر إلى شواطئها مستبضعين وتجاراً .

فلما قامت الدولة الإسلامية طمعوا في غزوها وتملكها : يروى صاحب فتوح  
 البلدان : إن عمر بن الخطاب ولي عثمان بن أبي العاص الثقفي البحرين و عمان سنة  
 ١٥ هـ فوجه أخاه الحكم إلى البحرين ومضى إلى عمان ، فأقطع جيشا إلى تانة  
 ( قريب من موقع بومباي الحاضرة ) فلما رجع الجيش كتب الى عمر يعلمه .  
 فكتب إليه عمر : يا أخا ثقيف ! حملت دودا على عود ، وإنى أحلف بالله أن  
 لو أصيدوا لأخذت من قومك مثلهم ، . وتتابع غارات عرب البحرين من  
 عبدالقيس وغيرها على شواطئ الهند وجزائرها ، وخاصة جزيرة سيلان التي  
 كان يقال لها اذ ذاك « جزيرة الياقوت ، لحسن وجوه نساها ، فن هؤلاء  
 العرب من أفلح في المقام بها ، ومنهم من عاد الى بلاده لهملء يديه السبي الرائع  
 والمغتم الوافر . هذا من ناحية العرب . أما من ناحية الهند أنفسهم فقد  
 هاجرت منهم في الجاهلية طوائف إلى رأس الخليج الفارسي وخضعت للدولة  
 الفارسية القديمة ، فلما مصرت البصرة نزلوها وحالفوا من بها من العرب .  
 فلما كان زمن الحجاج أغزى عماله على مكران نغر السند ، فكلمهم كان ينسكب  
 أو يقتل . وأرض السند عبارة عن حوض نهر السند العظيم ، تنزلها قبائل عديدة  
 قوية نذكر منها الزط والسيابجة والميد والبرهه . وكان بالسند بلدان كثيرة منتشرة  
 في أهضام الأودية ورووس الجبال . منها الديبل ، وكانت نغر السند قبل كراتشي  
 الحاضرة وبرهمناباذ وراور والملتان . وكانت هذه البلدان قوية غنية بمعابدها  
 البوذية القديمة وخاصة معبد الملتان . قال البلاذري « وكان بد الملتان تهدي إليه  
 الأموال ، وتنذر له الذنور ، ويحج إليه السند ، ويطوفون به ويحلقون رؤوسهم  
 ولحاهم عنده ، ويزعمون أن صنما فيه هو أيوب النبي صلى الله عليه وسلم . أما الناحية السياسية  
 فقد كان يتوزع بلدان السند وقبائلهم عدة ملوك متقاطعي الكلمة مختلفي الأهواء .

وكان أقوامهم سلطانا إبان غزو العرب للسند ملك يقال له داهر ، فهو الذي أشجى قواد الحجاج وأذاقهم مرارة الهزيمة المرة بعد المرة . والطريف أن مصرع هؤلاء القواد لم يحمل الحجاج على الجسد في قتال داهر بمقدار ما حمله عليه استغاثة امرأة عربية اعتدى عليها ، وعلى نسوة عربيات كن معها ، بعض قراصين البحر من أهل السند التابعين لداهر .

وذلك أن ملك جزيرة الساقوت فيما يروى البلاذري ، أراد التقرب من الحجاج ، فأهدى إليه نسوة ولدن في بلاده مسلمات ومات آباؤهن وكانوا تجارا . فعرض للسفينة التي كن فيها قراصين من ميد الديبل فأخذوا السفينة بما فيها ، فنادت امرأة منهن من بني ربوع : يا حجاج ! بلغ الحجاج ذلك ، فقال لبيك ! وأرسل من فوره إلى داهر يسأله تخليته النسوة . فأجاب بأنه إنما أخذهن لصوص لاقدرة له عليهم . فأغزى الحجاج اثنين من عماله نغر السند ، فكلاهما قتل . فاهتاج الحجاج وتجرد لقتال داهر . وكان قد أعد محمد بن القاسم لغزو الري فلما حدث ما حدث على حدود السند رأى في هذا الشاب من يرأب الصدع ويدرك الثأر . فرده عن غزو الري وعقد له على مكران ونغر السند ، وأمره أن يقيم بشيراز حتى توافيه القوة التي أخذ بعدها لقتال داهر .

كانت هذه القوة مؤلفة من جيش وأسطول . أما الجيش فكانت عدته زهاء عشرين ألف مقاتل ، منهم ستة آلاف فارس من جنود الشام الذين كانوا عدة الدولة الأموية ومعرفها والذين وطأوا للأمويين أكتاف ملسكهم شرقا وغربا وشمالا وجنوبا . وأما الأسطول فكان يحمل المشاة والمؤن وعدد الحرب الثقيلة . ومن هذه خمس مجانق ضخام ، يقال لأكبرها ( العروس ) . ويروى البلاذري أنه كان يمد فيها خمسمائة رجل . وبالغ الحجاج على عاداته في إعداد الجيش حتى

أنه ... جهزه بكل ما احتاج إليه من الخيوط والمسال وعمد إلى القطن المحلوج فنقع في الخل الخمر الحاذق ثم جفف في الظل ، فقال إذا صرتم إلى السند فإن الخل بها ضيق فانقعوا هذا القطن . ثم اطبخوا به واصطبغوا ، ثم تقدم إلى محمد ألا يقطع عنه أخباره بحيث يختلف البريد بينهما مرة كل ثلاثة أيام .

\* \* \*

خرج محمد بن القاسم بجيشه من شيراز ، سنة ٩٠ هـ ، فسار مشرقا متبعا ساحل البحر يطوى الحزون والسهول ، ويجوب المهامه والقفار ، ويحدوه ما يحدو الشباب الحثي من حب للهجد وتعلق بأسباب المعالي ، فتغلب على صحارى كرمان ومكران ، وبلغ الديبل سالما . ولم يكذب يحط رحاله حتى كان الأسطول قد وافاه بها . فشرع من فورهِ في مهاجمة المدينة . قال صاحب فتوح البلدان : «فقدم الديبل يوم الجمعة ، ووافته سفن كان حمل فيها الرجال والسلاح والأداة ، فخذق حين نزل الديبل ، وركزت الرماح على الخندق ، ونشرت الأعلام ، وأنزل الناس على راياتهم ، ونصب منجنيقا تعرف بالعروس كان يمد فيها خمسمائة رجل . وكان بالديبل دبد ، عظيم عليه دقل طويل ، وعلى الدقل (سهم السفينة) راية حمراء إذا هبت الريح أطافت بالمدينة وكانت تدور ... وكانت كتب الحجاج ترد عليه بصفة ما قبله واستطلاع رأيه فيما يعمل به في كل ثلاثة أيام . فورد على محمد من الحجاج كتاب : أن انصب العروس وأقصر منها قامة ، ولتسكن مما يلي المشرق ، ثم ادع صاحبها ، فره أن يقصد برميته الدقل الذي وصفت لي ، فرمى الدقل فيسكر ، فاشتد طرة (جزع) السكر من ذلك . ثم إن محمداً ناهضهم وقد خرجوا إليه فهزمهم حتى ردهم ، وأمر بالسلالم فوضعت وصعد عليها الرجال ... ففتحت عنوة ... وهرب عامل داهر عنها ... واختط محمد للمسلمين بها ، وبني



مسجدا، وأنزلها أربعة آلاف، ثم سار محمد مصعبا مع النهر يريد داهرا، وعظم جيشه فاستولى على مدينة الراور صلحا. وانضم إليه على أثر ذلك أربعة آلاف من الزط، وصار كثير من قبائل السند عون له في حربه مع داهر. ثم عبر نهر مهران والتقى بداهر وجيشه. وكان على فيل عظيم ومن حوله الجند على فيلة تنذر محمدا وجيشه بفتك ذريع. ولكن محمدا اتقى شر الفيلة بقذائف النفط الملتهب يرميها بها، فهاجت واحترقت هوادجها بمن فيها من الجند. وانتشبت بين الفريقين قتال هائل انجلى عن قتل داهر وتمزق جيشه وتراجع فلوله إلى مدينة برهمناباذ. واقنق محمدا أثر تلك الفلول فاستولى على مدينة راور فبرهمناباذ نفسها، ومن ثم زحف إلى مدينة الراور فحاصرها أشهر ثم دانت له على أن يحقن دماء أهلها وألا يعرض لبدنهم، وأن يؤديوا إليه الخراج. وقد وفى لهم بشرطهم وبني بالمدينة مسجدا. ثم قطع نهر بياس إلى الملتان، أعظم بلدان السند العليا، فامتعت عليه أول الأمر، ثم استولى عليها بممالة رجل من أهلها له. ووضع يده على أموال جسيمة كانت بمعبدها البوذى.

كانت الملتان أقصى ما وصل إليه ابن القاسم من ناحية الشمال، قال البلاذرى: «ونظر الحجاج فإذا هو قد أنفق على محمد بن القاسم ستمين ألف ألف درهم، ووجد ما حمل إليه عشرين ومائة ألف ألف، فقال: شفيننا غيظنا وأدركنا نارنا وازددنا ستمين ألف ألف درهم ورأس داهر».

أخذت الملتان سنة ٩٥ هـ. وعلى أثر ذلك أتت محمدا وفاة الحجاج فقفل راجعا نحو الجنوب مستوليا في طريقه على مدن ملوك آخرين غير داهر. وكان آخر ما فتح مدينة يقال لها (الكيرج) استولى عليها عنوة سنة ٩٦ هـ. ثم أتاه نعي الخليفة الوليد بن عبد الملك وولاية أخيه سليمان، فلم يبرح تلك المدينة.

وقلب له الدهر من ذلك الوقت ظهر المجن ، وأخذ نجمه في الأفول .

\*\*\*

لاشك أن الحجاج كان موفقا عندما عهد إلى ذلك الشاب قيادة تلك الحملة الخطيرة . فإن محمدا بمحداثة سنه وصدق فروسيته قد ملك زمام أصحابه . فلا نسمع أن أحدا منهم حدثه نفسه بخلاف عليه أو عصيان له . ثم إنه بهذه الخلال نفسها وبرجاجة عقله وسعة قلبه اجتذب قلوب السند أنفسهم ، فقد قارنوا بينه وبين ملوكهم المترفين المتجبرين المتخاذلين فلم يتمالك كثير من قبائلهم أن أعطاه الطاعة وأخذ جانبه في الحرب كما سبق القول . ويروى إنه عندما شرط عليه أهل مدينة الراور ألا يقرب بدعم وفي لهم بذلك وقال : وما البد إلا ككنائس النصرارى واليهود وبيوت نيران المجوس . . . وكانت حكومته إياهم عادلة رفيقة إذا قيست بحكومة ملوكهم وأمراءهم ، فقد تقدم إلى عماله بهذه النصيحة : « أنصفوا الناس من أنفسكم ، وإذا كانت قسمة فأقسموا بالسوية ، وراعوا في فرض الخراج مقدرة الناس على أدائه ولا تختلفوا ولا تنازعوا فتشقى بهم البلاد . ثم إنه كان مدركا كل الإدراك أن عليه واجبين عظيمين : عليه أن يأنس في البلدان التي فتحها الثقافة الإسلامية ، وأن يصل بين الشرق والغرب الإسلاميين . من أجل ذلك كان إذا فتح مدينة أنزلها بعض أصحابه ، وبنى بها مسجدا ، ومن أجل ذلك نقل طوائف من الرظ والسيابجة إلى العراق . فأنزل الحجاج بعضهم كورة كسكر بفارس ، ووجه بقيتهم إلى الخليفة ، فأنزلهم أنطاكية وسواحل الشام لينتفع بخبرتهم البحرية في قتال الروم ، كذلك أرسل إلى الحجاج فيلثة سميت ببعضها مشرعة الفيل التي كانت بواسط .

كما بعث إليه أول جزءه بألاف من الجواميس السندية ، فأطلق الحجاج

بعضها في آجام كسكر وكور دجلة ، وبعث كثيرا منها إلى الخليفة فأطلقها في  
الآجام التي بين أنطاكية والمصيصة ، واتفق بها سباع تلك الآجام وكانت قد  
كثرت وأخافت السابلة . وقد نمت هذه الماشية بالعراق على مر الزمن حتى  
أصبحت من أسباب ثروته الاقتصادية في الوقت الحاضر .

تلك غزوة محمد بن القاسم للسند . إنها لا شك تذكرنا بغزو الاسكندر  
المقدوني لتلك البلاد نفسها في آخريات القرن الرابع قبل الميلاد . فالغزوتان  
تشابهان من عدة وجوه : تشابهان من حيث أن كليهما برية بحرية إلى حد بعيد ،  
ومن حيث حداثة كلا الفاتحين وكفائته ، ومن حيث أن كليهما نهج في نشر ثقافته  
بالسند نفس المنهج الذي نهجه الآخر ، ومن حيث أن كليهما كان يهدى إلى  
أستاذه طرفا من طرف فتوحه ويراسله مستطلعا رأيه ، فالفاتح المقدوني كان  
يهدى إلى أرسطو ويراسله ، والفاتح العربي كان يهدى إلى الحجاج ويراسله مصدرا  
في بعض المواقف عن رأيه . ولو أن أهل السند الذين غزاهم ابن القاسم  
والذين قد يكون منهم من يدين بشريعة التناسخ ذكروا تاريخ بلادهم القديم فربما  
رأوا في الفاتح العربي الحديث انبعاث روح الفاتح المقدوني القديم .

\*\*\*

وبعد فماذا كان مصير ذلك الفاتح العظيم ؟ لقد جوزى جزاء سنا، وصار إلى  
شر مصير ، فقد نسكه الخليفة سليمان بن عبد الملك نسكة كان فيها تلف مهجته  
وبوار نفسه . والمصادر القديمة مختلفة في تعليل تلك النسكة : فالمصادر الفارسية ،  
وهي حديثة نسبيا وغير موثوق بها ، تزعم أن بنات داهر أفضين إلى الخليفة بأن  
ابن القاسم عبث بهن ، فاضطرم الخليفة غيظا ، وأمر بمحمد فوضع في أديم بقرة ،  
ثم خيط عليه الأديم وحمل إلى دمشق ، وفاضت روحه بالطريق . فلها بلغ بنات

داهر مصرع الفتي استشعرن الندم وقلن إنهن تجنبن على ابن القاسم ، انتقاما ممن  
قتل أباهن وثل عرشه ، فاشتد غضب الخليفة عند ذلك ، وأمر بهن فقتلن شر  
قتلة : أما المصادر العربية ، وهي أقدم من المصادر الفارسية وأوثق ، فلا تذكر  
شيئا من أمر النسوة ، ويؤخذ منها أن الخليفة سليمان بن عبد الملك كان مضطغنا  
على الحجاج لأنه كان قد زين للخليفة الوليد بن عبد الملك خلع سليمان من ولاية  
العهد : أما وقد فارق الحجاج هذه الدنيا فقد رأى سليمان أن يشفي غيظه من  
أقربائه ، متأثرا في ذلك بنظام الثأر عند العرب . وقد أذكى نار الحقد والموجدة  
في صدره رجلان كلاهما قد وتره الحجاج وكلاهما كان متأثرا بالعصبية القبلية  
بين قيس واليمن : أحدهما يزيد بن المهلب ، وكان أثيرا مكينا لدى الخليفة ،  
والآخر صالح بن عبد الرحمن وقد ولاه سليمان خراج العراق .

عزل محمد عن السند ، وولى مكانه يزيد بن أبي كبشة السكسكي ، فأخذ محمدا  
وقيده وسيره إلى العراق مع رجل من بني المهلب على حال حركت قلوب أهل  
السند ، فسكوا عليه وصوره أهل الكيرج بمدينتهم التي كان منها شخوصه . وقد  
تلقى محمد المحنة صابرا محتسبا ، ولم يكن في محنته أقل شجاعة وصبرا وأنفة منه  
وقت الحرب وحين البأس . والغريب أنه على إخلاص أصحابه له وعطف السند  
عليه لم تحده نفسه بالخلاف والانتقاض . والظاهر أن أيقن أنه قد أدى واجبه  
وأن الحياة قد أصبحت بعد ذلك لغوا وفضولا لا طائل فيه . وقد جعل يسرى  
عن نفسه بمقطوعات من الشعر ضمنها آلامه وخواطر نفسه . فمن ذلك قوله  
مشيرا إلى أنه لو أراد الثورة لشق على أعدائه تهضمه :

ولو كنت أجمعت القرار لو طئت      أناك أعدت للوغى وذكور  
وما دخلت خيل السكاسك أرضنا      ولا كان من عك على أمير

ولا كنت للعبيد المزوني تابعا      فيالك دهر بالكرام عثورا  
ولما صار إلى واسط حبسه صالح بن عبد الرحمن فقال :  
فلئن ثويت بواسط وبأرضها      رهن الحديد مكبلا مغلولا  
فلرب قينة فارس قد رعها      ولرب قرن قد تركت قتيلا  
وعذبه صالح في رجال من أقرباء الحجاج حتى قتلهم ، فطلق الشعراء  
يرثون محمدا ويذكرون فضائله ، فمن ذلك قول بعضهم :

إن المرودة والسماحة والندي      لمحمد بن القاسم بن محمد  
ساس الجيوش لسبع عشرة حجة      ياقرب ذلك سؤددا من مولد  
وقال آخر :

ساس الجيوش لسبع عشرة حجة      ولداته عن ذاك في أشغال  
تلك خاتمة فتيان العرب وسيد فرسانهم غير مدافع . فمن مبلغ مسلمي  
الأرض عامة والهند خاصة أن الدوحة الإسلامية العالية التي أظلت بلاد الهند  
طوال العصور الوسطى إنما كانت غرس ذلك الفتي العربي النبيل ؟ فلينذكر  
ذلك الذاكرون فقد تبل الذكرى رفات ذلك الشهيد في قبره ، بعد أن عدم في  
حياته من محمد بلاه أو يرحم شبابه ؟

## عمر بن عبد العزيز<sup>(١)</sup>

٦٢ - ١٠١ هـ

والله

ود الحكماء من قديم لو أن ملوك الأرض كانوا فلاسفة ، أو لو أن  
الفلاسفة كانوا ملوكا ، إذن لاقتربت السياسة بالأخلاق على أساس ثابت  
مطرد . وتعاوننا جميعا على النهوض بالمجتمع الإنساني ، ولاستحلال عالمنا المضطرب  
جنة راضية ونعيمها مقيما .

وكثيرا ما كتب الحكماء في نظم عامة ابتدعتها أختياتهم وزعموها توفر على  
الناس في هذه الدنيا اللذة والسعادة ، وتنبئ عنهم الألم والشقاوة : فعل ذلك  
أفلاطون في « الجمهورية » ، والفارابي في « أهل المدينة الفاضلة » ، وتوماس مور في  
« أوطوبيا » ، كما فعله كثير غير هؤلاء ممن ترسم آثار أفلاطون ونسج على منواله .  
هذا الحلم الجميل تحقق أو كاد في التاريخ مرة واحدة على ما نعلم ، وذلك على  
عهد الخليفة العربي المسلم : عمر بن عبد العزيز ، فهو رجل ألقنت إليه المقادير بزمام  
أعظم دولة في الأرض في زمنه ، ومع ذلك استطاع أن يقدر شهوته حتى كاد  
يميتها ، وأن يروض نفسه حتى ردها إلى الرضا بالقليل الأقل . ثم تجرد لإصلاح  
رعيته من طريق العدل والرفق والرحمة ، فأذاقهم لذة الأمن واليسر والرضا .  
وفوق هذا وذاك قد ترامت همته إلى ما وراء قومه وبلاده ، فطمع أن يجمع  
شعوب الأرض طرا في نظام واحد يقوم على مبادئ الأخوة والعدالة والمساواة .

(١) الثقافة ، العدد ١٤ ، السنة الأولى ، ١٥ أغسطس سنة ١٩٣٣ .

وقد وفق ابن عبد العزيز في هذا المطمع البعيد توفيقا حد من مقداره، يالأسف،  
أن عجلت إليه المنية وهو لا يزال في ميعة العمر وعنفوان الحياة .

\*\*\*

قد اجتمع في تكوين هذه الشخصية العجيبة عاملا الوراثية والبيئة معا .  
فأبوه عبد العزيز قد ولى مصر عشرين سنة دلت على ثقافته العالية واضطلاعه  
بأعباء الحكم ، وبصره بتألف القلوب . وجدده مروان بن الحكم هو ذلك السياسي  
الجرىء العارف بنفسية الأفراد والجماعات ، والخبير باتهاز الفرص عند إمكانها .  
وأما نسبه لأمه ، فأمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب ، وكفى  
باتنسابه إلى تلك الشخصية العظيمة تعريفا بسبب من أسباب ورعه وجرامته في  
الحق على نفسه وغيره .

وليس أثر البيئة في تكوين ابن عبد العزيز بأقل من أثر الوراثة . فقد  
ولد بالمدينة عام ٦٢ هـ وشب بها على أصح الروايات . فلما ولى أبوه مصر عام  
٦٥ هـ حمل إليه ، ولبت بمصر زمنا ما ، نعم فيه بصحبة أبيه ومشاهدة آثار  
الحضارة المصرية والبيزنطية . وهنا رحته دابة فشحج شجته التي عرف من أجملها  
بأشجج بنى أمية ، فلما بلغ سن التأديب بعث به أبوه إلى المدينة ليتأدب بها وينشأ  
نشأة إسلامية مدنية ، وكانت المدينة إذ ذاك بيئة مركبة غير بسيطة ، يعرف  
فيها من يحملها الروح الديني الصحيح مائلا في نفر من بقايا الصحابة وكبار  
التابعين ، أمثال أنس بن مالك وعبد الله بن عمر وسعيد بن المسيب وعبيد الله  
بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، كما يعرف فيها الجانب الأرفه من الحياة ، ممثلا في  
مثل عبد الله بن جعفر أول نصير لصناعة الغناء العربي ، وطائفة من المغنين  
والقيان يتقدمها معبد ومالك بن أبي السمح المغنيان المديان الشهيران . ثم إن

المدينة كانت إذ ذاك من الناحية السياسية موطناً للمعارضة التي تستند إلى الكتاب والسنة في مقاومة الحكومة الأموية . في هذه البيئة تخرج ابن عبد العزيز ، فروى الحديث عن حملته ورواته ، ولقف صناعة الغناء وأعاناه على المساهمة فيها صوت ندى عذب . كما أشرب روح الحكومة الإسلامية القديمة التي كانت تختلف عن الحكومة الأموية اختلافاً كبيراً . إلى ذلك كله كان ابن عبد العزيز فتى مليح الخلق ناعماً مترفاً كعادة فتيان بني أمية . يروى أنه أبطأ يوماً عن الصلاة فسأله مؤدبه صالح بن كيسان عن سبب إبطائه فقال : « كانت مرجلتى تسكن شعري ، فكتب مؤدبه بذلك إلى أبيه ، فبعث أبوه رسولا فلم يكلمه حتى حلق شعره » .

\*\*\*

في عام ٨٥ هـ توفي عبد العزيز بن مروان بمصر ، وكان ابنه عمر قد تم تأديبه بالمدينة ، فاجتذبه الخليفة عبد الملك بن مروان إلى الشام وزوجه من ابنته فاطمة ، ثم ولاه « خنصرة » وهي بليدة من أعمال حلب واغلة في البادية . فلبث والياً عليها سنتين كانتا من أنعم سني حياته وحياة زوجته . وقد أعجبه خنصرة حتى أنه عندما استخلف اتخذها منزلاً على عادة ملوك بني أمية في إيتارهم سكنى البادية على الحاضرة . وفي عام ٨٧ هـ اختاره الخليفة الوليد بن عبد الملك لولاية المدينة بدلاً من هشام بن إسماعيل المخزومي الذي أساء السيرة في أهلها ، ولا شك أن الوليد إنما اختار عمر للمدينة لما يعلم من المشاكلة القوية بينه وبين هذه الولاية ، ثم إنه بعد قليل ضم إليه مكة والطائف فأصبح عمر بذلك أميراً على الحجاز كله .

كانت حكومة عمر بن عبد العزيز بالحجاز (٨٧ - ٩٣ هـ) حكومة شورية



أبوية يمازجها من ناحيته الشخصية مقـدار غير قليل من الحرص على الترف والتنعم . فلأول قدمه المدينة اصطفى عشرة من العلماء اتخذهم نصحاء ومستشارين يصدر في الأمور عن رأيهم ، ثم عكف على إصلاح شؤون الحجاز : فهدم المسجد النبوي وأعاد بناءه على نحو أوسع وأروع ، وأصلح الطرق ، وأكثر من الآبار فتيسر بذلك الماء في ذلك القطر الظمى ، كما أنه عمل بالمدينة فوراة يستقى منها أهلها . وقد أعجب الخليفة بتلك المنشآت عند ما زار المدينة سنة ٩١ هـ وأمر للقواراة بقوام يقومون عليها ، وأن يسقى أهل المسجد منها ، ففعل عمر ذلك . ومن مظاهر بساطة عمر في إمارته بالحجاز أنه جلس يرتل القرآن بصوته العذب فتأذى بذلك سعيد بن المسيب على غير علم منه بصاحب الصوت ، فلم ير عمر بأسا بأن ينتحى ناحية أخرى من المسجد . وبلغه أن قاضيه على المدينة استخفه الطرب عند ما سمع جارية تغنى حتى أخرجته من وقاره ، فعزله عمر . ولكن القاضى المعزول تحدى الأمير لسباع الجارية ، فسمعها عمر وكاد هو أيضا يستخف . فعذر القاضى ورده إلى عمله . وعند ما قدم الفرزدق الشاعر المدينة وكانت السنة ممحلة وخاف أهل المدينة لسانه رفعوا أمرهم الى عمر فأخرجه من المدينة ونهاه أن يعرض لأحد من أهلها بمدح أو بهجو . أما من حيث حياة عمر الشخصية في تلك الفترة فكان مترفا مسرفا في الترف ، يرخى شعره ويسبل إزاره ، ويلبس الثوب تبلغ قيمته مئاة الدنانير ، ويكثر من الطيب حتى لتصف ريحه إذا مشى مشيته العمرية ، ، وهى مشية كان يتبخر فيها ويختال ، ولملاحظتها كانت الجوارى تأخذها عنه .

حادث واحد نغص على ابن عبد العزيز إمارته على الحجاز : ذلك مصرع خبيب بن عبد الله بن الزبير؛ فقد نغم الخليفة الوليد من خبيب أشياء بلغت منه ،

وكتب إلى عمر أن يضربه ، فضربه عمر ضربا كان فيه هلاكه . وقد جزع عمر لذلك جزعا شديدا ، ويقولون إنه لبس المسوح سبعين يوما حدادا على خبيب ، ثم ألق عن ذلك . فلما استخلف دفع دية خبيب إلى أوليائه ؛ ومع ذلك كان يرى أن الله لا بد مؤاخذه بذلك الذنب ، فكان إذا بشره أحدهم قال : « وكيف بخبيب ! »

وغدا الحجاز ينعم بأمن وعافية مما ابتليت به الأمصار الأخرى ، ولا سيما العراق ، من الفتن والقلائل . ولذلك أخذت فلول ثوار العراق والخوارج تفد على الحجاز فرارا من وجه الحجاج وسيفه المسلول ، فكان ابن عبد العزيز يجهدهم ويحميهم . ثم لم يكتف بذلك : فكتب إلى الخليفة يندد بعسف الحجاج وبطشه . فاضطغنها الحجاج عليه ، وكتب إلى الخليفة يشكو من أن أمير المدينة يجير « مرق » العراق وأن ذلك موهن له . وقد نظر الخليفة في الأمر مليا ، ثم رأى أن يشد أزر الحجاج في هذه الخصرمة ، فالعراق أخطر من الحجاز . والحجاج أولى بالمصانعة من عمر بن عبد العزيز . فصرف عمر عن الحجاج بأمرين : أحدهما للمدينة والآخر لمكة . فكان أول ما صنعا أن أخرجا من الحجاز إلى الحجاج كل عراقي في الجوامع والأغلل ، وتوعدا كل حجازي أنزل عراقيا أو أجره دارا .

\* \* \*

خرج ابن عبد العزيز من الحجاز إلى الشام مغاضبا للخليفة الوليد ، وقد ساءه أن عزل عن إمارة المدينة حتى قال لمولاه مزاحم وهو ببعض الطريق : « أخشى أن أكون ممن تنفيه المدينة » ، إشارة إلى الحديث الوارد في أن المدينة

تنفى حبيثها . فلما حصل بالشام شغل نفسه بالغزو فرارا من وجه الوليد والتماس الأجر والسوة . فلما توفي الوليد عام ٥٩٦ هـ وولى سليمان بن عبد الملك لزمه عمر وكان أثيرا عنده يستشير به سليمان وينزل على رأيه في كثير من الأمور . على أن عمر نفعه أن عزل عن الإمارة على النحو المتقدم : فقد دفعه ذلك في السنوات الست التي قضاها بالشام قبل أن يستخلف (٩٣ - ٥٩٩ هـ) إلى النظر في حال الدولة العربية في أواخر القرن الأول الهجري .

نظر فإذا الدولة الإسلامية قد أهدت في التخلي عن الصفة الدينية التي كانت لها قديما ، وأسرفت في الاصطباغ بالصبغة الزمنية المتطرفة ، أليست حكومة عبد الملك والوليد والحجاج ويزيد بن المهلب حكومة تجبر وطغيان؟ أليست حكومة سليمان حكومة الشهوة العطشى والجسد المنهوم؟ لقد أصبح السلطان يعتمد في شد أركانه وتقوية دعائمه على القوة الغشوم والسيوف المرهف . أما العدل وأما الرفق وأما الرحمة: فلم يعد لكل ذلك عنده محل ولا حساب . ونظر فإذا أحوال الدولة قد عراها الخلل والاضطراب من كل نواحيها . فنحو ثلث أموال الدولة قد استحالت ملكا خاصا لبني أمية ، وأكثر الضرائب يجبي من غير وجوهه ، ويصرف في غير مصارفه الشرعية . فكثير من الأراضي الخراجية التي لا يصح تملكها قد استحالت أرضا عشرية يتملكها أفراد من المسلمين يؤدون عنها الزكاة التي مقدارها أقل من مقدار الخراج ، وكثير من الموالى أو مسلمى الأماجم لا يزالون مع إسلامهم يؤخذون بالجزية لغير ما سبب سوى أن العمال لحظوا في إسلامهم معنى الفرار من الجزية فأبوا أن يعفوهم منها . هذا فوق أن هؤلاء الموالى لم يكنوا والعرب سواء في الحقوق ، فكانوا يغزون إلى جانب العرب دون أن يكون لهم عطاء . ثم إن عدم إنفاق الزكاة في مصارفها الشرعية قد أدى إلى كثرة الفقراء

والمساكين والمرضى والزمنى ممن جعل لهم الشرع حقا في الصدقات العامة . ثم نظر فرأى بأس الأمة الإسلامية بينها شديدا ، قد توزعتما الفرق المتباغضة والأحزاب المتناحرة ، فمن شبيعة بطوون الصدور على الإحن لما نالهم به بنو أمية من أذى ومساءة ، ومن خوارج يتحيمون الفرص لهدم النظام القائم وإحلال نظاهم محله ، ومن موال قد ساءهم ألا يسوى بينهم وبين العرب في الحقوق العامة ، ومن مضرية ويمنية وربعية ، كل يحاول أن يكون له النفوذ السيامى من طريق الولاية على الأقاليم والتأثير في السلطان نفسه . هذا في الداخل أما في الخارج فرأى عمر أن الجهاد الذى شرع على عهد النبي صلى الله عليه وسلم لمنع العدوان على النفس والعقيدة ، والذى كان على عهد الشيخين ضرورة اقتصادية ملحة ، قد استحال في زمن الأمويين أداة للتوسع في السلطان . وجر المغنم الوافر ، والسبي الرائع ، حتى قال الشاعر :

الأذهب الغزو المقرب للغنى ومات الندى والجود بعد المهلب

نظر عمر في كل ذلك فرده إلى سبب جوهرى واحد : هو انحراف الجماعة الإسلامية عن الأساس الذى قامت عليه : أساس الدين ، والدين عند عمر هو الدين المتصل بالحياة العامة يمددها ويغذيها بقوته المعنوية ، والممسك لثئون الجماعة أن تضطرب وتصبح فوضى ، هو الدين الذى أثره في الحاكم شعور قوى بالمسئولية وعمل صادق على إسماعاد العباد والترفيه عنهم ، والذى أثره في المحكومين اقتضاء للعدل إذا حرموه ؛ وأنفة من الضيم والذل إذا ما أريدوا عليهما . الدين عند عمر بن عبد العزيز : هو الحق والإنسانية عبر عنهما بلفظ واحد .

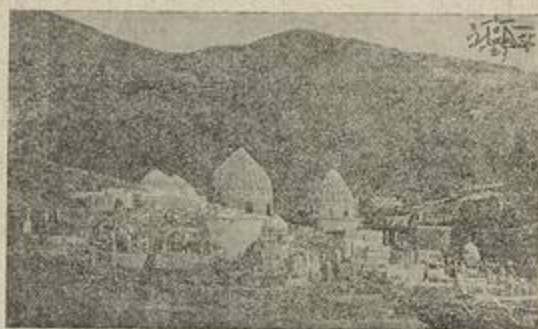
وبينا عمر يرسل الفكر في أنحاء الحياة الإسلامية العامة متعرفا علها إذا به في الوقت نفسه قد أخذ يخضع لتطور نفسانى عنيف . لقد أخذ حرصه على الترف

والتنعم يضعف رويداً رويداً ، ويميله إلى الزهد والتسك يقوى شيئاً فشيئاً ، وأصبحت نظراته إلى الحياة نظرة إلى متاع قليل زائل ، لا يعدل شيئاً بجانب طمأنينة النفس وراحة الضمير ، كما أصبح دائم التفكير في الموت وفيما بعد الموت : فالموت آت لا ريب فيه ؛ والموت برزخ مؤدٍ إما إلى جنة وإما إلى نار ، والمستهي على كل حال رهين بما سيكون عليه المرء في العدوة الدنيا من ذلك البرزخ الرهيب .

ماسر هذا التطور العجيب الذي جعل من ابن عبد العزيز الناعم المترف ناسكاً زاهداً متصوفاً ؟ نتبين ذلك السر في نفسية ابن عبد العزيز من جهة ، وفي مقدار تأثره بالحياة الإسلامية العامة لذلك العهد من جهة أخرى . لقد كان في عمر نزوع طبعي إلى الزهد ، فهو كما رأينا من سلالة عمر بن الخطاب ، وكان في طفولته يحايل التشبه بخاله الزاهد عبد الله بن عمر ، ولما تورط في أمر خبيث لبس المسوح سبعين يوماً بأساً من غضارة العيش ، ولذاذة الحياة ، فلما نصح بالإقلاع عن ذلك أقلع . ثم إن الحياة الإسلامية قد أمت بها في أواخر القرن الأول نزعة زهد جاءت كرد فعل للهادية التي طغت عليها إذ ذاك : هذه النزعة التي تحولت بعد إلى الحركة الصوفية المشهورة نتبينها في طبقة العباد والنسك التي يتكلم عنها صاحب العقد الفريد طويلاً . وقد خضع عمر لتأثير هذه الطبقة وهو في المدينة ، فكان من أشد الناس تأثيراً فيه عبيد الله بن عبد الله بن عتبة . فلما صار بالشام خضع لتأثير رجلين يعتبران بحق من أقطاب عصرهما علماً وزهداً وورعاً : هذان هما الحسن البصرى ورجاء بن حيوة السكندى . أما الحسن فقد اتصل به عمر من طريق المراسلة ، ولعله قد أخذ عنه كراهية القول بالقدر

الذى ينسب إلى الحسن خطأ . وأما رجاء فقد كان مستشار سليمان بن عبد الملك  
وكان لذلك أقرب إلى عمر وأقوى به اتصالا .

وبعد، فلئن كان النظر في الأحوال العامة قد أنتج لعمر ضرورة الرجوع إلى  
الدين في إصلاح غيره ، فقد أنتج له مزاجه الخاص وتأثره بالزهد من أهل  
عصره ضرورة الزهد من أجل إصلاح النفس وتهذيبها . الدين والزهد ، هاتان  
هما الخلتان اللتان كانتا تعمران فؤاد عمر وقلبه عندما أخذ صلحاء الشام  
يرشحوه للخلافة .



## عمر بن عبد العزيز

(٢)

لم يسكن عمر بن عبد العزيز صاحب حق في الخلافة بمقتضى نظام الخلافة الأموية . ولكن ذبوع فضله وسموه الروحي على سائر بني أمية لفت إليه نظر أولى الخلق والعهد من صلحاء الشام ، أمثال رجاء بن حيوة السكندی وابن شهاب الزهري ومكحول الشامي ، فلما مرض سليمان بن عبد الملك بدابق مرضه الذي مات فيه ولم يكن له ولد بالغ يعهد إليه ، لم يزل به رجاء بن حيوة وأصحابه حتى كتب عهده لعمر بن عبد العزيز ، ثم من بعده ليزيد بن عبد الملك . ثم أمر فأخذت البيعة من بني أمية لمن سمي في عهده دون أن يعينه لهم ، فلما قبض سليمان وأعلن الأمر إلى بني أمية جددوا البيعة لعمر على كره منهم ( ٢٠ صفر سنة ٥٩٩ ) .

شرع عمر في تنفيذ برنامجه الإصلاحى منذ تم له الأمر . ولقد كان له من زهده ومناصرة العلاء له ومواتاة أهل بيته : زوجته فاطمة ، وابنه عبد الملك ، وأخيه سهل ، ومولاه مزاحم ، أقوى عون على ما أراد . بدأ عمر بمنصب الخلافة ممثلاً فيه فخره من كل مظاهر الأبهة وردة إلى بساطته القديمة ، ولا أدل على ذلك من كلام ابن عبد الحكم قال : « ولما دفن سليمان وقام عمر بن عبد العزيز قربت إليه المراكب ، فقال ماهذه ؟ فقالوا مراكب لم تترك قط يركبها الخليفة أول مايلي ، فتركها وخرج يلتمس بغلته ؛ وقال : يا مزاحم ! ضم هذه إلى بيت مال المسلمين ، ونصبت له سرادقات وحجر لم يجلس فيها أحد قط كانت تضرب

للخلفاء أول مايلون ، فقال ماهذه ، فقالوا سرادقات وحجر لم يجلس فيها  
أحد قط يجلس فيها الخليفة أول مايلي ، قال يامزاحم ! ضم هذه إلى أموال  
المسلمين ، ثم ركب بغلته وانصرف إلى الفرش والوطاء الذي لم يجلس عليه أحد  
قط ويفرش للخلفاء أول مايلون فجعل يدفع ذلك برجله حتى يفضي إلى الحصير .  
ثم قال يامزاحم ! ضم هذه لأموال المسلمين .

« وبات عيال سليمان يفرغون الأدهان والطيب من هذه القارورة إلى هذه  
القارورة ، ويلبسون ما لم يلبس من الثياب حتى تتكسر . وكان الخليفة إذا مات  
فما لبس من الثياب أو مس من الطيب كان لولده ، وما لم يمس من الثياب وما لم  
يمس من الطيب فهو للخليفة بعده . فلما أصبح عمر قال له أهل سليمان هذا لك  
وهذا لنا . قال ، وما هذا ، وما هذا ؟ ... ماهذا لي ولا لسليمان ولا لكم ، ولكن  
يامزاحم ! ضم هذا إلى بيت مال المسلمين ، ففعل . فتأمر الوزراء فيما بينهم فقالوا :  
أما المراكب والسرادقات والحجر والشوار والوطاء فليس فيه رجاء بعد أن  
كان منه فيه ما قد علمتم ، وبقيت خصلة وهي الجوارى نعرضن ، فعمى أن  
يكون ما يزيدون فيهن ، فإن كان وإلا فلا طمع لكم عنده . فأنى بالجوارى  
فعرضن عليه كأمثال الدمى . فلما نظر إليهن جعل يسألهن واحدة واحدة من  
أنت؟ ولمن جئت؟ ومن بعثك؟ فتخبره الجارية بأصلها ولمن كانت وكيف أخذت ،  
فيأمر بردهن إلى أهلن وبحملن إلى بلادهن حتى فرغ منهن . فلما رأوا ذلك  
أيسوا منه وعاموا أنه سيحمل الناس على الحق . »

ثم عمد إلى النظام الإقليمي فأصلحه بأن عزل العمال المتشبعين بروح  
الحجاج ، عزل يزيد بن المهلب وحبسه في مال كان للدرلة في ذمته ، ونفى نفر من  
بني عقيل أسرة الحجاج ، وولى عمالا جدد لم يحفل في تخييرهم بعصبياتهم ولا



بقدرتهم على جمع الأموال، كما كانت الحال من قبل، ولكن بحسن سيرتهم وطهارة  
ذمتهم، فكان من عماله: عدى بن أرطاة الفزاري والى البصرة، وعبد الحميد بن  
عبد الرحمن القرشي والى الكوفة، وعبد الرحمن بن نعيم القشيري أمير خراسان،  
وأبو بكر بن حزم أمير المدينة، والسمح بن مالك الخولاني أمير الأندلس .  
وقد شد أزر الولاية بقضاة عدول، فجعل الحسن البصري على قضاء البصرة،  
وعامرا الشعبي على قضاء الكوفة كما جعل أبا الزناد كاتباً لأمير الكوفة . ولم  
يكتف عمر بذلك في إصلاح الإدارة الإقليمية، بل تقدم إلى العمال في أمر  
العقوبات ألا يأمرؤا بقطع أو صلب قبل مراجعته هو أولاً .

ثم ثنى عمر بالمسائل المالية فرد المظالم، والمراد بالمظالم الأموال التي استولى  
عليها بنو أمية بغير حق، وقد بدأ في ذلك بنفسه، فخرج لبيت المال عن كل مال  
لم يرض سبب تملكه، حتى لم يبق له إلا عقار يتشرب ببلاد العرب يغل غلة يسيرة  
فوق عطائه الذي كان يبلغ مائتي دينار في العام، ثم أخذ يتتبع أموال بني أمية  
يرد منها ما ليس مشروع الملكية إلى مستحقه، وقد هاج ذلك سخط بني أمية  
عليه، وذهبوا ينعون عليه أخذه أموالهم باسم «المظالم»، فلم تان لغامزهم قناته،  
وأراهم أنه لا يحجم عن بلوغ الغاية في التنكيل بهم إذا اقتضى الأمر ذلك . يروى  
ابن عبد الحكم «أن رجلاً من أهل حمص أتاه يخاصم روح بن الوليد بن عبد الملك  
في حوانيت بحمص كان أبوه الوليد أقطعه أياها، فقال له عمر أردد عليهم  
حوانيتهم، قال له روح : هذا معي بسجل الوليد . قال : وما يغني عنك سجل  
الوليد والحوانيت حوانيتهم، قد قامت لهم البيسة عليها؟ خل لهم حوانيتهم .  
فقام روح والحمصى منصرفين، فتوعد روح الحمصى، فرجع الحمصى إلى عمر،  
فقال : هو الله متوعدى يا أمير المؤمنين . فقال عمر لسكعب بن حامد وهو على

حرسه : أخرج إلى روح يا كعب ، فإن سلم إليه حوائيته فذلك ، وإن لم يفعل  
فأتني برأسه ! فخرج بعض من سمع ذلك ممن يعنيه أمر روح بن الوليد فذكر له  
الذي أمر به عمر ، فخلع فؤاده . وخرج إليه كعب وقد سل من السيف شبرا ،  
فقال له : قم فخل له حوائيته ! قال : نعم ! نعم ! وخلي له حوائيته .

وسار عمر في إصلاح الشؤون المالية على الأساس الشرعي ، فالأموال ينبغي  
أن تجبي من وجوهها وتنفق في مصارفها الشرعية ، فمن أسلم من أهل الذمة سقطت  
عنه الجزية ، وقد أسقط الجزية فعلا عن كثير من موالي خراسان وأهل مصر ،  
وقال مقالته المشهورة : « إن الله بعث محمدا هاديا ولم يبعثه جاييا » ونهى عن أن  
تصير الأرض الخراجية أرضا عشرية ابتداء من سنة ١٠٠ هـ ، مع عدم التعرض  
للحقوق التي اكتسبت من قبل ، وألغى وظيفة مالية وظفها أخو الحجاج بن  
يوسف على اليمن فوق الزكاة ، ونهى العمال عن اقتضاء أطلاق مالية لم يرد بها  
الشرع ، وقد جمعها في كتابه إلى عامله على الكوفة فقال : « ولا تحمل خرابا على عامر  
ولا عامرا على خراب ، انظر إلى الخراب نخذ منه ما أطاق ، وأصلحه حتى يعمر ،  
ولا يؤخذ من العامر إلا وظيفة الخراج في رفق وتسكين لأهل الأرض ، ولا  
تأخذن في الخراج ... أجور الضرايين ، ولا هدية النيروز والمهرجان ، ولا ثمن  
الصحف ، ولا أجور الفيوج ، ولا أجور البيوت ، ولا دراهم النكاح ، ولا  
خراج على من أسلم من أهل الأرض » .

وقد وسع عدل عمر أهل الذمة من هذه الناحية كما وسع المسلمين ،  
فإنه لما شكك إليه أهل نجرانية الكوفة تناقص عددهم إلى العشر مع بقاء  
جزيتهم على حالها ، أمر برد جزيتهم إلى العشر<sup>(١)</sup> ، كذلك رد جزية

(١) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٧

قبرس إلى ما كانت عليه وقت الفتح ، وألغى ما زاده عليها عبد الملك بن مروان<sup>(١)</sup> ، ويروى البلاذري أيضا<sup>(٢)</sup> ، أنه وفد عليه قوم من أهل سمرقند فرفعوا إليه ، أن قتيبة دخل مدينتهم وأسكنها المسلمين على غدر ، فكتب عمر إلى عامله يأمره أن ينصب لهم قاضيا ينظر فيما ذكروا ، فإن قضى بإخراج المسلمين أخرجوا ، فنصب لهم جميع بن حاضر الناجي ، فحكم بإخراج المسلمين على أن يناذروهم على سواء . فكره أهل سمرقند الحرب وأقروا المسلمين . وأبلغ من ذلك في الدلالة على تحرى عمر العدل المطلق ما رواه البلاذري<sup>(٣)</sup> ، قال : قال ضمرة عن علي بن أبي حملة ، خاصمنا عجم أهل دمشق في كنيسة كان فلان أقطعها لبني نصر بدمشق ، فأخرجنا عمر منها وردها إلى النصارى ، ويروى البلاذري أيضا<sup>(٤)</sup> ، أن الوليد بن عبد الملك قد أدخل كنيسة يوحنا في مسجد دمشق بغير رضا النصارى ، فلما استخلف عمر بن عبد العزيز شكوا النصارى إليه ما فعل الوليد بهم في كنيستهم ، فكتب إلى عامله يأمره برد ما زاده في المسجد عليهم ، فكره أهل دمشق ذلك ، وقالوا نهدم مسجدنا بعد أن أذنا فيه وصلينا وبرد بيعة ، وفيهم يومئذ سليمان بن حبيب المحاربي وغيره من الفقهاء ، وأقبلوا على النصارى فسألوهم أن يعطوا جميع كنائس الغوطة التي أخذت عنوة وصارت في أيدي المسلمين ، على أن يصفحوا عن كنيسة يوحنا ويمسكوا عن المطالبة بها ، فرضوا بذلك وأعجبهم . فكتب به إلى عمر فسره وأمضاه . ذلك موقف عمر بن عبد العزيز من أهل الذمة .

(١) البلاذري ، ص ١٥٤ .

(٢) نفسه ص ٢٢٤ .

(٣) نفسه ص ١٢٤ .

(٤) نفسه ، ص ١٣٥ .

أما ما ينسب إليه في بعض كتب الفقه من تحامل عليهم ، وأنه كتب إلى عماله بعزلهم عن أعمال الدولة وأخذهم بالوان من الاضطهاد والتضييق عليهم <sup>(١)</sup> ، فغير متوافق مع المستيقن من سيرته على فرض صحته ، وقد يكون نوعاً من العقاب كان يعاقب به ذميو الحدود الإسلامية إذا هموا بمظاهرة العدو على المسلمين .

وكما كان عمر حريصاً على جباية الأموال العامة من مصادرها الصحيحة . فقد كان كذلك حريصاً على أن تنفق في مصارفها الشرعية . فمن حيث النية ، قد فرض لذرية المقاومة وعمالهم ، عملاً بسنة عمر بن الخطاب التي ترك بنو أمية العمل بها ، وكتب إلى عامله على الكوفة : « وانظر من أراد من الذرية الحج فاجعل له مائة يجمع بها » . وفرض لعشرين ألفاً من الموالى كانوا يغزون بخراسان بغير عطاء . وأظهر استعداداً لأن يحمل من بيت المال إلى خراسان أموالاً إذا كان خراجها لا يفي بعطاء أهلها . ومن حيث أموال الزكاة ، فكانت صدقات كل إقليم تقسم على عهده في فقراء أهله ، وقد قسم في فقراء البصرة كل إنسان ثلاثة دراهم وأعطى الزمى خمسين خمسين ، وفرض للفقيريات من عوانس النساء ، وأعتق كثيراً من الرقاب . وقد كتب إلى أحد عماله « أن اعمل خانات في بلادك ، فمن مربك من المسلمين فأقروهم يوماً وليلة ، وتعهدوا دوابهم ، فمن كانت به علة فأقروه يومين وليلتين . فإن كان منقطعاً به فقروه بما يصل به إلى بلده » . وأمر عماله بقضاء الديون عن الغارمين ، فكتب إليه بعضهم : « إنا نجد الرجل له المسكن والخدام وله الفرس والأثاث في بيته » ، فكتب عمر

(١) أبو يوسف ، الخراج ، ص ٧٣ .

• لا بد للرجل من المسلمين من مسكن يأوى إليه رأسه ، وخادم يكفيه مهنته ، وفرس يجاهد عليه عدوه ، وأثاث في بيته ، فهو غارم فاقضوا عنه ، . ولما رأى عمر أن ليس للشعراء حق في بيت المال جعل يجيزهم من عطائه وماله الخاص على قلته ، بالدراهم والدنانير المعدودة ، وقد أدرك الشعراء علة تخرجه هذا فكانوا يقبلون منه العطاء اليسير أو الرد أحيانا بغير عطاء ، ولم يقصروا في مدحه والثناء عليه .

على أن أهم ميزة تميز عمر بن عبدالعزيز عن غيره من خلفاء الإسلام ورؤساء الدول طرا فيما نعلم إنما هي رغبته الصادقة في نشر لواء السلم ، لا على بلاده وحدها ولكن على العالم بأسره . وليبيان ذلك نقول إنه عمد في داخل الدولة الإسلامية إلى الأحزاب التي ناوت الأمويين منذ قام ملكهم فترضاها وحملها على ما يريد من إثارة السلم والعافية . فالشيعة استجلب مودتهم بأن منع سب علي بن أبي طالب على المنابر ، وبأن رد على العلويين ( فدكا ) التي رأها حقا قديما لهم اغتصب منهم . والخوارج قد كبح جماحهم من طريق المجادلة بالحسنى والإقناع بالحجة والبرهان . فعندما ظهر شوذب الخارجي بأرض فارس أمر عمر الأيقاتلو احتي يسفكوا دما أو يفسدوا في الأرض ، وكتب في الوقت نفسه إلى شوذب يطلب إليه المناظرة في دعواه ، فأنفذ إليه الخارجي اثنين من فقهاء الخوارج لينظراه ، وقد استطاع عمر أن يهدم كل حجة أورداها الا ما احتج به عليه من إقراره ببيعة يزيد بن عبد الملك بولاية العهد مع ما يعلم من قبح سيرته ، وكان من وراء هذه المناظرة الطريقة أن انضم أحد الخارجيين إلى عمر ، أما الآخر فعاد إلى أصحابه وأنهى إليهم على ما يظهر من سيرة الخليفة ما حملهم على السكون طوال عهده . وأما الموالي فقد قطع أسباب شكواهم ، بأن أسقط الجزية كما

رأينا عنهم ، وبأن فرض لمقاتلتهم عطاء . وأما العصية القبلية من يمنية ومضريه وربعية فقد هدأ من حداثها ، بأن ردع الشعراء الذين كانوا يذكرون نارها ، وبأن اختار ولاته بالنظر إلى كفايتهم لا إلى قبائلهم .

أما من حيث العلاقات الخارجية ، فقد سلك عمر بن عبد العزيز في الأمر مسلكا بدعالم يسبق إليه ولم يلحق فيه . ذلك أنه أقفل جميع الجيوش الإسلامية التي كانت تغزو وراء الحدود ، أقفل مسلمة بن عبد الملك وكان مرابطا حول أسوار قسطنطينية وأعانه على الفقول بأموال بعث بها إليه . وأقفل الغزاة بما وراء النهر على كره منهم كما أقفل من كانوا يغزون بالسند . على أن عمر لم يقف في هذا الأمر الخطير عند هذا الحد ، بل أتبع العدول عن سياسة العنف بالدعوة السلبية إلى الإسلام . يروى البلاذري أنه لما أقفل الجيوش التي كانت تغزو بما وراء النهر كتب إلى ملوك تلك الجهة من الترك يدعوهم إلى الإسلام فأسلم بعضهم . ولما انتقض ملوك السند كتب إليهم يدعوهم إلى الإسلام والطاعة على أن يملكهم ، ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم . قال البلاذري : وقد كانت بلغتهم سيرته ومذهبه فأسلم جيشة والملوك وتسموا بأسماء العرب ، كذلك كانت سياسته بإزاء بربر المغرب الذين أشجوا الجيوش العربية زهاء ثمانين عاما . يقول البلاذري : ثم لما كانت خلافة عمر بن عبد العزيز (رضه) ولي المغرب اسمعيل بن عبد الله ابن أبي المهاجر مولى بنى مخزوم ، فسار أحسن سيرة ودعا البربر إلى الإسلام وكتب إليهم عمر كتبها يدعوهم بعد إلى ذلك ، فقرأها اسمعيل عليهم في النواحي فغلب الإسلام على المغرب . ويذكر المؤرخ اليوناني تيوفان أن عمر كتب أيضا إلى الإمبراطور البيزنطي يدعوهم إلى الإسلام .

وكان عمر بن عبد العزيز قد اطلع بلحظ الغيب على نظمنا الحديث التي

تفرض على الدولة الإشراف على التعليم والعمل على نشره بين أبنائها . فقد أراد تعليم الناس كما يؤخذ من قوله في رواية ابن عبد الحكم ، إن الإسلام حدودا وشرائع وسننا . . . . . فإن أعش أعلمكموها وأحلمكم عليها ، بل لقد أخذ في ذلك بالفعل فبعث يزيد بن أبي مالك الدمشقي والحارث بن محمد الأشعري إلى البادية ليفقهوا الناس وأجرى عليهما رزقا . ثم هو أول خليفة أمر بجمع أحاديث رسول الله وتدوينها . نقل السيوطي « أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى أبي بكر محمد بن حزم أن انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ أو سنته فاكتبه ، فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء . وأخرج أبو نعيم في تاريخ أصبهان عن عمر ابن عبد العزيز أنه كتب إلى الآفاق أن انظروا إلى حديث رسول الله ﷺ فاجمعوه ، وقال في فتح الباري « يستفاد من هذا ابتداء تدوين الحديث النبوي » .

\* \* \*

وبعد ، فإذا كان أثر تلك الجهود كلها ؟ لقد أدت إلى الغاية التي كان يرمى إليها عمر . فقد طاف بالامة الإسلامية إذ ذاك طائف الزهد والورع والتدين اقتداء بخليفتها ، والناس على دين ملوكهم كما قالوا قديما . يروى الطبري « وكان الوليد صاحب بناء واتخاذ مصانع وضياع ، وكان الناس يلتقون في زمانه ، فأئما يسأل بعضهم بعضا عن البناء والمصانع ، فولى سليمان فكان صاحب نكاح وطعام فكان الناس يسأل بعضهم بعضا عن التزويج والجوارى ، فلما ولي عمر بن عبد العزيز كانوا يلتقون فيقول الرجل للرجل ، ما رددك الليلة ؟ وم كم تحفظ من القرآن ؟ ومتى تحتم ؟ وما تصوم من الشهر ؟ وأصبح الناس وقد شملتهم نعمتا الرضا واليسر . قال « كثير ، يخاطب عمر ويمدحه :

تكلمت بالحق المبين وإنما تبين آيات الهدى بالتكلم

وصدقت موعود الذي قلت بالذي فعلت فأسمى راضياً كل مسلم

وروى ابن عبد الحكم قال : وقال يحيى بن سعيد : بعثنى عمر بن عبد العزيز على صدقات إفريقية فاقتضيتها وطلبت فقراء نعطيها لهم فلم نجد بها فقيراً ، ولم نجد من يأخذها مني ، قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس ، فاشتريت بها رقاباً فأعتقتهم وولاؤهم للسلين .

أجل ، لقد أغنى عمر الناس جميعاً إلا نفسه وأهله . فلم ير ولي قوم أعف عن ما لهم منه ، ولم ير أهل بيت أصبر على الطعام الحشن والثوب المرقوع والبيت المتهدم منه ومن أهل بيته . ولقد أراح عمر الناس ولكنه أتعب نفسه فكان حركة دائمة يعمل ليل نهار حتى ذهبت نضرتة واحترق جسمه . وزاده هما فقدانه في آجال متقاربة من عهده القصير أحبابه وأعوانه : فقد ابنه عبد الملك ، وأخاه سهلاً ، ومولاه مزاحماً ، فلم يقو جسمه على احتمال العمل والالام ، فأسلم الروح بخناصرة في ٢٥ رجب سنة ١٠١ هـ ولما بعد التاسعة والثلاثين من عمره . وقد دفن بدير سمعان قريباً من دمشق .

لا ندرى ماذا كان عمر صانعاً لو مدله في حياته ؟. أغلب الظن أنه كان يتلافى موضع الضعف من إصلاحه فيقيم هذا الإصلاح على أساس ثابت لا يتزعزع بمجرد موته . ومهما يكن من شيء فقد فاز عمر بن عبد العزيز بتقدير أنصاره وخصومه على السواء فهو عند أهل السنة مجدد المائة الأولى وآخر الخلفاء الراشدين ، وقد رضى عنه العلويون وأهدى إلى روحه في أواخر القرن الرابع شاعرهم الشريف الرضي أبياتاً من الشعر حارة جميلة وكان موضع احترام الخوارج وتقديرهم ، ثم إن العباسيين عندما قامت دولتهم احترمو قبره فلم يندشوه كما ندشوا قبور غيره من بني أمية ، على أن أبلغ من وصفه وأبنة رجل كان يحكم الظروف السياسية خصمه العنيد



بل عدوه اللدود ، ذلك ملك الروم أليون الثالث . أخرج ابن الجوزى عن محمد  
ابن معبد قال : « أرسل عمر بن عبدالعزيز بأسارى الروم فقادى بهم أسارى من  
المسلمين . قال فدخلت على ملك الروم يوماً فإذا هو جالس على الأرض مكتئباً  
حزيناً . فقلت ما شأن الملك ؟ فقال أو ماتدرى ما حدث ؟ قلت ما حدث ؟ قال  
مات الرجل الصالح ! قلت من ؟ قال عمر بن عبدالعزيز ، ثم قال ملك الروم :  
لأحسب أنه لو كان أحد يحيى الموتى بعد عيسى بن مريم لأحياهم عمر بن عبد  
العزیز . ثم قال إنى لست أعجب من الراهب إن أغلق بابه ورفض الدنيا  
وترهب وتعبد ، ولكنى أعجب ممن كانت الدنيا تحت قدميه فرفضها وترهب ، .  
أما نحن فنلحظ فيه خير نزعاته وأشرف عواطفه : نلحظ فيه حبه للسلام  
وسعيه فى توفيره فى العالم ، فهو بحق داعية السلام فى القرن الأول الهجرى  
والثامن الميلادى ، وكفى بذلك منمخرة فى الدنيا ، وقربة فى الآخرة ؟



## نساء الخوارج<sup>(١)</sup>

ينبغي قبل التكلم على نساء الخوارج أن نلم للمامة يسيرة بالخوارج عامة فنبين للقارىء من هم؟ وما مبادئهم وآدابهم؟ وما بداية أمرهم ونهايته؟ فإذا فرغنا من ذلك انتقلنا إلى الكلام على نسائهم عامة والشهيرات منهن خاصة .

فالخوارج فرقة عربية إسلامية قديمة ولعلها أقدم الفرق الإسلامية منشأ وظهورا . وأصلهم جماعة من جيش الإمام علي بن أبي طالب الذى كان يحارب معاوية بن أبي سفيان فى وقعة صفين المشهورة فى سنة ٣٧ هـ . فلما اجتمع رأى الفريقين المتحاربين على قبول التحكيم بدل المضى فى القتال ، ورجع كل فريق إلى قاعدته : على إلى الكوفة ، ومعاوية إلى دمشق ، رأت تلك الجماعة أن قبول التحكيم كان ضلالا من الضلال ، وأن الواجب كان يقضى بأن يمضوا فى القتال حتى ينزل الله حكمه بنصر فريق على فريق ، ومن ثم مقاتلتهم المشهورة « لاحكم إلا لله » . واعتبروا كل من قبل التحكيم مرتدا عن الإسلام ، لا يبرء من رده إلا بالتوبة ورفض التحكيم واستئناف القتال . وقد بدءوا فى ذلك بأنفسهم ، وأرادوا عليا على مثل ذلك ، فأبى أن يتابعهم على رأيهم وأقام الحججة عليهم . فما كان منهم إلا أن اعتزلوه ، ونزلوا مكانا بظاهر الكوفة يقال له « حروراء » ، منابذين له مجاهرين بالخلاف عليه . ومن ثم عرفوا بالحرورية ، وبالخوارج لخروجهم على على ، وبالمحكمة لقولهم « لاحكم إلا لله » .

(١) خلاصة محاضرة ألقىت بمعهد المعلمات بالاسكندرية فى ٨ مارس سنة ١٩٤٨ .

ونلاحظ قبل كل شيء ، أن الخوارج عرب خالص ينتمى أغلبهم إلى قبائل  
 تميم وحنيفة وربيعة الذين كان لهم في الجاهلية عز ومنعة وبأس فلما جاء الإسلام  
 وألقى بجرانه على الجزيرة اعتنقوه واعتقدته قلوبهم بعد أن نطقت به ألسنتهم،  
 واستسأغوا منه بوجه خاص مبادئه الديمقراطية التي تلائم مزاجهم وتنفق  
 وتقاليدهم ، وأنزلوها من قلوبهم منزلة مثلهم القبلية التي يفدون عنها عند الاقتضاء  
 بمهجهم وأرواحهم . وقد أبلوا في إقامة الدولة العربية ومد فتوحها وفي نشر  
 الدعوة الإسلامية أعظم البلاء . وكانوا يظنون أنهم سيضيفون بذلك عزا  
 طريفا إلى عزم التليد ، ويضمون مجدا حديثا إلى مجدهم القديم ، فإذا بهم أصبحوا  
 يرون أن قد غلبوا على أمرهم ، وأن العز كله ، وأن المجد كله ، قد أصبح  
 لأرستقراطية مكة والمدينة ، فأعادوا حركة الردة جذعة ولكن في صورة  
 إسلامية لاغبار عليها . فلم يكن موقفهم من التحكيم في حقيقة الأمر إلا ظاهرا  
 بحجب باطنا هو ما ذكرناه .

\*\*\*

أصبحت الخوارج في حروراء يرون أنهم وحدهم ( ومن انضم إليهم بعد )  
 الفئة المسلمة المؤمنة حقا ، وأن من سواهم من المسلمين كفار يجب جهادهم  
 وردمهم إلى حظيرة الدين . وقد شددوا حيازيمهم للأمر العظيم ، وشمروا عن  
 سواعدهم للخطب الجسيم ، وأقبلوا على أمرهم في حماسة دينية متقدة ، وشجاعة  
 نادرة ، وإخلاص عميق ، وصبر عجيب .

ولكي يميزوا أنفسهم عن سائر المسلمين ، ويصلوا إلى تحقيق غرضهم الديني  
 والديني . صاغوا لأنفسهم مذهبا أو برنامجا شاملا متجدا في أصوله وجوهره  
 ويختلف في الفروع باختلاف الخوارج أنفسهم من حيث الغلو والاعتدال . فأما

من الناحية السياسية لجميع الخوارج يرون الشورى وأن الخلافة حق لكل من اتصف بصفاتنا وحوى ما يؤهل لها من تقوى وزهد وشجاعة ، ولا عبرة عندهم بالحسب والنسب والعربية والأعجمية . أخذوا ذلك من قوله تعالى « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، بل لقد ذهب بعض فرقهم إلى إمكان الاستغناء عن الحكومة وعن الخلافة لأن الناس يتوازعون ويتكافون باحتياج بعضهم إلى بعض واشتباك علاقاتهم ، ففي ذلك ما يكفي لردم عن الظلم وصددهم عن الجور وعدم الإنصاف .

ثم إن للخوارج من ناحية العقيدة المحضة آراء في معنى الإيمان والمعاصي ما يكفر منها وما لا يكفر ، وفي التقية ، وهي إسرار الإيمان وإظهار الكفر عند الحرج وخوف الفتنة ، هل تجوز أو لا تجوز ، وفي غيرهم من المسلمين هل هم كفار عقيدة أو كفار نعمة ، وفي معاصماتهم والتزوج منهم وتزويجهم وموارثتهم ، هل تجوز أو لا تجوز . هذه الآراء مبنية في أخبارهم مقررة في توارثهم ولهم فقهاء مجتهدون يبينون لهم الحلال والحرام ، على حسب اجتهادهم وفقهم ، كما لهم شعراء بلغوا ينشرون مثلهم وعواطفهم في شعر بليغ سيار .

والخوارج جميعا يتصفون بأخلاق عظيمة وصفات نبيلة منها الزهد في الدنيا والحرص على طلب الشهادة ويبرأون من الكذب ، ولهم في ذلك نواذر طريفة وأخبار عجيبة .

فمن الأمثلة الدالة على شدة زهدهم ، ما يروى من أن زياد بن أبي سفيان بعد أن قتل عمرو بن أديبة الخارجي سأل مولاه عن سيرته فقال أأطرب أم أختصر؟ فقال له بل أختصر ! فقال : ما أتيت به بطعام بنهار قط ، ولا فرشت له فراشا بليل قط ! .

ومن أمثلة شجاعتهم أن منهم من طعن في الحرب فأنفذه الرمح فجعل يسعى فيه إلى قاتله وهو يتلو قوله تعالى « وعجلت إليك رب لترضى » .

ومن أمثلة استمساكهم بالصدق ما يروى من أن أحد زعمائهم وهو مرداس ابن أديبة أدخل حبس عبيد الله بن زياد أمير العراق فرأى صاحب السجن شدة اجتهاده وحلاوة منطقه ، فقال : إني أرى لك مذهبا حسنا ، وإني لأحب أن أوليك معروفا . أفرأيت إن تركتك تنصرف ليلا إلى بيتك ، أتدلج إلى ؟ قال : نعم ! قال فكان يفعل ذلك . ولج عبيد الله في حبس الخوارج وقتلهم . فلما كان ذات يوم قتل رجل من الخوارج رجلا من الشرط ، فقال ابن زياد : ما أدرى ما أصنع بهؤلاء ، كلما أمرت رجلا بقتل رجل منهم قتلوا قاتله . لاقتلن من في حبسى منهم . وأخرج السجن مرداسا إلى منزله كما كان يفعل . وأتى مرداسا الخبر . فلما كان السحر نهياً للرجوع . فقال له أهله : اتق الله في نفسك ، فإنك إن رجعت قتلت . فقال إني ما كنت لألقى الله غادرا . فرجع إلى السجن . فقال قد علمت ما عزم عليه صاحبك . فقال السجنان : أعلبت ورجعت ؟ ! .

ولفرط شجاعتهم في الحرب وشدة حملاتهم واستقتالهم كانت أعداد يسيرة منهم تهزم جماعات كبيرة من جيوش الدولة كما حدث في واقعة آسك إذ هزم أربعون من الخوارج ألفين من جنود الدولة الأموية . وفي ذلك يقول شاعر الخوارج :

أألفا مؤمن فيما زعمتم ويهزمهم بأسك أربعونا ؟  
هم الفئة القليلة غير شك على الفئة الكثيرة ينصرونا

.....

فن أجل الديمقراطية المتطرفة التي كان يقول بها الخوارج في أمر الخلافة

قد أسخط الخوارج بنى أمية وقريشا وأرستقراطية العراق حيث تعددت فرقهم  
وانتشرت تعاليمهم وعظم نفوذهم . ومن أجل تكفيرهم سائر المسلمين  
واستحلالهم منهم ما يستحلون من الكفار قد أثاروا عليهم سخط العامة جميعا  
ولقد تجردت الدولة الإسلامية لقتالهم والعمل على استئصالهم وحاربتهم حربا  
طاحنة لا هوادة فيها دامت نحو قرن ونصف قرن من الزمان . حاربهم على يوم  
النهروان وأوقع بهم هزيمة منكرة . وقد جر انتصاره عليهم إلى اغتيالهم إياه على  
ما هو معروف . وحاربهم زياد بن أبي سفيان وابنه عبيد الله بن زياد والمغيرة بن  
شعبة . وحاربهم الحجاج بن يوسف بنفسه وبقواد كبار أشهرهم المهلب بن أبي  
صفرة . وقد خضد الحجاج شوكة الخوارج الغلاة المعروفين بالأزارقة والصفرية  
وقتل كبار زعمائهم أو خلفائهم أمثال نافع بن الأزرق وقطرى بن الفجاءة ،  
وعبيدة بن هلال ، وشيب . كما حوربت الخوارج النجدية في شرقى بلادالعرب  
وقتل زعيمهم نجدة وأبوفديك . أما الأباضية وهم أكثر فرق الخوارج اعتدالا  
فلم يلجأوا إلى العنف كما فعلت الفرق الخارجية الأخرى . لذلك احتملتهم الدولة  
الأموية فنتلوا من الإبادة وبقوا حتى يومنا هذا في أنحاء من العالم الإسلامى  
وخاصة بلاد المغرب وعمان وشرقى إفريقية .

ولما اضطرب أمر الدولة الأموية ظهرت الخوارج مرة أخرى في الحجاز  
واليمن وشمال إفريقية ، ثم قامت الدولة العباسية فذهبت ريع الخوارج بذهاب  
دولة العرب وقيام دولة عصيتها من الأعاجم . واستحال الخوارج قطاع طرق  
ومتلصصة ، وكانت آخر خرجة مشهورة لهم خرجة الوليد بن طريف الشيبانى  
في الجزيرة وأرمينية وذلك على عهد الرشيد . وبقت بقية منهم إلى زمن المتوكل  
على الله العباسى . ثم ينتهى أمرهم وتحمد حركتهم فلا نحس لهم صوتا بعد ذلك .

ولعل القارىء يكون قد تبين مما تقدم سبب انقراض الخوارج وذهاب ريعهم . إن الخوارج لم يؤتوا من قبل مذهبهم السياسى ، فذلك المذهب ديمقراطى إسلامى لا غير عليه . ولم يؤتوا بالطبع من قبل غيرتهم الدينية وورعهم واستقامة وأخلاقهم ، فذلك كان مثار إعجاب الرأى العام الإسلامى وخاصة رأى المثقفين منهم أمثال الإمام مالك بن أنس وأبى العباس المبرد صاحب كتاب « الكامل » ، وإنما أتى القوم من قبل تنطعهم فى الدين وعدم سائر المسلمين كفارا خارجين من الملة وانعدام الروح السياسى عندهم . فذلك الذى جر عليهم وعلى مذهبهم البوار .

\*\*\*

رنساء الخوارج يشاركن رجالهم فى كل ما ذكرنا من فضائلهم من تقى وورع وشجاعة وأدب واجتهاد .

ولو أن الذخوص المرأة وهو أبو العلاء المعرى استحضر عند نظمه قصيدته التائية الكبرى سير نساء الخوارج ما قال :

وإن تعط الإناث فأى بؤس      تبين فى وجوه مقسمات  
يردن بعسولة ويردن حليبا      ويلقن الخطوب ملومات  
ولسن بدافعات يوم حرب      ولا فى غارة متغشمات  
ودفن والحوادث فاجمات      لإحداهن إحدى المكرمات  
وقد يفقدن أزواجا كراما      فىا للنسوة المتأيمات  
يلدن أعاديا ويكن عارا      إذا أمسين فى المتهمات  
ونمثل نساء الخوارج بذكر طائفة من مشهوراتهن يستبين منها القارىء  
صدق وصفنا لهن .

(١) فمنهن قطام بنت علقمة من تيم الرباب وكانت من أهل الكوفة . وهي التي أراد عبدالرحمن بن ملجم قاتل علي بن أبي طالب التزوج منها فقالت له : ولا أفنع منك إلا بصداق أسميه لك ، وهو ثلاثة آلاف درهم وعبد وأمة وأن تقتل عليا . فقال لها : لك ماسألت ! فكيف لي به ؟ قالت تروم ذلك غيلة . فإن سلمات أرحت الناس من شر ، وأقت مع أهلك ، وإن أصبت صرت إلى الجنة ونعيم لا يزول . وفي ذلك يقول ابن ملجم :

ثلاثة آلاف وعبد وقينة      وضرب علي بالحسام المصمم  
فلا مهر أعلى من علي وإن غلا      ولا فتك إلا دون فتك ابن ملجم  
ونحن نعرف ما صار إليه أمر ذلك الفاتك من قصاص عاجل عادل .

(٢) ومنهن البلجاء التميمية وكانت كما يقول أبو العباس المبرد من مجتهدات الخوارج : وكان أبو بلال مرداس بن أدية قد لقيه صاحب له فقال : يا أبا بلال ! إنى سمعت الأمير البارحة عبيد الله بن زياد يذكر البلجاء ، وأحسبها ستؤخذ . فمضى إليها أبو بلال ، فقال لها : « إن الله قد وسع على المؤمنين في التقية ، فاستترى فإن هذا المسرف على نفسه الجبار العنيد قد ذكرك . قالت : « إن يأخذني فهو أشقى بي . فأما أنا فما أحب أن يعنت إنسان بسببي . فوجه إليها عبيد الله بن زياد فأتى بها فقطع يديها ورجليها ورمى بها في السوق . فمر بها أبو بلال والناس مجتمعون ، فقال : ما هذا ؟ فقالوا : البلجاء ! فخرج إليها ، فنظر ، ثم عض على لحيته وقال لنفسه : « لهذه أطيب نفسا عن بغية الدنيا منك يا مرداس ! »

(٣) ومنهن أم كهمس : كان ممن قتل ابن زياد من الخوارج رجل يقال له كهمس ، وكان من أبر الناس بأمه . فقال لها يا أمتا ! لولا مكانك لخرجت



فقال : يا بني اقد وهبتك لله ، فخرج فحارب فقتل مع جماعة من أصحابه ،  
فقال فيهم أم الجراح العدوية ، وهي من نساء الخوارج ، ترثيهم وتخطب قاتلهم  
ابن زياد :

وما بعد مرداس وعروة بيننا وبينكم شيء سوى عطر منشم  
فلمست بنساج من يد الله بعدما هرفت دماء المسلمين بلا دم  
(٤) ومنهن بنت عروة بن أدية ، قالوا لما قتل ابن زياد عروة بن أدية بعث  
برأسه إلى ابنته . فجاءت وجثته مطروحة بين يدي ابن زياد ، فقال لها أنت  
على دينه ؟ قالت : وكيف لا أكون على دينه ، وما رأيت قط خيرا منه !  
فأمر بها فقتلت مع أبيها .

(٥) ومنهن جذعة ، قالوا خرج رجل وامرأة ومعهما سيفان فخكما في  
مسجد البصرة ، ( أي قالوا لاحكم إلا لله ) ثم أخذت المرأة نحو بني سليم ، وأخذ  
الرجل نحو رحبة بنى تميم ، فرآها قد بعدت منه ، فناداها : يا جذعة اقربي  
مني ! ، فقالت : إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، فقتلها الناس .  
(٦) ومنهن المرأة التي أرادت الثأر لمقتل نافع بن الأزرق كبير الخوارج  
الأزارقة والمقتول في وقعة دولاب بالأهواز سنة ٦٥ هـ قال سلامة الباهلي :  
وقلت نافعا فطالبتني بثأره امرأة كانت تدعوني إلى المبارزة ونحن نقاتل عبيد الله  
ابن الماحوز ،

(٧) ومنهن أم حكيم زوجة قطري بن الفجاءة على رأى أو بعض من كان  
يقاتل معه على رأى آخر . روى الأصبهاني بإسناده قال : إن امرأة من الخوارج  
كانت مع قطري بن الفجاءة يقال لها أم حكيم وكانت من أشجع الناس وأجملهم  
وجها وأحسنهم بدنيهم تمسكا ، وخطبها جماعة منهم فردتهم ولم تجب إلى ذلك .

فأخبرني من شهدها أنها كانت تحمل على الناس وترتجز !  
أحمل رأسا قد سئمت حمله وقد ملكت دهنه وغسله  
ألا قتي يحمل عنى ثقله !

قال وهم يقدونها بالآباء والامهات فما رأيت قبلها ولا بعدها مثلها ، وفي أم  
حكيم هذه وفي وقعة دولاب يقول قطري :

لعمرك إني في الحياة لزاهد وفي العيش ما لم ألق أم حكيم  
من الخفريات البيض لم ير مثلها شفاء لذى بث ولا لسقيم  
لعمرك إني يوم أطم وجهها على نائبات الدهر جسد لثيم  
ولو شهدتني يوم دولاب أبصرت طعان قتي في الحرب غير ذميم  
إلى أن يقول :

فلو شهدتني يوم ذاك وخيلنا تيسح من الكفار كل حر يم  
رأت فتية باعوا الآله نفوسهم بجنات عدن عنده ونعيم  
(٨) ومنهن جهيزة أم شبيب رأس الخوارج الصفرية ، وغزاة زوجته .  
قالوا لما اشتدت الحرب بين شبيب وبين الحجاج بن يوسف أمير العراق كانت  
جهيزة أم شبيب وغزاة زوجته تقاتلان معه . ونذرت غزاة لله إن هي دخلت  
السكوفة عاصمة الحجاج أن تعمد إلى المسجد الجامع فتصلي فيه وتتلو سورتي  
البقرة وآل عمران . ودخل شبيب السكوفة وخرج منها الحجاج هاربا ، وقد  
وفت غزاة يومذاك بنذرها . ويشير إلى ذلك شاعر من الخوارج يقال إنه  
عمران بن حطان بقوله يعير الحجاج فراره من غزاة :

صدعت غزاة قلبه بفوارس تركت كتابه كأمس الدابر  
أسد على وفي الحروب نعامة ربداء تنفر من صفير الصافر

هلا برزت إلى غزالة في الوغى بل كان قلبك في جناحي طائر  
ألق السلاح وخذ وشاحي معصر واعمد لمنزلة الجبار الكافر  
ثم إن الحرب استؤنفت بين شبيب والحجاج فقتلت جهيزة أم شبيب وكانت  
قد قاتلت قتالا شديدا حتى قال الناس :

أم شبيب ولدت شيبسا هل تلد الذيبة إلا ذيبسا ؟  
وقتل كذلك زوجته غزالة ، وأحتز رأسها فقال الحجاج عند ذلك : والله  
ما قوتل قبل اليوم ولا قبل موت هذه !

(٩) ومنهن امرأة حجيء بها إلى الحجاج وبحضرتة مولاه يزيد بن أبي مسلم  
وكان يستسر برأى الخوارج ، فكلم الحجاج المرأة فأعرضت عنه ، فقال لها يزيد :  
« الأمير وملك يكلمك » فقالت : « بل الويل لك أيها الفاسق الرديء » ، قالوا  
والرديء عند الخوارج هو الذي يعلم الحق من قولهم ويكتمه .

(١٠) ومنهن امرأة تسمى مريم كانت تقاتل مع أبي حمزة الخارجي الذي  
خرج بالحجاز ، وكانت تقاتل مع زوجها ، فقتل زوجها وقاتلت وهي ترتجز :  
أنا ابنة الشيخ الكبير الأعمى من سال عن اسمي فإسمي مريم  
بعث سوارى بسيف مخذم

(١١) ومنهن الفارعة ليلي بنت طريف الشيباني ، روى أن الوليد بن طريف  
الشيباني خرج في سنة ١٧٨ هـ في خلافة هارون الرشيد ، بالجزيرة وأرمينية ، وقتك  
بعامل الرشيد واستطار شره في تلك الجهات استطاره النار في الهشيم  
وجبي الأموال ، فسير الرشيد إليه يزيد بن مزبد الشيباني فقاتله فقتله ،  
فصحبتهم أخته ليلي بنت طريف مستعدة عليها الدرع فجعلت تحمل على الناس  
فعرفت . فقال يزيد قائد جيش الرشيد « دعوها » ثم خرج إليها فضرب بالرمح

قطاة فرسها ثم قال : اعز بي عزب الله عليك ، فاستجيت وانصرفت . ثم رثت  
أخاها الوليد بهذه المرثية التي تعد من فاخر الشعر العربي وناصعه :

بتل تباثى رسم قبر كأنه	على علم فوق الجبال منيف
تضمن جودا حاتميا وناثلا	وسورة مقدم وقلب حصيف
ألا قاتل الله الجثى كيف أضمرت	فتى كان بالمعروف غير عفيف
فإن يك أرداه يزيد بن مزيد	فيارب خيل فضا وصفوف
ألا يالقوى للنواب والردى	ودهر ملح بالكرام عنيف
وللبدر من بين السكواكب قدهوى	وللشمس همت بعده بكسوف
فياشجر الخابور مالك مورقا	كانك لم تجزع على ابن طريف
فتى لا يحب الزاد إلا من التقي	ولا المال إلا من قنا وسيوف
ولا الخيل إلا كل جرداء شطبة	وكل حصان باليدين عزوف
فلا تحزنا يا ابني طريف فإني	أرى الموت نزالا بكل شريف
فقدناك فقدان الربيع فليتنا	فسديناك من دهمائنا بألوف

وقالوا واعتمر الرشيد في تلك السنة في شهر رمضان شكرا لله على قتل الوليد  
ابن طريف .

...

كانت غزالة خاتمة نساء الخوارج اللاتي ظهرن على مسرح الحوادث العامة  
ونقلت لنا أخبارهن أو أطراف منها . وكل من ذكرنا منهن يتصف بصفات  
الشجاعة والجرأة والغيرة الدينية والثبات على المبدأ ، هذا الى ثقافة عالية ملحوظة  
تسلك غير واحدة منهن في عداد مجتهدى هذه الفرقة وخطباؤها وشعرائها .

والمرأة الخارجية إنما تحتفظ في كل ذلك بتقاليد المرأة العربية الصميمة إن

قبل الإسلام وإن صدر الدولة الإسلامية . فأما قبل الإسلام فنعد بلقيس التي كانت ملكة عظيمة على بلاد اليمن والتي راسلها سليمان ملك بني إسرائيل ، وقد قص القرآن الكريم قصتها في سورة النمل ، فليرجع إليها .

ونعد الزباء ملكة تدمر وقد ساجلت الامبراطور الروماني أوريليان حربا شديدة في القرن الثالث الميلادي . كما نعد سجاح بنت الحرث التميمية التي قادت الجيوش في حرب الردة لقتال الخليفة أبي بكر الصديق . وأما صدر الدولة الإسلامية فنذكر على سبيل المثال نائلة بنت الفرافصة الكلبية زوجة الخليفة الثالث عثمان بن عفان وكانت عند زواجها منه جميلة وسيمة وفي عنفوان شبابها ، على حين أن زوجها كان شيخا قد جاوز السبعين من عمره ، ومع ذلك فقد كانت وفية له حيا وميتا . فهي التي قامت تذود عنه يوم الدار فنضح أحد قتلة عثمان يدها بالسيف فأطار أصابع يدها ، فلها قتل عثمان وأراد معاوية خطبتها إعجابا منه بثغرها فيما يقولون عمدت إلى أسنانها فهتمتها بخاتم في إصبعها ليذهب جمال ثغرها فينصرف عنها معاوية ، وقد كان ذلك .

ولا ننسى عائشة بنت أبي بكر الصديق وزوجة الرسول عليه السلام وقد جمعت من الحديث ووعت من الفقه ما جعلها عمدة المحدثين والفقهاء ، ولقد قادت الجيوش في وقعة الجمل واستهدفت للموت حتى ليروون أن الجمل الذي كان عليه هودجها صار مثل القنفذ لكثرة ما وقع فيه من السهام في تلك الوقعة . ثم تبرز المرأة العربية الخارجية فتحفظ بهذه التقاليد طوال مائة وخمسين عاما أو تزيد فلما تحولت الحال في الدولة الإسلامية وغلب رجال العرب على أمرهم على أيدي موالى الفرس وبماليك الترك وعادوا إلى بوادهم يعيشون رعاة إبل وغنم أو متلصصة وقطاع طرق . فكذلك كان شأن المرأة العربية ، فقد غلبت

على مكاتها ومنزلتها ، غلبها جوارى وسريات الأعاجم من فرس وترك وروم  
وصقابة فعادت إلى الانزواء والخمول بعد نباهة الذكر وعلو القدر .

وما هو جدير بأن يلحظ في هذا المقام أن مجد المرأة العربية ، قد صاحب مجد  
الدولة العربية ، ولاشك أن بين الأمرين اتصالا وثيقا . فالمرأة العربية الخارجية التي  
وصفناها من نوع المرأة التي أنجبت أولئك القواد العظام والجنود البواسل والإداريين  
الكبار الذين شادوا الدولة العربية الإسلامية القديمة ورفعوا عمادها ،

أم شبيب ولدت شيبيا هل تلد الذيبة إلا ذيبا  
فلما صار الأمر إلى ما صار إليه انحط المستوى الأخلاقي للمرأة المسلمة  
بانحطاط المستوى الأخلاقي العام . يروى أن المعز لدين الله الفاطمي لبث  
زمنًا يتهب الإقدام على فتح مصر ، فلما قيل له إن نساء قصر الأخشيد  
مستترات ولا يعبان بالفضيلة قال : الآن فتحت مصر ، وسير من فوره إلى  
مصر جوهرًا بحملته المشهورة ؟



# الأدب العربي المصري<sup>(١)</sup>

تاريخه ، إهمال دراسته

١

تألفت منذ أشهر بمدينة القاهرة جماعة من أنصار التاريخ وأساتذته ، والغرض من تأليفها دراسة التاريخ المصري وإذاعته بين جمهور المتعلمين بإلقاء المحاضرات التاريخية أو نشرها في مجلة خاصة بها . ومن أمانى تلك الجماعة التي ترجو أن تحققها الأيام وضع كتاب كبير في تاريخ مصر ، يكون مرجعا للقراء وعمدة للبحاث في التاريخ المصري .

نزعة شريفة ، وعمل جليل ، له في تكوين قوميتنا المصرية وتقويتها أثر غير ضعيف . على أن قومية الأمة إنما تقرب من حد السكالم متى عرفت الأمة تاريخها تاما غير مبتور . وذلك بأن يدرسه أبناءها من جميع نواحيه السياسية والمادية والأدبية . فإنا إذا اعتقدنا أن الأمة كائن حي ، واعتقدنا كذلك أن أحسن التواريخ ما صور لنا ماضى الأمة أتم تصوير ، فلا بد أن ننساق مع القياس المنطقي فنقول : إن التساريخ نفسه يجب أن يكون من حيث تصويره الأمة كائنا حيا ذا جسم وروح . وما الجانب الجثمانى للتاريخ إلا ما كان منه متعلقا بالسياسات والماديات . أما الجانب الروحاني فما كان متعلقا بالأدب وما ينتسب إليه من العلوم .

---

(١) مقالة نشرت بمجلة السفور ، عدد ١٧١ : ١٦ - سبتمبر ١٩١٨ ، وقد قصدنا بنشر هذا المقال والذي يليه مجرد اثبات تاريخ الفكرة لا أكثر .

وهيات أن يفقه قارىء كنه تاريخ أمة من الأمم إذا اقتصر على الجانب  
الجثمانى من تاريخها وأغفل الجانب الروحانى . خذ لذلك مثلاً أمة الإغريق  
القدماء . فحياة هذه الأمة السياسية مملوءة بالعيوب والنقائص . ولو أنك أردت  
الحكم عليها من تاريخها السياسى لجعلتها فى أخريات الأمم التاريخية . ولكنك  
إذا ما قرأت أديها فبهرك ماترى من روعة وجمال لم تلبث أن تنسخ حكمك  
وترفعها فوق أمم الأرض مكاناً علياً .

فلا بد لمن يريد أن يفقه تاريخ أمة من الأمم أن يطالع فى صحيفتها الأدبية  
نزوات عواطفها ، وحركات أفكارها ، كما يطالع فى صحيفتها السياسية نظام  
حكومتها وتحرك جيوشها وتعاقب أسرها الحاكمة عليها .

من أجل ذلك نرى أن عمل جماعة التاريخ المصرى فى حاجة ماسة إلى عمل  
جماعة أخرى ، تتوفر على جمع الأدب العربى المصرى من شعر ونثر ، ثم دراسته ،  
ووضع تاريخ له تسكون صلته بتاريخ أدب اللغة العربية العام صلة تاريخ الأدب  
الأمريكى بتاريخ أدب اللغة الانجليزية العام .

لقد طال العهد على إهمال الأدب المصرى وتاريخه ، حتى أصبح أكثرنا  
يعتقد ألا أدب للغة العربية المصرية . ومصدر ذلك الاعتقاد فى رأينا أن أغلب  
الكتب العربية والأجنبية التى وضعت فى تاريخ أدب اللغة العربية قد أغفلت  
الأدب المصرى . ولا نعلم كتاباً عربياً يسلم من ذلك النقد إلا كتاب « أدب اللغة  
العربية » لجرجى بك زيدان . على أن مؤلف هذا الكتاب إنما عطف على الأدب  
المصرى فى العصور الأخيرة ، لأنه جزء متمم لأدب اللغة العربية لا لأنه  
قائم بنفسه .

وسنبين فى مقال تال أسباب ذلك الإهمال إن شاء الله .



# الأدب العربي المصرى وتاريخه<sup>(١)</sup>

## أسباب إهمالهما

٢

بيننا فى مقالنا السابق ضرورة العمل على جمع تراثنا الأدبى ووضع تاريخ له يدرس فى المدارس ثانويها وعاليها . ووعدنا أن نبين ماصرف أقلام الكتاب الأقدمين والمحدثين عن الأدب المصرى . وها نحن أولاء نرى القارىء بما وعدنا .

لقد كان السبب الأساسى لذلك التقصير الأدبى فى نظرنا : الاعتقاد القديم العام بأن الأدب المصرى أحط منزلة وأقل مقدار من أخويه العراقى والأندلسى . فليس فى مصر إذا عدت الشعراء يوم الفخار من يسامى جرير أو أبانواس والمتبنى وابن هانيء ، ولا من الكتاب والفلاسفة من يشق غبار عبد الحميد وابن المقفع وابن سينا وابن رشد . ذلك الاعتقاد إن يكن على وجه الإجمال صحيحا فإنه لدى التفصيل لا يسلم من معرة الخطأ وركوب الاعتساف . ولو درس الأدب المصرى القديم حق دراسته لارتفع أقوام وانخفض آخرون ، ولكان للأدب العربى عامة نظام غير نظامه المعهود .

فلنقل الحقيقة المرة على علائها : لنعتمد مع الأقدمين بأن الأدب المصرى أقل منزلة وأقل مقدار من أخويه العراقى والأندلسى . فما مصدر تلك الحطة وهذه القلة ؟ لىكى نتجيب على هذا السؤال يجب أن ننظر إلى حال مصر السياسية من

(١) نشرت بالعدد ١٧٢ من مجلة السفور سنة ١٩١٨ .

لكن الفتح العربي إلى مآختم القرن الثامن عشر ، أى إلى مبدأ النهضة الحديثة . وذلك لاستحكام الصلة بين فساد تلك الحال سياسيا ونقص الأدب المصرى فى عهدنا . لقد تعاقب على مصر فى تلك المدة حالات سياسية ثلاث : فكانت مصر إما ولاية تابعة لغيرها ، كما كانت زمن الخلفاء الراشدين وبنى أمية وصدر بنى عباس ، وإما مملكة مستقلة تحكمها خلافة شيعية كما كانت زمن الخلافة الفاطمية وإما مملكة تابعة لخليفة أجنبي وخاضعة لحكومة غير مصرية كما كانت زمن الأيوبيين والمماليك وولاية الأتراك العثمانيين .

ذلك الاستخناء السيامى وهذا الاستقلال المقرون بالخضوع لخلافة شيعية قد أثر فى الأدب المصرى أسوأ التأثير .

ذلك بأن الأدب عامة إنما يزكو فى دور العزة وأمكنة السلطان ويزوى فى مواطن الذلة والخضوع . والأدلة على ذلك كثيرة متعددة .

فالأدب الإغريقى علا وامتد نوره زمن حرية الإغريق السياسية ، وخذت جذوته بالفتح المقدونى . والحياة العلمية الزاهية التى كانت بالإسكندرية إبان حكم البطلمة إنما تآدى إليها الاعتلال والموت بالفتح الرومانى . ثم إن الأدب من شأنه أن ينبسط ظله فى أرض ولاية أمورها يحرصون عليه . ولكن ظله ينقبض إذا كان فى أرض حكامها لا يتذوقون للغة أهلها وأدبهم طعما ، كما حدث للأدب الأندلسى حين فتح المثلثون الأندلس ، وكانوا أقواما من همج البربر لا يكادون يفقهون من أدب الأندلسيين وحضارتهم شيئا . وبعدهذا كله فالأدب الإسلامى سنى المذهب ويأبى أن يزهو ويؤتى أكله فى ظل حكومة شيعية العقيدة .

فأنت ترى أن الأدب المصرى قد نكسب فى الزمن الماضى من ناحية

الحال السياسية نكبة شديدة ، نكبة أثرت في قدره ومقداره معا وصرفت عنه  
أقلام المؤرخين إلى الأدب المشرقي الفخم والأندلسي العذب . وليس ذلك  
بعجيب . إنما العجيب أن نمضى نحن المحدثين على سنه آباءنا ونعتقد اعتقادهم في  
أدبنا القديم . ثم لا نقف عند هذا الحد ، بل نبسط سلطان اعتقادهم على أدبنا  
الحديث مع أنه مما نباهاه به غيرنا إن فاتتنا المباهاة بأدبنا القديم .  
وبعد فإننا بناء قومية والواجب يقضى علينا بأن نجمع شمل أدبنا المشتت وندرسه  
فهل يجيب رجال الأدب في مصر دعوة الواجب كما أجابها من قبلهم  
رجال التسارخ ؟

## البعث ...

تغيبط أشد الاغتياب بمظاهر الحياة التي دب دبيبها وسرى تيارها في العالم في العالم المنصرم من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب ، فكل قطر إسلامي فذهب بعد طول الرقاد ، وصحا بعد نوم مستغرق عميق . فأهل أندونيسيا الذين لا تعلم جمهرة المسلمين عنهم الشيء الكثير قد قاموا بعد أن وضعت الحرب العالمية أوزارها يطلبون حقهم الطبيعي في الوجود وهو الحرية والاستقلال . والهند في قلق واضطراب طال أمدهما . وإيران وتركيا تعانيان كلب جار قوي وخصم ألد عنيد . والعالم العربي قد نهض يجمع شتاته ويظامن بين أجزائه ويسوى صفوفه استعدادا لارتجاع مجد دائر وعز قديم . وفلسطين قد اعتدل فيها ميزان الأمور وأخذت كفة العرب في الرجحان بعد أن مالت بها كفة الصهيونية أو كادت تميل . والمغرب قد أخذ يرسل الصيحة تلو الصيحة مناشدا أعضاء الجامعة العربية ألا يسقطوه من عدادهم وأن يبسطوا عليه جناح محبة وعاطفة حنان . والسودان في حركة تؤذن بانبعث الحياة في جثمانه .

\*\*\*

هي حياة إن شئت فشبها بالنار السكامنة في الحجر الصلد ، فلما اقتدحها زناد الأحداث إذ هي قد تطاير شررها وتوشك أن يكون لها هييب وضرام . وإن شئت فشبها بالحيوية المستكنة في الحبة أو النواة فإيها إلا أن توافرت لها أسباب النمو فإذا هي شجرة باسقة مورقة فينانة توشك أن تخرج أنضر الزهر وتحمل

(١) الثقافة في ١١ ديسمبر ١٩٤٥ .

أطيب الثمار . أو بالبخار المنبت في الهواء لا تحسه العين ولكنه متى تهبأت له أسباب التكاثف والانعقاد إذا هو رذاذ متساقط إلى الأرض يوشك أن يكون مطراً هطالاً تسيل منه الأودية والقيعان وتخضر الوهاد والنجاد .

وأى شيء ذلك الذى اقتدح هذه النار الكامنة واستنبت تلك الحبة الهامدة وعقد ذلك البخار المبوثر ؟ إن شئت فقل هو تحكم شرادم من الهولنديين فى ملايين من الأندونيسيين ، وإصرار الإنجليز على التمسك بالهند وجهرهم بأن الهند ألمع درة فى تاج دولتهم المترامية الأطراف ، وشدة وطأة الروس على إيران وتركيا فى غير تخرج ولا استحياء ، وخطر الصهيونية الذى جعل من فلسطين القطب الذى تدور عليه رضى الجامعة العربية ، وإغراق المستعمرين من الفرنسيين ومن إليهم من الأسبان والظليان فى إذلال المغاربة وإماتة ما فيهم من شعور بالعزة والكرامة والاستقلال .

على أن ذلك كله ما كان ليؤثر أثره لو لم يكن فى المسلمين ذمء من روح وأثارة من يقين وبقية من صدق الإيمان . الحق أن المسلم ، مهما قست عليه الحوادث وتخيفه صرف الزمان ، قوى الشعور بكرامته ، شديد الاعتزاز بعقيدته ولغته وتراثه وماضيه الضخم ، خلال تنزع إلى أعراق قديمة قدم التاريخ ، بل لعلها أقدم من التاريخ .

\* \* \*

فى القرآن الكريم آيات وقصص كثيرة تدل على قدرة الله سبحانه وتعالى على أن يحيى الموتى ، فهو جل اسمه حاشر الخلق أجمعين يوم القيامة ومحاسبهم على ما كسبوا وما اكتسبوا ، وعارضهم على الجنة والنار كل بحسب استحقاقه وما قدمت يده . وهو سبحانه قد يمت من عباده من يشاء موتاً مؤقتاً ثم يعثه

ليكون لنفسه ولغيره من الناس آية وعبرة . من ذلك إمامته عزيزاً ثم بعثه إياه بعد مائة عام . وقد يلقي الله النوم على جماعة بعينها مئين من السنين ثم يعيها إيماء منه إلى أن لكل رجال زماناً لا ينبغي أن يسبقوه أو يتخلفوا عنه ، وهو يورد مثلاً لذلك قصة أهل الكهف والرقيم . وقد يحيى سبحانه حيواناً بعد إمامته إحياءً معجلاً سريعاً ، إشارة منه إلى حكمة بالغة ، من ذلك إحياء الطيور الأربعة التي أمر إبراهيم الخليل أن يذبحها ويقطع أو صالحها ويجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم يدعوها ، فلها فعل أتت إليه الطيور سراعاً مشياً وطيراناً . قال تعالى : « وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى ، قال أو لم تؤمن ؟ قال بلى ، ولكن ليطمئن قلبي . قال نخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعيًا ، وأعلم أن الله عزيز حكيم ، ويقول المفسرون إن هذه الطيور الأربعة كانت طاووساً وديكاً وغراباً وحمامة . ويقولون إن في القصة إيماءً لطيفاً إلى أن إحياء النفس بالحياة الأبدية إنما يأتي بإماتة الشهوات والزخارف التي هي صفة الطاووس ، والصولة المشهور بها الديك ، وخسة النفس وبعد الأمل المتصف بهما الغراب ، وقلة الرغبة في الترفع والمسارعة إلى الهوى الموسوم بهما الحمام .

ترى هل أمات الله الأمم الإسلامية أو ألقى عليها نوماً ثقيلاً حقة من الدهر ثم تأذن بحياتها عندما غيرت ما بأنفسها من صفات الشر وأنشأت تتحلى بصفات الخير ؟

أكبر ما نأمل أن يكون الأمر كذلك ، فيكون ما نشاهد في أنحاء العالم الإسلامي من مظاهر الحياة بداية لمستقبل مجيد تنعم به الأمم الإسلامية وتستفيد منه الإنسانية جمعاء .

## كشاف

ابن عبد الحكم ١٦٤، ١٦٦، ١٧٢	أبرهة الحبشى ٢٠
١٧٣،	إبراهيم النبي ٥٩، ١٩٥
ابن هاني ١٩٠	أبرويز ٨٦
ابن هشام ١٥، ٤٩	الأبلة، انظر البصرة
أبو احمد ٥٠	ابن الأثير ٢٤، ٣٦
أبو بكر ١٨، ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٦٢، ٧٨، ١٠٩	ابن إسحق ١٩، ١٨، ١٥، ٩، ٤٥، ٤٢
١١٠، ١٢١، ١٢٢، ١٢٤، ١٢٥	٤٩، ٥٥، ١٢٣
١٢٦، ١٦١، ١٨٦	ابن الأشعث ١٤٦
أبو بكرة ١٣٣	ابن الجوزى ١٧٤
أبو تمام ١٠١	ابن حزم (أبو بكر محمد) ١٦٦، ١٧٢
أبو جعفر الأصفهاني (الوزير) ٢٥	ابن الدغنة ١٨
أبو جهل بن هشام المخزومي (أبو الحكم)	ابن رشد ١٩٠
١١٠، ١١٠	ابن سعد، محمد - ٣٣، ٧٣، ٧٤
أبو الحسن المسعودى ١٠٩	١١٥، طبقات - ١١٥
أبو حمزة الخارجي ١٨٤	ابن سعيد ٧٦
أبو ذر الغفارى ١٠٨، ١١١، ١١٢	ابن السوداء ١١٤
١١٣، ١١٤، ١١٥، ١١٦	ابن سينا ١٩٠
أبو رافع ٢١	ابن شهاب الزهري ١٦٤
أبو الزناد ١٦٦	ابن عباس ٥٥، ١٢٥

أبو الهيثم بن التيهان ٤٥	أبو سفيان بن حرب ٤٩، ٢١، ١٨، ١٠
أثينا ٨٨	١٣٥، ١٣٤، ١٣٢، ١٢٨، ١٢٧
أحد ١١٢، ٦٢، ٢٣، ٢١، ١٨	أبو طالب ٤٠، ٣٥
أحمد لطفى السيد ٩٣	أبو العاص بن الربيع ٣٦، ٣٤
الإخشيد ١٨٧	أبو عامر سيد الأحابيش ٢١
أردشير ٨٦	أبو عامر الراهب ٤٤
أردوان الإسفانيين ٨٦	أبو العباس المبرد ١٨١، ١٨٠
الأرقم بن الأرقم المخزومي ٢٣، ٢٢، ٢٥، ٢٤	أبو عبيد الثقفي ٧٩
أرمينية ٨٦، ١٧٩، ١٨٤	أبو عبيد الله ١٢٦
الأزرقى ٢٠	أبو عبيدة بن الجراح ١٢٥، ١٢٢، ٧٧
الأزد ١٣١	أبو العلاء المعرى ١٨٠
أسامة بن زيد ٧٦	أبو فديك ١٧٩
أسبرطيون ٨٩	أبو قبيس ٥٩
الاستقساء ٧٤	أبو لؤلؤة ٨٤
آسك ١٧٨	أبو موسى الأشعري ١٢٨، ١٢٩
الإسكندر ٥٢	١٤٠٠
الاسكندرية ٩٥، ٩٩، ١٠٠، ١٠٣	أبو نعيم ١٧٢
١٩١، ١٠٩	أبو نواس ١٩٠
الإسلام ١٣، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٥	أبو هالة هند بن زرارة التيمي ٢٨
٦٥، ٦٤، ٥٨، ٥١، ٤٤، ٣٩	أبو هريرة ( أبو هر ) ٦٩، ١٢٣
	١٢٤٠



الاصهباني ١٨٢	١٠٧، ١٠٨، ١٠٩، ١١٠، ١١٢،
اصطخر ١٣١، ٨٥	١١٤، ١١٥، ١١٦، ١٢١، ١٢٧،
الأصمعي ١٤٣	١١٣٥، ١٣٩، ١٤٥، ١٧١، ١٧٢،
افريقية، المغرب ١٧٣، ١٧١، ١٤٥	١٧٥، ١٧٦ الدعوة الإسلامية
أفلاطون ١٥٥، ٩٤	١١، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٨، ٣٣،
الأفلاطونية الحديثة ٨٨	٤١، ٤٢، ٤٣، ٥٨، ٦٧، ١٢١، ١٢٥،
إلبا ٥٢	الشرق العربي ٦٤ العصر الإسلامي
آل بربون ٥٢	١٢٢ البلاد العربية، الأمة العربية
الإمامة ٢٦	١٠٧، ١٠٥، ٦٤، ١٠٧،
أليون الثالث ١٧٤	١١٥، ١٢١، ١٦٥، ١٦٥،
أحج ٤٧	الإسلامية ٦٦ الشريعة ١١٠، ١٢١،
أم الجراح العدوية ١٨٢	١٦٧، ١٦١
أم حكيم ١٨٢، ١٨٣	أسلم (قبيلة) ١٩
امرؤ القيس ١٠١	أسلم مولى عمر ٦٨، ٦٩
أم سلة ٥٥	اسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر ١٧١
أم شبيب ١٨٧، ١٨٣	آسيا الصغرى ٨٦
أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن	السيد الحميري ١٢٥، ١٢٦،
الخطاب ١٥٦	أشعانيون ٨٥
أم كلثوم بنت النسي ٣٢، ٣٣	أشور ١٠٢
أم كهس ١٨١	أشوريون ٨٩
	أصبهان ١٧٢

بابل ١٠٢	انجليز ١٩٤
بابلون ٩٥٠٤	الاندلس ١٦٦، ١٤٦
بتلر ٩٧٠، ٩٥٠، ٩٤٠، ٩٣	اندونيسيا ١٩٤، ١٩٣
البخترى ١٠١	الانجيل ٢٨
البحر الاحمر ٧٠٠، ٤٧٠، ٢٩	انس بن مالك ١٥٦
بحر الروم ١٠٣، ١٠٢، ١٠١، ٩٩	الانصار ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٦
البحرين ١٤٧	١٢١، ١١٥، ١١١، ٥٧، ٥٥، ٥٣
البخارى ٤٤	الانفوشى ٩٩
البخترى بن هشام الاسدى ١٠	انو شروان ٩١، ٩٠، ٨٨
بد ١٤٩، ١٤٧	اهل ذمة ١٦٩، ١٦٨، ١٦٧
بدر ١١٢، ٥٠، ٤٩، ٤٧، ٢٣، ٦	اهل السنة ١٧٣
بدر بن حارثة ١٤٤، ١٤٣	اهل كتاب ١١٣، ٤٢
البردة ١٠٦	الاهواز (جبل) ١٤٢، (ناحية) ١٨٢
برقة ٩٥	اهورا مزدا ٨٩
برهمناباذ ١٥٠، ١٤٧	الآوس ٤٤، ٤٣، ٤٢، ٤١، ٢٠
البرهه (قبيلة هندية) ١٤٧	آل زياد ١٣٥
بسر بن أرطاة ١٣٣	آل كاشف الغطاء ١١٧ (محمد
البصرة ١٠٦، ١٠٩، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩	كاشف الغطاء النجفي)
١٣٠، ١٣١، ١٣٣، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨	أورليان ١٨٦
١٣٩، ١٤٠، ١٤١، ١٤٢، ١٤٧، ١٦٦	أيوب النبي ١٤٧
١٦٩	بابك ٨٥

بنو جحش ٤٩،٤٦	البطالمة ٩١،٥١
بنو جمح بن أمية بن خلف ١٠	بعث ٤٣
بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة	بغداد ١٢١
١٨،١٥	البيوع ٦٢ ٦٩
بنو حارثة ٦٩	بكر بن عبد مناة بن كنانة ( بنو
بنو سلمة ٦٩	بكر - ) ١٩
بنو سهم ١٠	بكر بن وائل ١٣١
بنو عامر ٧	البكرية ١٠٦
بنو العباس ١٤٠ انظر: عباسيون	البلاذري، صاحب فتوح البلدان ٤٨،
بنو عبد الأشهل ٦٩	١٥٦،١٤١،١٤٠،١٢٣،٧٥،٥٠
بنو عبد الدار ١٠	١٨١،١٦٨،١٦٧،١٥٠،١٤٩
بنو عبد شمس ١٠	بلال بن رباح ٢١، ٤٨ .
بنو عبد مناف ١١	البلجاء التميمية ١٨١
بنو عدى ١٢٥	بلقيس ٦، ١٨٦
بنو عقيل ١٦٥	بنو أسد ١٠
بنو فزارة ٢٠	بنو إسرائيل ٦
بنو قريظة ٤٣، ٦٩	بنو أمية، الدولة الأموية ١٤٠، ١٥٧،
بنو قصي ٩	١٦٠، ١٦١، ١٦٤، ١٦٦،
بنو قينقاع ٤٣	١٦٩، ١٧٣، ١٧٨، ١٧٩، ١٩١،
بنو مخزوم ٢٣	بنو تميم ١٣١
بنو المصطلق ( من خزاعة ) ١٥،	بنو تميم ١٢٥
٥٣،١٩	

تركيا ١٩٣ ، الترك العثمانيون ٨٩	بنو المطلب ٣٥ ، ٣٩
التصوف الفارسي ٨٨	بنو مظعون ٤٦
تل تباتي ١٨٥	بنو المغيرة ٢٠
تميم ١٧٦ ، ١٨٢	بنو النجار ٤٨
تهامة ١٣	بنو نصر ١٦٨
التوراة ٢٨	بنو النضير ٤٣ ، ٥٠
توماس مور ١٥٥	بنو نوفل بن عبد مناف ١٠
ثعلب (جمل) ١٩	بنو هاشم ٢٨ ، ٣٥ ، ٣٩ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ١٢٥
ثقيف ٢٠ ، ٤٠ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٣٥	بهثة ٧
١٤٥ ، ١٤٧	بهرام الأول ٩٠
ثور (جبل) ٤٧ (غار) ٥٨	بهرام جويين ٩١
تيوفان ١٧١	بومباي ١٤٧
جارية بن قدامة السعدي ١٣١	بيت المقدس ٨٦
جامع عمرو (الجامع العتيق) ٤	بيت المال ١١٩ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٧٠
الجامعة العربية ١٩٣ ، ١٩٤	بيت مال البصرة ١٣٠
الجاهلية ٦٧ ، ١٠٦ ، ١١١ ، ١٣٠ ، العصر	البيعة ٤٢ ، بيعة العقبة ٤١ ، ٤٢
الجاهلي ١٢٢ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٤٥	تانة ١٤٧
١٤٦ ، ١٤٧	تبوك ٩٧ ، ٩٨ ، ١١٢
الجبانة ٨٠	التار ٨٧
جبير بن مطعم ١٠	تدمر ١٨٦
جدة ١	الترك ٥ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٢ ، ١٨٦ ،

الحافظ بن عساكر ١٤٣	الجرار ٨١
حبش ، أحابيش ١٣ ، السودان ١٤ ،	جرمين رويارد ٩٦
٢١،٢٠،١٩،١٨،١٧،١٦،١٥	جرير ١٩٠
الحبشة ١٤، ٢٠، ٢٢، ٣٧، ٣٩	جزعة ١٨٢
حبشى ( جبل ) ١٥، ١٧	جزيرة العرب ، الجزيرة ، بلاد العرب
الحسن البصرى ١٦٢، ١٦٣، ١٦٦	قلب البلاد العربية ١، ٢٠، ٢٤، ٢٦
الحج ٣٤، ٤١، ٤٤، ٦٠، ٦١، ٦٤، ٦٥	٧٧، ٧٥، ٧٤، ٧٣، ٧٢، ٧١، ٦٩، ٦٨
٦٧ ٦٦	١٧٩، ١٤٦، ١٠٨
الحجاز ٢٠، ٢٤، ٢٥، ٢٧، ٣٩، ٥٧	الجزيرة ٧٩، ١٨٤
١٥٩ ١٥٧ ١٤٥ ٩٧ ٦٣ ٦١	جستنيان ٨٨
١٨٤	الجرس ( وقعه ) ٧٩
حجر اسماعيل ٥٩	جولاء ٩٢، ١٢٧، ١٢٩
الحجر الأسود ٥٩ ٦٦	الجمل ( وقعه ) ١٣٠، ١٨٦
حجر بن عدى الكندى ١٣٤ ١٣٨	جميع بن حاضر الناجى ١٦٨
١٤٣ ١٤٠	جميل ١٤٦
الحجون ٣٥ ٤٩	جهجاه الغفارى ٥٣
الحجاج بن يوسف الثقفى ١٤٥، ١٤٦،	جهيزة ١٨٣، ١٨٤
١٥٣، ١٥١، ١٥٠، ١٤٨، ١٤٧	جيهنه ٧
١٥٤، ١٥٩، ١٦٠، ١٦٥،	جوته ٩٤
١٦٧، ١٧٩، ١٨٣، ١٨٤،	جوهر ١٨٧
الحديبية ١٨، ١٩، ٥٤، ٥٥، ٥٨	جيشبة ١٧١
الحديث ١٢٣، ١٣٥، ١٥٧، ١٥٩	الحارث بن عامر بن نوفل ١٠
حروراء ٧٥، ١٧٦	الحارث بن كلدة ١١٧، ١٣٤
الحسن بن على ١١٨ ١٣٢	الحارث بن محمد الأشعري ١٢٨

خراسان ١٢٩ ، ١٣٦ ، ١٣٨ ، ١٤١	حسان بن ثابت ١٦ .
١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨	حفصة بنت عمر ١٢٢ .
خراش بن أمية الخزاعي ١٩	الحكم بن ابى عقيل ١٤٥
خزاعة ١٣ ، ١٦ ، ١٩	الحكم بن أبى العاصى ١٤٧ .
الخنزرج ٢٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ١١١	حكيم بن حزام الأسدى ١٠ ، ٢٨
خزيمه ١٦	حلب ١٥٧
خناصره ١٥٧ ، ١٧٣	الحلة ١٢
الخنديق ( المدينة ) ٢٣ ، ٦٢ ، ١١٢	الحليس بن ذبان ١٨
الخنديق ( العراق ) ٨١	حمزة بن عبد المطلب ١٨ ، ٢٤
الخليج الفارسى ١٤٨	حمص ١٦٦
الخوارج ، الحرورية ، المحكمة ،	حنيفة ١٧٦
الأزارقة ، الصفرية ، الإباضية	الحيرة ٨١ ، ٨٢ ، ٨٧
النجديه ١٤٦ ، ١٥٩ ، ١٦١ ، ١٧٠	الخابور ١٨٥
١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ،	خالد بن الوليد ٢٠ ، ٢٣ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٤
١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ،	خبيب بن عبد الله بن الزبير ١٥٨ ،
١٨٤ ، ١٨٥	١٥٩ ، ١٦٢
الخورنق ٨١	خديجة بنت خويلد ٢٣ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨
خويلد بن أسد بن عبد العزى ٢٧	٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ،
خير ٢٠	٣٥ ، ٣٦ ، ٤٠
خير ٨٦	الخراج ، الجزية ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٥٠ ، ١٦٠ ،
خيران ٢٥	١٦٧ ، ١٧٠ ، الأرض الخراجية
دايق ١٦٤	١٦٠ ، ١٦٧ ، الأرض العشرية
دار الإمارة ١٤٢ ، ١٤٣	١٦٠ ، ١٦٧
دار الرزق ١٤١	١٦٠ ، ١٦٧

٦٩ ٦٣ ٦٢ ٦١ ٥٨ ٥٧ ٥٦	دار الندوة ٦ ٨ ٩ ١١ ١٢ ٤٦
١٢١ ١١٠ ١٠٥ ٩٧ ٧٧ ٧٣	دارون ٩٤
١٢٦ ١٢٥ ١٢٤ ١٢٣ ١٢٢	داهر ١٤٨ ١٤٩ ١٥٠ ١٥٢ ١٥٣
١٨٦ ١٦٧ ١٦١ ١٣٥	ديس (نهر) ١٤٠
الرشيدي ١٨٤ ١٨٥	دجلة ١٠٩ ١٥٢
رقية بنت النبي ٢	دمشق ١٣٤ ١٣٨ ١٥٢ ١٦٨ ١٧٣
الرمادة ٦٧ ٦٩ ٧٢ ٧٣ ١٧٦	١٧٥ غوطة - ١٦٨
روح بن الوليد بن عبد الملك ١٦٦ ١٦٧	دولاب ١٨٢ ١٨٣
الروس ١٩٤	الديبل ١٤٧ ١٤٨ ١٤٩
الروم ٧٢ ٧٩ ٨٦ ٨٧ ٨٨ ٨٩	دير سمعان ١٧٣
١١٢ ٩٧ ٩٦ ٩٥ ٩٤ ٩٣	رأس التين ١٠٠
١٨٧ ١٧٤ ١٥١	راور ١٤٧ ١٥٠ ١٥١
روما ٦١	الربذة ١١٤
الرومان ٥ ١٠٢ ١٠٣ ١٢٢	ربيعه ١٦٨ ١٧١ ١٧٦
الري ١٤٨	الربيع (الوزير) ٢٥
الرباه ١٨٦	رجاء بن حيوة السكندی ١٦٢ ١٦٣
الزبير بن العوام ٢٨ ١٠٩ ١١٠ ١٣٠	١٦٤
الزراذشتية ٨٩ ٩٠ ٩١	الردة ٧٨ ١٧٦ ١٨٦
الزط ١٤٧ ١٥٠ ١٥١	رستم ٨١ ٨٢ ٨٤
الزكاة ١١٤ ١٦٧ ١٦٩	الرسول النبي محمد ٣ ٦ ٧ ٩ ١٠ ١١
زمزم ٥٩	١٢ ١٦ ١٧ ١٩ ٢٠ ٢١ ٢٢
زعة بن الأسود الأسدي ١٠	٢٣ ٢٤ ٢٨ ٢٩ ٣٠ ٣١ ٣٢
زهرة ٨٢	٣٤ ٣٥ ٣٦ ٣٧ ٣٨ ٣٩ ٤٠
الزهري ٨ ١٢٣	٤١ ٤٢ ٤٣ ٤٤ ٤٥ ٤٦ ٤٧
زهير ١٠	٤٨ ٥٠ ٥١ ٥٢ ٥٣ ٥٤ ٥٥
زياد بن أبي سفیان ١٢٧ ١٢٨ ١٢٩	





صاوباً ٨٢	شاور بن مجير السعدى ٥
الصليب الاعظم ٨٦	شبيب ١٧٩، ١٨٤
صنعاء ١١٤	شراف ٨٠
صيب ٢٤، ٤٩	الشريف الرضى ١٧٣
الصين ١٠٣	الشعب ٢٨، ٣٥، ٢٩، ٤٩٠
صبيونية ١٩٣، ١٩٤	شعب الحره ١٠٩
ضمرة ١٦٨	الشعبي (عامر) ١٤٣، ١٦٦
الطائف ٢٠، ٢٣، ٤٠، ١٢٧، ١٥٧	الشعبية ٣٩
الطبرى ١٨، ١٩، ٢١، ٤١، ٨٠، ٨٢	شكسبير ١٠١
١٢٣، ١٣١، ١٧٢	الشهر ستانى ١٢٦
طرابلس ٩٥	شوذب ١٧٠
طعيمة بن عدى ١٠	شيدبة بن ربيعة ١٠
طلحة بن عبيدالله التيمى ١١٠ و ١٢٩	الشيخ النجدى ١٠٩، ١١٠
الطلحتان (دار -) ١١٠	شيزاز ٨٦، ١٤٨، ١٤٩
طنجة ١٠٣	الشيعة العلويون ٨٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٤٠
عائشه ٢٧، ٤٤، ٤٨، ١٢٢، ١٢٤، ١٢٩	١٦١، ١٧٠، ١٧٣
١٨٦	صواب ٢١
العاقد لدين الله الفاطمى ٥	صاحب الاغانى ٢٠، ١٢٥، ١٤٦
عامر بن الطفيل ٧	صاحب لباب النقول ٢١
عامر بن فهيرة ٢١ و ٥٨	صالح بن عبد الرحمن ١٥٤
عامر بن لؤى ٢٧	صالح بن كيسان ١٥٧
العباس بن عبد المطلب بن هاشم ٣٤،	الصحابة ٣٩، ٤٦، ٤٧، ٥٢، ٥٣، ٥٦
٧٤، ٧٣	٦٧، ١٢٢، ١٢٣، ١٥٦، التابعون ١٥٦
العباسيون ١٧٣، ١٧٩، ١٩١	الصفاء ٢٣، ٥٨، ٥٩، ٦٦
عبد الحميد بن عبد الرحمن القرشى ١٦٦	صفين ١٧٥
عبد الرحمن بن أبى بكر ١٥ و ٤٩	صقالية ١٨٧
عبد الرحمن بن أبى بكرة ١٣٠ و ١٣٣	

عبيد الله بن زياد ١٧٨ ١٧٩ ١٨١ ١٨٢	عبد الرحمن بن عبد القارى ٧٠
عبيد الله بن الماحوز ١٨٢	عبد الرحمن بن عوف الزهرى ١١٠
عبيده بن هلال ١٧٩	عبد الرحمن بن ملجم ١٨١
عتبة بن ربيعة ١٠	عبد الرحمن بن نعيم القشيرى ١٦٦
عتبة بن غزوان ١٢٧	عبد القيس ١٤٧
عتيق بن عائد بن عبد الله بن	عبد العزيز بن قصي ٢٧
مخزوم ٢٨	عبد الله بن النبي، الطاهر، الطيب ٣٢
العتيق ٨٢ و ٨١	عبد الله بن ابي بن سلول الخزرجى ٤٤
العجم ٨٣ و ١٣٢ و ١٦٨ و ١٦٠	٥٤ و ٥٣ و ٤٥
عثمان بن ابي العاص ١٤٨	عبد الله بن ابي ربيعة ٢٠
عثمان بن عفان ( ذو النورين ) ١٠٥	عبد الله بن جحش ٤٩
١٠٦ و ١٠٩ و ١١٢ و ١١٣ و ١١٤	عبد الله بن جعفر ١٥٦
١٢٥ و ١٢٩ و ١٤٠ و ١٨٦	عبد الله بن الحضرمى ١٣٠ و ١٣١
عدى بن ارساة الفزارى ١٦٦	عبد الله بن عباس ١٣٠ ١٣١ ١٣٢
العذيب ٨٢	١٤٠
العراق ٧٠ و ٧٧ و ٧٨ و ٧٩ و ٨٠ و ٨٧	عبد الله بن عمر ٦٨ ٦٩ ٨٣ ١٣٥
١١٠ و ١١٧ و ١٢٧ و ١٣٣ و ١٣٩ و	١٦٢ و ١٥٦
١٤٠ و ١٤٣ و ١٤٥ و ١٥١ و ١٥٣	عبد الله بن عبد الله بن عتبة ١٦٣
١٥٩ و ١٧٩ و ١٨٣ السواد ٨١	عبد الله بن الزبير ١٤٦
العرب ٥ و ٧٩ و ٨٣ و ٨٧ و ٩٢ و ٩٤ و	عبد الله بن عتبة بن مسعود ٧٠ و ١٥٦
٩٥ و ٩٦ و ١٠٢ و ١٠٨ و ١١٣ و ١٢١	عبد الله بن عامر ١٢٩ و ١٤٠
١٣١ و ١٣٤ و ١٣٥ و ١٤١ و ١٤٥ و	عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز ١٦٤
١٤٦ و ١٤٧ و ١٤٨ و ١٥٣ و ١٥٤ و	١٧٣
١٦٠ و ١٦١ و ١٩٣ عرب البحرين	عبد الملك بن مروان ١٥٧ ١٦٠ ١٦٨
١٤٧	عبيد ١٣٤
العرج ٤٧	عبد العزيز ١٥٦ و ١٥٧
عرفة ٦٣	

١٢٣ ، ١٢٢ ، ١١٢ ، ١١٠ ، ١٠٩	عروة بن أدية ١٨٢
١٢٨ ، ١٢٧ ، ١٢٦ ، ١٢٥ ، ١٢٤	عروة بن مسعود الثقفي ٢٣
١٦١ ، ١٤٧ ، ١٤٠ ، ١٢٩ ، ١٢٩	عسفان ٤٧
١٦٩ ، ١٦٧ ، ١٦٢	العصور الوسطى ١٥٤
العمرية ١٠٦	عضل (بنو الهون بن مدركة) ١٦
عمر بن أبي ربيعة ١٠١ ، ١٤٦	عفيف ٣٤
عمر بن عبد العزيز أشح بنى أمية .	العقبه ٤١ ، - الأولى ٤٢ ، ٤٥ ، -
١٥٩ ، ١٥٨ ، ١٥٧ ، ١٥٦ ، ١٥٥	الكبرى ٤٥
١٦٥ ، ١٦٤ ، ١٦٣ ، ١٦٢ ، ١٦١	العقد الفريد ١٦٢
١٧١ ، ١٧٠ ، ١٦٩ ، ١٦٨ ، ١٦٧	عقيل بن أبي طالب ٤٩
١٧٤ ، ١٧٣ ، ١٧٢	عك ١٥٣
عمرو بن أدية ١٧٧	علي بن أبي حملة ١٦٨
عمرو بن أسد (عم خديجة) ٢٨	علي بن أبي طالب ٣٣ ، ٣٤ ، ٤٦ ، ٤٨ ،
عمرو بن الحنق ١٣٤	١٠٦ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٦ ، ١٢٩ ،
عمرو بن خنثر ٢٧	١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٨ ،
عمرو بن العاض ٧٠ ، ٧١ ، ٧٧ ، ٩٥	أبو تراب ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٧٥ ، ١٨١ ،
١٢٨ ، ٩٦	عمان ١٤٦ ، ١٤٧ ،
عمرو بن علقمة ٤٩	عمار ٢٤
عمرو بن عوف ٤٧	عماس ٨٣
العواء ٧٤	عمران بن حطان ١٨٣
عياش بن خليفة ٧٦	عمر بن الخطاب (ابن حنتمة) ٦ ،
عيسى ٣٤ ، ١٧٤	٢١ ، ٢٤ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٦٧ ،
عيلام ٨٥	٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ،
عين شمس ٩٥	٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ،
	٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٩٦ ، ١٠٦ ،

أفراغة ه	الغار ٤٧
الفردوس ٩٤	غزاة ١٨٣ ١٨٤ ١٨٥
الفرزدق ١٥٨	الغسانة ٨٧
الفرس ٥ ٦٢ ٧٩ ٨٣ ٨٤ ٨٦ ٨٧	غضى ٨٠
٩٥ ١٣١ ١٣٢ ١٤٠ ١٨٧ ١٨٦	غفار (من كنانة) ١١١ ١١٢ ١١٦
فرنسا ٥٢	الغنوى ٥٠
الفسطاط ، مصر القديمة ، ٥	غوية (دى -) ٩٧
الفقه ١٣٥	الغارابي ١٥٥
فلسطين ٥ ٨٦ ١٩٣ ١٩٤	فارس ، ايران ٧٧ ٨١ ٨٢ ٨٣ ٨٥
فلهاوزن ١٣	٨٧ ٨٨ ٨٩ ٩١ ٩٢ ١١٤
السق ١١٠ ١١٢ ١١٣ ١٢٢ ١٦٩	١٢٨ ١٣٠ ١٣١ ١٣٣ ١٤٠
فينيقية ١٠٢	١٤٦ ١٥١ ١٥٤ ١٧٠ ١٩٣
القادسية ٧٩ ٨٠ ٨١ ٨٢ ٨٣ ٩٢	الفارعة بنت طريف ١٨٤
القاسم بن النبي ٣٢	فاطمة بنت النبي ٣٢ ٣٣
القاهرة ١٨٨	فاطمة بنت زائدة بن الأصم من بني
قبا ٤٧ ٤٨	عامر لؤى ٢٧
قبرس ١١٢ ١٦٨ ١٦٩	فاطمة بنت عبد الملك بن مروان ١٥٧
قتيبة بن بنت مسلم ١٤٦ ١٦٨	١٦٤
قتيلة بنت نوفل ٣٨	فتح الباري ١٧٢
قديد ٤٧	الفتنة الكبرى ١١٦
قديس ٨٢	فدك ١٧٠
قرآن ٦ ٧ ١٢ ٢٣ ٤٦ ٤٧ ٨٧	فدياس ١٠١
١٠٧ ١١١ ١٢٤ ١٢٩ ١٥٧	الفرات ١٠٩ ١١٩
١٥٨ ١٨٦ ١٩٤	

كليب (أخو مهلال) ٨	١٤ ١٣ ١١ ١٠ ٩ ٨ ٦	قريش
الكناسة ١١٠	٢٤ ٢٢ ٢١ ١٩ ١٨ ١٧ ١٦	
كنانة ١٦، ١٨، ١٩	٤٠ ٣٩ ٣٨ ٣٧ ٣٥ ٢٨ ٢٧	
كنيسة يوحنا ١٦٨	٥٥ ٥٣ ٤٩ ٤٧ ٤٦ ٤٥ ٤٣	
الكوفة ١٠٦، ١٠٩، ١١٠، ١١١	١١٢ ١١١ ١١٠ ١٠٩ ٥٨	
١١٤، ١١٩، ١٢٠، ١٣٣، ١٣٤	١٤٤ ١٢٨ ١٢٥	
١٣٨، ١٣٩، ١٤٠، ١٤١، ١٤٢	١٧١ ٨٦	قسطنطينية
١٦٦، ١٦٧، ١٦٩، ١٧٥، ١٨١		قصي بن كلاب ٨
١٨٣		قطام بنت علقمة ١٨١
السيانيون ٨٥؛ ٨٩	١٨٣ ١٨٢ ١٧٩	قطري بن الفجاءة
الكيرج ١٥٠ ١٥٣		قبيعان ٥٩
لجنة التأليف ٩٤		قيس ١٥٣
مادى ٨٥		قيصر ٣٤ ٧٧
ماسيرو ٩٦		قيصر روسيا ١٠٧
المؤلفة قلوبهم ٥٥		كراتشي ١٤٧
مالك بن أبي السمح ١٥٦		كشير ١٤٦
ماني ٩٠		كربلاء ١١٧ ١١٨
مالك بن أنس ١٨٠		كرمان ١٣١ ١٤٩
ما وراء النهر ١٤٦، ١٧١		كسرى ٣٤ ٧٧ ١١٤ ١٣١ الأكرة
الماوردي ٢١		١٤٠
متحفون ٢٨		كسكر ١٥١ ١٥٢
المتنبي ١٩٠		كشكف الغمة ١٠٦
المتوكل ١٧٩		كعب بن حامد ١٦٦ ١٦٧
المثنى بن حارثه ٧٧، ٧٩		الكعبة، بيدت الله ٨ ١٨ ٢٣ ٣٤
محارب (بنو -) ٦٩		٦٦ ٦٥ ٦٣ ٦١ ٦٠ ٥٩ ٥٨
محمد بن أبي بكر ١٣٠		

المسور بن مخرمة ٧٠	محمد بن القاسم الثقفي ١٤٥ ، ١٤٦
المسيحية ٨٨ ، النصارى ١٥١ ١٦٨	١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢
مسيلة ٩٧	١٥٣ ، ١٥٤
المشرق ١٣٢	محمد فريد أبو حديد ٩٣ ٩٤
مصر ١ ٦٤ ٧٠ ٧٧ ٧٩ ٨٦ ٩٣	محمد بن معبد ، ١٧٤
٩٤ ٩٥ ٩٦ ٩٧ ١٠٢ ١٠٣	المدائن ٨٦ ، ٨٧
١٠٦ ١٠٩ ١٣٠ ١٥٦ ١٦٧	المدائن ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢
١٨٧ ١٨٨ ١٩٠ ١٩١ ١٩٢	المدينة ، يثرب ، ١ ، ٩ ، ٢٠
مصعب بن عمير ٢٤ ٤١	٣٧ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥
مصيصة ١٥٢	٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٣
مضر ٢٧ ١٧١	٥٤ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ١١٠
المطعم بن عدى ٤١	١١١ ، ١١٦ ، ١٢١ ، ١٢٨ ، ١٥٦
المظالم ١٦٦	١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٢ ، ١٦٦ ، ١٧٦
معاوية بن أبي سفيان ١٢ ٢٥ ٧٠	مراد الثالث ٢٥
١١٢ ١١٣ ١٣٠ ١٣٢ ١٣٤	مرداس بن أدية ١٧٨ ١٨١ ١٨٢
١٣٥ ١٣٦ ١٣٨ ١٣٩ ١٤٠	المروة ٢٣ ٥٨ ٥٩ ٦٦
١٤٦ ١٧٥ ١٨٦	مروان بن الحكم ١٥٦
معبد ١٥٦	مريم ( - بنت عمران ) ٣٦ ١٢٥
المعتضد ١٢	مريم الخارجية ١٨٤
المعز لدين الله ١٨٧	مزاخم مولى عمر بن عبد العزيز ١٥٩
معقل ( نهر ) ١٤٠	١٦٤ ١٦٥ ١٧٣
المغرب ١٤٦	مزدك ٩٠ ٩١ ١١٤
المغيرة بن سعيد العجلي ١٢٦	المسجد النبوي ١٥٨
المغيرة بن شعبة ٨٠ ١٢٨ ١٣٣ ١٣٤	المسعودي ١١٠
١٣٨ ١٤٣ ١٧٩	مسلمه بن عبد الملك ١٧١
المغيرة ( شيعة غلاة ) ١٢٦	

الميد ١٤٨	المقداد ١١٠
ميسرة غلام خديجة ٣٠	المقوقس ٩٥ ٩٦
ميشيل أنجلو ١٠١	مكتبة الاسكندرية ٩٥ ٩٦
نائلة بنت الفرافصة ١٠٧ ١٨٦	مكران ١٤٧ ١٤٨ ١٤٩
النايغ ١٠	مسكة ١ ٨ ١٣ ١٥ ١٧ ١٨ ١٩
نابليون ٥٢	٢٠ ٢١ ٢٢ ٢٣ ٢٤ ٢٥ ٢٦
نافع بن الأزرق ١٧٩ ١٨٢	٢٧ ٣٠ ٣٨ ٣٩ ٤٠ ٤١ ٤٣
ناي ٥٢	٤٥ ٤٦ ٤٧ ٤٨ ٤٩ ٥٠ ٥١
نبيه بن الحجاج المخزومي ١٠	٥٨ ٦٠ ١١١ ١٥٧ ١٥٩ ١٧٦
النجاشي ٣٩	مكحول الشامي ١٦٤
نجد ٩ ، ٤٧	الملل والنحل ١٢٦
نجدة ١٧٩	الملتان ١٤٧ ١٥٠
نجرانية السكوفة ١٦٧	المنافقون ٥٣
النجف الأشرف ١١٧ ، ١١٨ ،	منبه بن الحجاج المخزومي ١٠
١١٩	المنصور ٢٥
النساطرة ٨٨	المهاجرون ٣٩ ٤٨ ٤٩ ٥٠ ٥١ ٥٣
النضر بن الحارث ١٠	٥٤ ١٢١
النظام الثلاثي ١٢٢	المهدي ٢٥ ١٢٥
نقيسة بنت منبه ٣١	مهران ١٥٠
النمر ٧٠	المهرجان ١٦٧
الخميري ١٤٦	المهلب بن أبي صفرة ١٧٩
نهاوند ٩٢	مهمل ٨
نهج البردة ١٠٦	موبدان ( موابذة ) ٩٠
النهروان ١٧٩	موسى ٣٤ ١٢٣ ١٢٤
التنوي ٨٨	موسى بن نصير ١٤٦

الوليد بن طريف ١٧٩ ، ١٨٤ ،	النيروز ١٦٧
١٨٥	النيل ١٠٩
الوليد بن عبد الملك ١٥٠ ١٥٣ ١٥٧	لامانس ١٣ ، ١٤ ، ٢١ ، ٢١ ، ١٢١ ، ١٢٢ ،
١٦٥ ١٦٠ ١٥٩ ١٥٨	١٢٦ ، ١٢٥ ، ١٢٤ ، ١٢٣
الوليد بن المغيرة المخزومي ٢٣	هبيره بن وهب المخزومي ١٦
ولبريان ٨٧	الهبجرة ٣ ، ٩ ، ٥٧ ، ٤٠ ، ٤٦ ، ٤٩
الياقوت ( جزيرة ) ١٤٧ ١٤٨	١١٢ ، ٥١
يربوع ١٤٨	هرقل ٩٥
يحيى بن سعيد ١٧٣	الهرير ٨٣
يزدجرد ٨٢ ٨٣ ٩٢	هشام بن اسماعيل المخزومي ١٥٧
يزيد بن أبي كبشة السكسكي ١٥٣	الهند ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٥٤ ، ١٩٣ ،
يزيد بن أبي مالك الدمشقي ١٧٢	١٩٤
يزيد بن ابي مسلم ١٨٤	الهون بن خزيمه بن مدركة ١٥
يزيد بن عبد الملك ١٦٠ ١٦٤ ١٦٥	هوازن ٥٥ ، ٨٠
١٧٠	هولنده . ١٩٤
يزيد بن مزيد الثيباني ١٨٤ ١٨٥	الهياطله ٨٧
يزيد بن المهلب ١٥٣	واترلو ٥٢
اليعاقبة ٩٧	واسط ١٥١ ١٥٤
يعلى بن معاويه ١١٠	وادي العقيق ٤٧
اليمامة ٩٧	الواقدي ٣٣ ، ٧٣
اليمين ٧ ١١٤ ١٥٣ ١٦٧ ١٧١ ١٨٦	وثينة ٢٨ ، ٨٨ ، ١٥١ ، أصحاب أوثان ،
اليهود ٢٠ ٤٢ ٤٣ ٤٤ ٤٥ ٦٢ ١٥١	أهل شرك ٤٢
اليهودية ٤٢	وحشى ( قاتل حمزة ) ٢١
يوحنا النقيوسي ٩٦ ١٦٨	ورقة بن نوفل ٢٨ ، ٣٤
يوليوس قيصر ١٠٧	الولجة ٨١
يوم الدار ١٠٥	
اليونان ، الاغريق ١٠١ ١٠٢ ١٨٩	



## فهرست الصور

- ٥ زخرقة على الخشب بجامع عمرو بن العاص  
 ١٢ زخرقة على الحجر يا حدى منارنى جامع الحاكم بأمر الله  
 ٥١ مسجد قباء ( بالمدينة المنورة )  
 ٦٣ جنة البقيع ( بالمدينة المنورة )  
 ٦٦ فسيفساء من المسجد الأموى بدمشق  
 ٧٦ صورة خيالية تمثل دخول الخليفة عمر بن الخطاب بيت المقدس  
 ٨٤ آية قرآنية بالحظ الكوفى من مسجد الحاكم بأمر الله ( من صورة الفتح  
 ... ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا .... )  
 ٩٢ تاج عمود بجامع ابن طولون  
 ٩٨ صورة تمثل فرسانا من العرب  
 ١٠٤ زخرقة عربية ( أربسك )  
 ١١٦ أحد نوافذ جامع ابن طولون  
 ١٢٠ فسيفساء بقصر هشام بخربة البفجر بفلسطين  
 ١٤٤ أحد مداخل جامع ابن طولون  
 ١٦٣ جنة المعلى ( بالمدينة المنورة )  
 ١٧٤ فسيفساء بالمسجد الأموى بدمشق  
 ١٨٧ كتابة كوفية وزخرقة بالجامع الأزهر من عصر بنائه

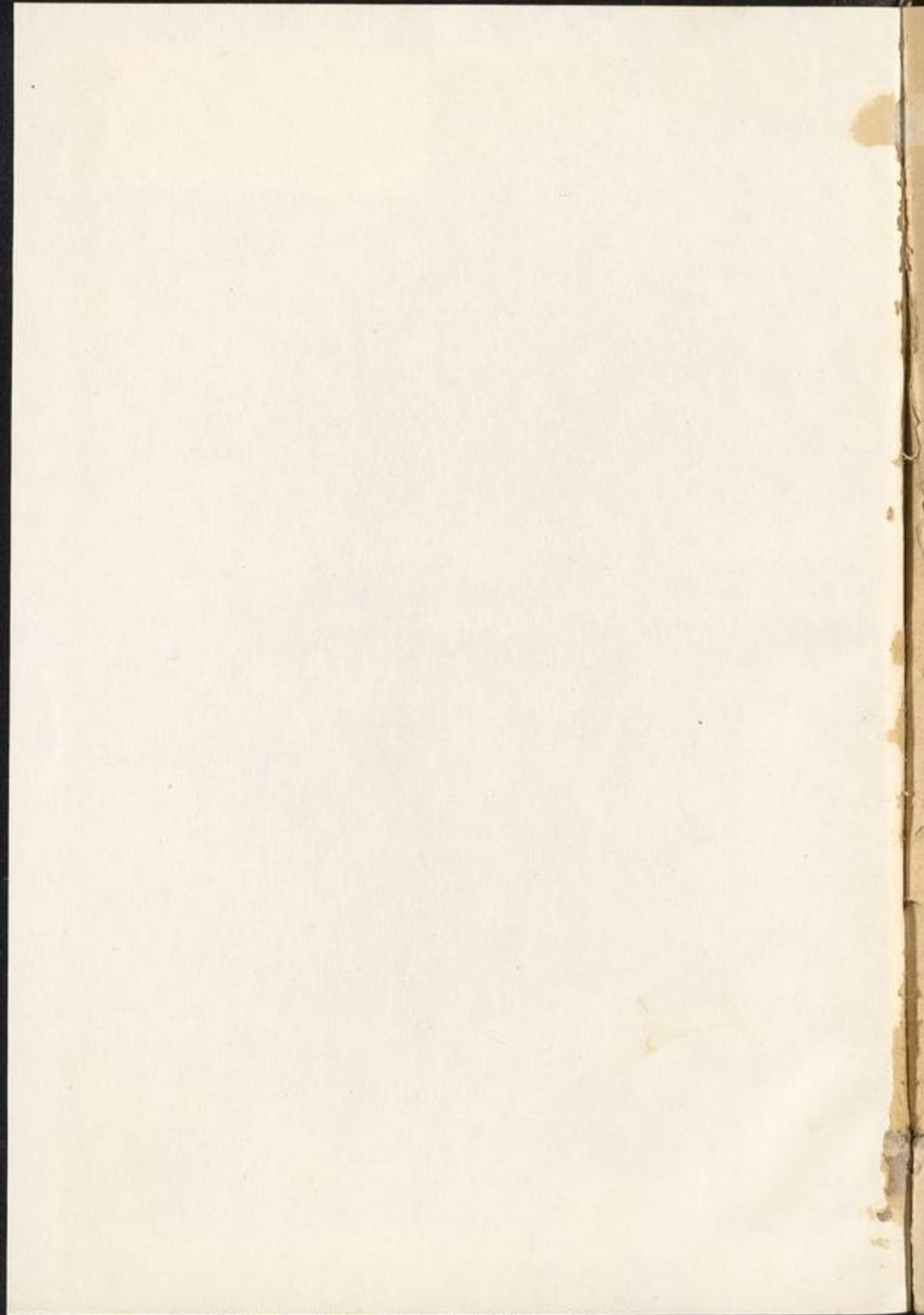
## فهرست الموضوعات

ا	الإهداء
ب	كلمة الجمعية التاريخية
١	× دروس من الصحراء
٤	× مصر القديمة ، وآثارها
٦	دار الندوة
١٣	أحابيش قريش ، هل كانوا عربا أو حبشا ،
٢٢	دار الأرقم المخزومي
٢٦	أم المؤمنين خديجة بنت خويلد
٢٧	الهجرة
٥٢	كيف كان الرسول يسوس أصحابه
٥٧	من ذكريات الحج
٦٤	رسالة الحج
٦٧	عمر بن الخطاب في عام الرمادة (١)
٧٢	عمر بن الخطاب في عام الرمادة (٢)
٧٧	عمر الفاتح ( الروح الذي وجه المسلمين إلى النصر الباهر )
٨٥	دولة الأكرسة ٢٢٦ - ٦٥١ م
٩٣	فتح العرب لمصر ، تأليف بتلر وتعريب محمد فريد أبو جديد
٩٩	× على ساحل بحر الروم
١٠٥	× شعراؤنا وسيدنا عثمان
١٠٨	أبو ذر الغفاري
١١٧	× العتبات المقدسة
١٢١	الآب لامانس والحكومة الإسلامية الأولى

١٢٧	زياد بن أبي سفيان (١)
١٣٦	زياد بن أبي سفيان (٢)
١٤٥	محمد بن القاسم الثقفي
١٥٥	عمر بن عبد العزيز ٦٢ - ١٠١ هـ (١)
١٦٤	عمر بن عبد العزيز (٢)
١٧٥	نساء الخوارج
١٨٨	الأدب العربي المصري (١) ✕
١٩٠	الأدب العربي المصري (٢) ✓
١٩٣	البعث ..... ✕
١٩٦	كشاف
٢١٤	فهرست الصور
٢١٥	فهرست الموضوعات

تصويب

صواب	خطأ	س	ص
أبوا	أبو	٣	١٠٧
المسلمين	المسمين	١٣	١١٤
ووضعوا	ووضعو	١٣	١١٥
واودعنها	وأودعتها	آخر سطر	١١٧
فاستأذنا	فاستأذنا	١١	١١٨
ذا	ذى	٦٠٤	١١٩
غرى	عرى	٨	١١٩
ذهنه	ذهنة	٢	١٣٢
سمنار	سنا	١٥	١٥٢



Cornell University Library

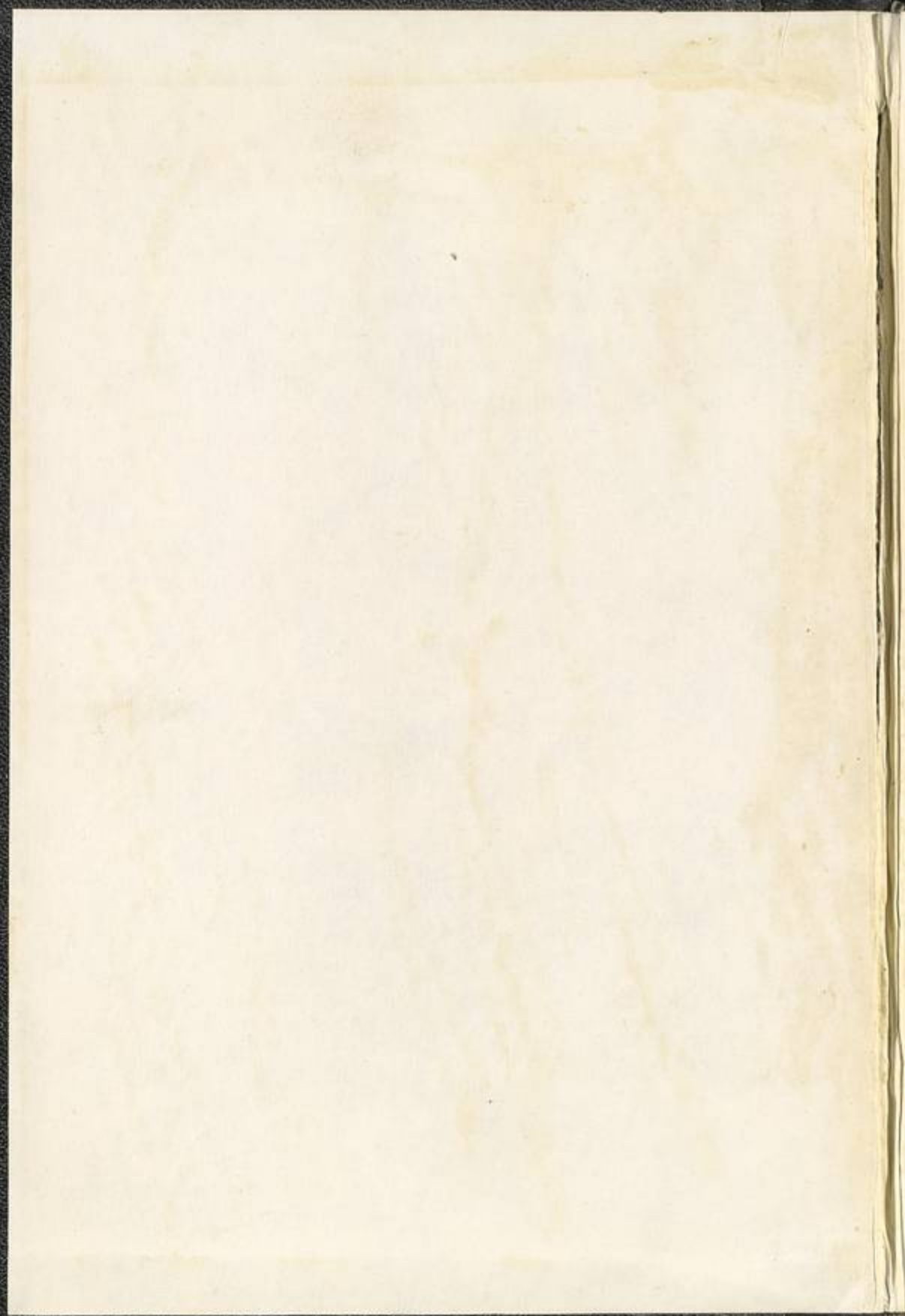
D 199.3.A12

Suwar min al-tarikh al-Islami :



3 1924 027 966 013

mla



D

199

.3

A12